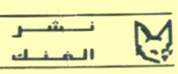
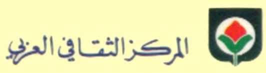
فاطمة المرنيسي

نساء على أجنحة الحلم

ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل





LE FENNEC

Rêve de femmes

الطبعة العربية الأولى

1998

الإيداع القانوني : 1172/97
ردمك : -9981-838-70-5

منشورات الفنك

89 ـ شارع أنفا ـ 2000 الدار البيضاء ـ المغرب

المركز الثقافي العربي

42 ـ الشارع الملكي (الأحباس) الدار البيضاء
ص.ب 4006 (درب سيدنا)

فاطمة المرنيسي

نساء على أجنحة الحلم

ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل

نشر الفنك

HAMDAN.B
30/12/09

Titre original
Dreams of trespass – Tales of a harem girlhood

ISBN n°9981-838-52-7

مقدمة

عزيزي القارئ، هل تعرف أن الطبعات الأخرى، من الكتاب الذي بين يديك، مزوّرة وتمّ طبعها دون أخذ إذن من مؤلف الكتاب؟ وأن هناك أناس لا يملكون أي عذر، يسرقون في واضحة النهار، مؤلفات كتّاب، دون أن يتصلوا بهم ليطلبوا حق النشر، ويقدّمون هذه الكتب للقارئ في طبعات متسرّعة ورديئة الترجمة يؤدون عنها أجوراً زهيدة تبعث على الخجل..

لقد كنت أعتقد مثلك عزيزي القارئ، بأن سرقة أعمال الآخرين جنحة تستحق العقاب، وأن القانون يعاقب المجرمين! كيف يكون ذلك وقد سطا ناشرون على كتبي دون استشارتي، ونشروها معلنين بصفاقة بأن كل الحقوق تعود إليهم؟

هكذا أجد مثلاً في الأسواق ترجمة عربية تحمل اسم (دار عطية للنشر) لكتابي هذا، دون استشارتي أو طلب حقوق النشر مني وقد كتب عليها «جميع الحقوق محفوظة للناشر».

يبدو أن هذا السيد يعتقد بأنه من الطبيعي جداً سرقة مؤلف في سنة 1997 تطلّب 900 ساعة من العمل - استغرقت مني كتابة هذا المؤلف خمس سنوات - ويعلن بأن «جميع الحقوق محفوظة للناشر» إذن نحن أمام احتمالين: إما أن السيد عطية يجهل أن القانون الوضعي

والأخلاقي يحمي حقوق المؤلفين وحقوق كل الناس، أو أنه يعتبر أن العبودية وسرقة عمل الآخرين لا زالتا قائمتين. . وعليك عزيزي القارئ أن تختار الجواب.

وفي انتظار التوقف عن هذه الأعمال المشينة، أنصحك باقتناء هذه الترجمة الرائعة التي أعدّتها الأستاذة فاطمة الزهراء ازريول، حيث حصلت على موافقتي باعتبارها ترجمة تؤدي المعنى الذي أردته دون تشويه أو مسخ، وحيث على الأقل يتوضح أن الاسم اسم يُنطق ويُكتب بطريقة سليمة «للّاطام» ليست «لا لا تم» و«للّامهاني» ليست «للّاماني» كما هو الشأن في الترجمة التي أصدرتها دار السيد أو السيدة عطية.

فاطمة المرنيسي

الرباط ـ 1998

- 1 -

حدود الحريم



ولدت في حريم بفاس، المدينة المغربية التي تعود إلى القرن التاسع، وتقع على بعد خمسة آلاف كلمتر غرب مكة وألف كلمتر جنوب مدريد، إحدى عواصم النصارى القساة. مشاكلنا مع النصارى كما يقول أبي وكما هو الشأن مع النساء تبدأ حين لا تحترم الحدود، وقد ولدت في فترة فوضى عارضة، إذ أن النساء والنصارى كانوا يحتجون على الحدود ويخرقونها باستمرار.

على باب حريمنا ذاته، كانت النساء يهاجمن «أحمد» البواب ويضايقنه باستمرار، وكانت الجيوش الأجنبية تتوافد مجتازة حدود الشمال. والواقع أن الجنود الأجانب كانوا مرابضين في زاوية دربنا بالضبط، الموجود في الخط الفاصل بين مدينتنا القديمة، وتلك التي بناها الغزاة وأسموها المدينة الجديدة.

يقول أبي بأن الله عندما خلق الأرض وما عليها فصل بين النساء والرجال، وشق بحرا بكامله بين النصارى والمسلمين، ذلك أن النظام والانسجام لا يتحققان إلا إذا احترمت كل فئة حدودها، وكل خرق يؤدي بالضرورة إلى الفوضى والشقاء. غير أن النساء كن مشغولات باختراق الحدود، مهووسات بالعالم الموجود خارج الأسوار، يتوهمن أنفسهن طيلة النهار متجولات في طرق خيالية. وخلال تلك الفترة كان النصارى يجتازون البحر تباعا زارعين الموت والفوضى.

الشقاء والرياح الباردة يأتيان من الشمال، ونحن نولي وجهنا للشرق للصلاة. مكة بعيدة ولكن صلواتك قد تصلها إذا عرفت كيف تركز، وسيلقنونني التركيز في الوقت المناسب. كان الجنود الإسبان مرابطين شمال مدينة فاس، وحتى أبي وعمي اللذين كانا من أعيان المدينة ويمارسان سلطة لا تناقش في البيت، كانا مجبرين على طلب الإذن من مدريد لحضور موسم مولاي عبد السلام بالقرب من طنجة على بعد ثلاثمائة كلمتر من مدينتنا. ولكن الجنود الواقفين على بابنا ينتمون إلى قبيلة أخرى. لقد كانوا فرنسيين، إنهم مسيحيون كالإسبان ولكنهم يتحدثون لغة مغايرة، كانوا يسكنون بلادا أبعد في الشمال، وباريز هو اسم عاصمتهم. يقول ابن عمي سمير بأنها تبعد ألفي كلم وأنها أبعد من مدريد مرّتين وأن سكانها أكثر شراسة. يتنازع المسيحيون كالمسلمين فيما بينهم طيلة الوقت، وقد مزق الإسبان والفرنسيون بعضهم البعض على أرضنا. وبما أن أحدهم لم ينجح في القضاء على الآخر، قرروا تقسيم المغرب إلى قسمين. لقد أوقفوا جنودا قرب «عرباوة» وأعلنوا بأن من شاء التوجه نحو الشمال، عليه الحصول على جواز سفر لأنه يدخل المغرب الإسباني، وإذا شاء التوجه نحو الجنوب عليه أن يحصل على جواز مرور آخر إذ أنه حسب قولهم يجتاز حدودا للدخول إلى المغرب الفرنسي، وإذا ما رفض الشخص الامتثال لأوامرهم سيظل محاصرا في عرباوة، وهي مكان اختير بطريقة عشوائية شيدت فيه باب ضخمة أسموها حدودا. ولكن أبي شرح لنا بأن المغرب موحد منذ ملايين السنين، وحتى قبل مجيء الإسلام أي منذ أربعة عشر قرنا، لم يسمع أحد بحدود تقسم المغرب إلى قسمين.

الحدود خط وهمي في رأس المحاربين. ابن عمي سمير الذي كان يرافق عمّي أحيانا ووالدي في أسفارهما يقول بأن اختلاق حدود يقتضي التوفر على جنود لإجبار الآخرين على الاقتناع بها، أما في

المكان ذاته فلا شيء يتغير، إن الحدود لا توجد إلا في أذهان الذين يملكون السلطة. ما كان بإمكاني التأكد من ذلك في عين المكان لأن عمي وأبي كانا يؤكدان بأن النساء لا يسافرن، فالأسفار خطيرة والنساء عاجزات عن الدفاع عن أنفسهن. عمّتي حبيبة التي طلقت وطردت من بيتها دون سبب من طرف زوج كانت تكن له كل الودّ، تزعم بأن الله بعث بجيوش الشمال ليعاقب الرجال على عدم احترامهم للحدود التي تحمي الضعفاء، والإساءة إلى امرأة تعدّ تخطيا لحدود الله، ذلك أن الإساءة إلى الضعفاء ظلم، وقد بكت عمتي حبيبة طيلة سنوات.

التربية هي أن تتعلم كيف تميز الحدود، ذلك ما كانت تقوله للّلا الطام «الفقيهة» بالكُتّاب الذي بعثوا بي إليه في سن الثالثة، لكي ألتحق بأبناء وبنات أعمامي العشرة. تملك لللا الطام سوطا مخيفة، وأنا دائما متفقة معها على طول الخط بشأن الحدود والنصارى والتربية. أن تكون مسلما، يعني أن تحترم الحدود، أي أن تطيع إذا كنت طفلا. كنت أرغب كثيرا في إرضاء لللا الطام وما أن أفلت من مراقبتها، حتى أطلب من ابنة عمي مليكة التي تكبرني بعامين أن تدلني على الموقع الذي توجد فيه هذه الحدود بالضبط، وقد أجابتني بأنها متأكدة من أن الأمور ستسير على ما يرام إذا أطعت لللا الطام. إذ أن الحدود هي ما تمنعه هذه الأخيرة. طمأنتني كلمات بنت عمّي وصرت أحب المدرسة.

غدوت من يومها منشغلة بالبحث عن الحدود وقد استبد بي القلق حين أصبحت عاجزة عن تبين الخطّ الهندسي الذي ينظم عجزي.

عشت طفولة سعيدة لأن الحدود كانت واضحة، وكان أولها هي العتبة التي تفصل حجرة أبي وأمي عن وسط الدار. لم يكن يسمح لي باجتياز تلك العتبة للّعب في وسط الدار خلال الصباح قبل

استيقاظ أمي، أي أنه كان علي أن ألعب دون ضجيج بين السادسة والثامنة صباحا. كنت أجلس على عتبة الرخام الأبيض البارد، وأقاوم رغبتي في الالتحاق بأبناء أعمامي الأكبر مني وهم يلعبون. تقول لي أمي «بأنك لازلت صغيرة ولا تعرفين بعد الدفاع عن نفسك، إن اللعب نوع من الحرب». كنت أخاف الحرب، ولذلك أضع مخدتي الصغيرة على العتبةوألهو بلعبة «لمسارية بال»لاس»، وهي لعبة اخترعتها ولازلت أراها مفيدة. لكي تلعبها يكفيك ثلاثة شروط : أولها أن تكون محاصرا في مكان ما، وثانيها أن يكون لك مكان تجلس فيه، والشرط الأخير أن تتوفر على قدر من التواضع لكي ترى بأن وقتك لا يكتسي قيمة، أما اللعبة في حد ذاتها فهي أن تنظر إلى مكان معتاد كما لو كان غريبا عنك.

كنت أجلس على العتبة، وأنظر إلى بيتنا كما لو كنت أراه لأول مرة، هناك في البداية وسط الدار ذو التقسيم الصارم، النافورة الرخامية التي تغرّد وسط الدار ليل نهار تبدو هي الأخرى مطيعة ومستسلمة، يحيطها شريط رقيق من الزليج الأزرق والأبيض كذلك الذي يرصّع المربّعات الرخامية التي تغلف الأرض. الساحة محاطة بسواري تعلوها الأقواس، أعلى وأسفل كل سارية من رخام، أما الوسط فيرصعه زليج أبيض وأزرق يتلاءم مع تشكيل الأرض. كل العناصر كانت تندرج في تناسق شرس ضمن سيرورة انعكاسات أبدية، لاشيء متجاوز والصدفة مستحيلة أو بالأحرى غير واردة.

على كل جانبين من وسط الدار تتواجه غرفتا جلوس شاسعتان، لكل منهما باب فخم، وبجانبها نوافذ كبيرة مفتوحة على وسط الدار. كانت الأبواب الكبيرة المصنوعة من خشب الأرز المنقوش تغلق في الصباح وخلال فصل الشتاء، أما في الصيف فتظل مشرعة تغلفها ستائر ثقيلة من المخمل المطرّز تتسرّب النسائم عبرها وتحول دون الضجيج والضوء.

لنوافذ غرف الجلوس شبابيك من حديد ذات لون فضي تعلوها أقواس زجاجية ملوّنة، كنت مفتونة بهذه القطع الزجاجية وانعكاس أشعة الشمس الصباحية على ألوانها حيث يتماوج الأزرق والأحمر منها ويغدو الأصفر فاتحا. في الطابق الأول والثاني نجد السواري والأقواس مرة أخرى، وأخيرا إذا رفعت بصرك إلى أعلى سترى السماء مربعة كباقي الأشياء، سجينة شريط من الخشب المزين برسوم هندسية حمراء وصفراء باهتة بفعل الزمن.

كانت تجربة رؤية السماء من وسط الدار مؤثرة للغاية، تبدو لك السماء شاحبة في البداية بفعل الفخ الذي وضعها الإنسان فيه، بيد أن حركة النجوم في الضحى وهي تذوب ببطء في عمق الزرقة تكتسي قوّة تبعث بك على الدوار، وفي بعض أيام الشتاء على الأخصّ، حين تطرد أشعة الشمس القرمزية والوردية الأولى آخر النجوم من السماء، بإمكانك أن تستسلم بسهولة للتنويم، حيث تستشعر الرغبة في النوم ورأسك مائلة إلى الوراء، وعيناك مشدودتان إلى السماء المربعة. ولكن في تلك اللحظة بالضبط يشرع الأفراد في التوافد على وسط الدار، قادمين من كل مكان، من الأبواب والأدراج. كدت أنسى الأدراج، إنها مهمة لأن بإمكان الكبار هم الآخرون أن يمارسوا «الغميضة» وهم يصعدون وينزلون أدراج الزليج الأخضر.

في مواجهة الجانب الآخر من وسط الدار، توجد غرفة عمي علي التي يسكنها مع زوجته وأبنائه السبعة، وهي مطابقة لغرفتنا مطابقة كاملة. ذلك أن أمي لم تكن لتسمح بفرق بين غرفة عمي وغرفتنا، رغم أنه كان للعم الحق في الحصول على جناح أكبر وأفخم بصفته البكر. لم يكن عمي علي أكبر وأغنى من أبي فحسب، ولكنه كان أيضا رب أسرة أكبر عددا من أسرتنا. كنا خمسة : أخي وأختي وأبي وأمّي وأنا، في حين كانت أسرة عمّي تضم تسعة أفراد، بل

عشرة إذا حسبنا أخت زوجته التي كانت تأتي إلى زيارتهم من الرباط، وتقيم أحيانا ستة أشهر كاملة بعد أن اتخذ زوجها زوجة ثانية.

كانت أمي، التي تكره الحياة الجماعية في الحريم وتحلم بالعيش منفردة مع أبي، لا تقبل ما تدعوه التلاؤم مع الأزمة إلا على شرط أن لا يكون هناك تمييز بين النساء، وتفرض التوفر على نفس الامتيازات التي تتمتع بها زوجة عمّي رغم التباين في العدد والمكانة الاجتماعية. قبل عمّي الالتزام بهذا الشرط، لأن السلطة في حريم منضبط تتطلب منك الشهامة، ولذلك شغل هو وأبناؤه في نهاية الأمر مكانا أوسع في الدار لكن بطريقة يحيطها الكتمان في الطابق الأعلى بعيدا عن الساحة، حيث تصطبغ الأشياء بطابع عمومي، فالسلطة لا يجب أن تعبّر عن نفسها بشكل فاضح.

كانت جدتي لأبي «اللا مهاني» تشغل الحجرة الموجودة على يساري، والتي نقصدها مرتين في اليوم لتقبيل يدها، إحداهما في الصباح والأخرى في المساء. كشأن باقي الحجرات، كانت حجرتها مفروشة بالمضربات المغلفة بالبهجة والوسائد التي تمتدّ خلال الحيطان الأربعة، كانت هناك مرآة كبيرة تتصدّر الحجرة وينعكس عليها الباب والستائر والزربية المزينة بالورود ذات الألوان الفاتحة. لو خطوت فوق هذه الزربية بحذائك أو بقدميك المبللتين لنلت اللعنة، وهو شيء لم يكن بالإمكان تجنبه في الصيف حين يغسل وسط الدار مرّتين كل يوم بماء النافورة تخفيفا للحرّ. تحبّ النساء الشابات كابنة عمّي شامة وأخواتها غسل بلاط الساحة وهن يلعبن لعبة la piscine (المسبح) يقذفن بلامبالاة سطول الماء على الأرض ويبلّلن «عن طريق الخطإ» أقرب شخص إليهن، الشيء الذي كان يشجع الصغار وخاصة أنا وابن عمي سمير، على الجري نحو المطبخ والعودة بأنبوب السقي، حيث يغمرنا الفرح ونحن نرش الآخرين وهم يتصايحون ويحاولون إيقافنا. كان صراخنا يزعج «اللامهاني» التي ترفع ستارتها غاضبة

وتهدد بأنها ستشتكينا لأبي وعمّي لدى عودتهما في المساء «سأقول لهما بأن لا أحد في هذه الدار يحترم أصحاب الشأن».

تكره جدّتي اللهو بالماء والأقدام المبتلة، وفعلا إذا ما جرينا نحوها بعد مرورنا قرب النافورة تأمرنا دائما بالتزام مكاننا «لا تكلميني حين تكون قدماك مبتلتين، اذهبي لتنشيفهما أولا»، وتبعا لذلك، فإن كل من يخرق قانون الأقدام النظيفة وغير المبتلة تسقط عليه اللعنة حتى النهاية، وإذا ما تجرأ وخطا فوق الزربية أو ألصق بها وسخا سيسمع بتلك اللعنة خلال سنوات. تحب لللامهاني فرض الاحترام، أي أن تظل جالسة وحيدة متأنقة مزينة بالتاج المرصّع بالأحجار وهي تنظر إلى الباحة صامتة. إنها تحب أن تحاط بصمت عميق، والصمت ترف بالنسبة لبعض ذوي الامتيازات الذين بإمكانهم أن يفرضوا على الأطفال الابتعاد والتزام مسافة تفصلهم عنهم.

أخيرا على الجانب الأيمن من وسط الدار، توجد أكبر الحجرات وأجملها : إنها حجرة الرجال، يتناولون فيها طعامهم ويستمعون إلى الأخبار، ويتناقشون في الأعمال ويلعبون الورق. لقد كان لهم، دون غيرهم، الحق في الاقتراب من دولاب ضخم قابع في الزاوية اليمنى من الحجرة وبه جهاز راديو، حيث كان يتمّ غلق الدولاب بالمفتاح إذا لم يستعمل الراديو، وكانت مكبرات الصوت الموضوعة خارج الحجرة تمكن الجميع من الاستماع.

كان أبي متأكدا من أنه الوحيد الذي يملك مفتاح الدولاب إضافة إلى عمي. إلا أن النساء وبطريقة غريبة كنّ يستمعن بانتظام إلى إذاعة القاهرة في غياب الرجال. وكانت شامة وأمّي ترقصان أحيانا كثيرة على نغمات الراديو التي تصاحب صوت اسمهان في أغنية «أهوى». لن أنسى ما حييت المرّة الأولى التي اتهمتني فيها النساء، أنا وسمير بالخيانة لأننا قلنا لأبي بأننا استمعنا إلى إذاعة القاهرة حين سألنا ذات يوم عما قمنا به في غيابه، وكان جوابنا يكشف عن وجود

مفتاح غير شرعي، بل كان يعني بأن النساء استحوذن على المفتاح ليصنعن منه مفتاحا آخر مطابقا، زمجر أبي غاضبا : «إذا توفرن اليوم على مفتاح آخر للراديو، سيكون لهن غدا مفتاح آخر للباب الكبيرة». تلت ذلك خصومة عنيفة واستُجوبت النساء الواحدة تلو الأخرى في حجرة الرجال، وبعد يومين من البحث تبين بأن المفتاح نزل من السماء ولا أحد يعرف له مصدرا، ولكن النساء بعد ذلك انتقمن منا نحن الأطفال واتهمننا بالخيانة وهدّدن بإبعادنا عن دائرة لهوهن. أخافتنا الفكرة ودافعنا عن أنفسنا وشرحنا بأننا لم نفعل سوى قول الحقيقة، فعقبت أمّي بأن هناك فعلا أشياء حقيقية ولكن ذلك لا يعني التصريح بها، وأضافت بأن لا علاقة لما نقوله أو نخفيه بالحقيقة أو الكذب، رجوناها أن تشرح لنا الطريقة التي نميز بها الفرق، فلم تدل لنا بإجابة مرضية «عليكم أن تحكموا على نتائج أقوالكم، وإذا كان ما ستقولونه سيتسبب في إيذاء أحد ما فلا داعي لقوله» تلك كانت نصيحتها التي لم تنر طريقنا، كنا أكثر حيرة من البداية وخاصة سمير، مسكين ابن عمّي! كان لا يطيق نعته بالخائن، ثار وصرخ بأنه حرّ في قول ما يبدو له. كالعادة أعجبت بجرأته ولكنني لم أنبس ببنت شفة. قلت في نفسي : لو أضفت هذا العبء الآخر، لتبينّ ما يطلقون عليه الأسرار، إلى التفريق بين الحقيقة والكذب لن أفهم شيئا. من الأفضل أن أقبل بكوني سأُسبّ غالبا وأنعت بالخائنة.

كانت ثورات سمير ضدّ الكبار تدخل السرور على نفسي، وكنت أعتقد بأن لاشيء سيمسني لولازمته. ولدت أنا وابن عمّي في نفس اليوم، ذات ظهيرة من أيام رمضان الطويلة، رأى النور قبلي في الطابق الثاني وكان سابع إخوته، أمّا أنا فقد ولدت بعده بساعة في حجرتنا بالطابق السفلي وكنت بكرة والدتي. ورغم العياء الذي كان باديا عليها عقب الوضع، أصرّت أمي على أن تطلق النساء نفس الزغاريد ويحتفلن بنفس الطريقة التي استقبلن بها سمير، لقد رفضت

دائما تفوق الذكور وعدّته عبثا وأمرا متناقضا مع الإسلام الحق، ولذلك كانت لا تفتأ تردد : «لقد خلقنا الله جميعا متساوين». صدحت الدار تلك الظهيرة مرّة أخرى بنفس الزغاريد والأغاني حتى اعتقد الجيران بميلاد ذكرين. كان أبي فرحا: كنت مولودة بادية العافية ذات وجه مستدير ممتلىء، وأعلن فورا بأنني سأكون بالغة الجمال، قصدت «لللا مهاني» إثارته فقالت له بأنني شاحبة وعيناي جد مشقوقتين وخداي بارزان، في حين أن سمير «ذو بشرة ذهبية رائعة وأن عينيه سوداوان، واسعتان وفاتنتان». حكت لي أمي فيما بعد بأنها لم تقل شيئا، ولكن ما إن تمكنت من الوقوف حتى أسرعت لرؤية ما إذا كان لسمير فعلا تلك العيون، وكانت تلك هي الحقيقة، لازالت عيونه فاتنة، ولكنها تفقد رقتها المخملية حين يغضب، وقد تساءلت في نفسي دائما إذا ما كان توثبه حين يثور ضد الكبار ناجما عن كونه جافا وعصبيا. على العكس من ذلك، كنت ممتلئة إلى حد لم يكن يخطر لي ببال أن أتوثب ضد من يضايقني، كنت أبكي وأقصد أمي لكي أخفي وجهي في تلافيف قفطانها، وكانت هي تكرّر دائما بأن علي أن لا أعوّل على سمير لكي يثور مكاني «عليك أن تتعلمي الصراخ والاحتجاج كما تعلمت المشي والكلام، إذا كنت تبكين حين تسمعين السباب فكأنك تطالبين بالمزيد».

كانت قلقة من أن أتسم بالجبن عندما أكبر، إلى حدّ دفعها لاستشارة أمّها أي جدّتي الياسمين، حين زرناها خلال عطلة الصيف. كانت جدّتي الياسمين مشهورة بإتقانها لفن الخصام، وقد نصحت أمي بأن تكف عن مقارنتي بسمير وأن تشجعني على حماية من هم أصغر مني «هناك طرق كثيرة لتنمية روح المسؤولية لدى الطفل، إن العدوانية والأخذ بتلابيب الآخرين حلّ ولكنه بالتأكيد ليس بالحل الأرقى، لو شجعتها على استشعار المسؤولية تجاه الصغار المحيطين بها لمنحتها القدرة على إثبات ذاتها. ليس التعويل على سمير لحمايتها

عجزا، بما أنها تتعلم كيف تحمي الآخرين، وإذا عرفت ذلك فستعرف حتما كيف تحمي نفسها».

بيد أن حادث الراديو هو الذي أتاح لي التفكير، حدثتني أمي في تلك المناسبة عن ضرورة مضغ كلماتي قبل النطق بها «أديري لسانك في فمك سبع مرات وأنت تزمين شفتيك قبل النطق بكلمة، إذ أنك تخاطرين بنفسك إذا ما أطلقتِ الكلام»، تذكرت حينها قصص ألف ليلة وليلة، وكيف أن كلمة واحدة في غير محلها قد تجلب المصائب لمن ينطقها، إذا هي لم تعجب الخليفة. وقد يحدث أن ينادي على السياف في الحين. إلا أن بإمكان الكلمات أن تنقذ من يتحكم في نسجها بحذاقة، وتلك حال شهرزاد راوية ألف ليلة وليلة. كان الخليفة سيقطع رأسها ولكنها نجحت في إيقافه بسحر الكلمات.

كنت متلهّفة على معرفة الطريقة التي تصرّفت بها.

- 2 -

شهرزاد،
الخليفة والكلمات



عشية ذات يوم شرحت لي أمي السبب الذي جعل الحكايات تسمّى بألف ليلة وليلة. لقد كانت شهرزاد الزوجة الشابة مجبرة في كل ليلة من تلك الليالي العديدة على اختراع حكاية جديدة مثيرة، حتى تنسي زوجها الخليفة عزمه المشؤوم على قتلها في أول الصباح. أصابني الرعب: «أمّاه! هل تعنين بأن الخليفة سينادي على السياف إذا لم تعجبه الحكاية». وشرعت في اقتراحِ الحلول للفتاة المسكينة. كنت أودّ أن تفتح في وجهها طرق أخرى، لِمَ لَمْ يكن بإمكانها قول ما تريد دون أن تعبأ بالخليفة؟ ولماذا لا نقلبَ الوضع في القصر، ونفرض أن يكون هو مجبرا على أن يقص عليها حكاية مثيرة كل ليلة؟ حينها سيدرك الرعب الذي يصيب الإنسان إذا كان مفروضا عليه أن ينتزع إعجاب آخر يملك سلطة قطع رأسه! أجابتني أمي بأن علي أولا أن أستمع إلى التفاصيل، وبإمكاني بعدها أن أتخيل الحلول.

لم يكن زواج شهرزاد كما قالت أمّي عاديا، لأنه حدث في ظروف جدّ سيئة. لقد فاجأ الملك شهريار زوجته في الفراش مع أحد عبيده، استشعر الإهانة والغضب فأمر بقطع رأسيهما، بيد أنه اكتشف بأن ذلك لم يشف غليله، وظل مهووسا بالرغبة في الانتقام. كان يلزمه قتل نساء أخريات ومن ثمّ طلب من وزيره الأول، الذي كان أبا لشهرزاد، أن يأتيه بعذراء كل ليلة، يتزوجها، ويقضي الليلة معها، ثم يقتلها في أول الصباح.

ظل الأمر على هذه الحال خلال ثلاث سنوات : «ولم يزل الملك شهريار يأخذ كل ليلة بنتا من أولاد التجار وبنات العامة، ويبات معهم ويصبح فيقتلهم حتى فنيت البنات وتباكت الأمهات وضجت النسوان والآباء والوالدات، وصاروا يدعوا على الملك بالآفات ويشكوه إلى خالق السماوات ويستغيثوا لسامع الأصوات ومجيب الدعوات»-1- .

ذات يوم خلت المدينة من العذارى ولم تبق منهن إلا شهرزاد بنت الوزير البكر وأختها دنيازاد. حين عاد الوزير ذلك المساء شاحبا ومهموما، سألته شهرزاد عن الأمر، حدثها عن المشكلة وكان ردّ فعلها غير متوقع بالمرّة، فعوض أن ترجو أباها أن يسهّل عليها الإفلات، تطوّعت لقضاء الليلة مع الملك :

«يا أبتاه، إنّي مطالعتك على ما في سرّي، فقال وما هو؟. قالت أشتهي منك أن تزوجني إلى الملك شهريار، إمّا أنّني أتسبب في خلاص الخلق وإمّا أنّني أموت وأهلك ولي أسوة بمن مات وهلك»-2- .

اعترض الأب الذي كان يحب ابنته، وحاول إقناعها بأن تساعده على إيجاد حلّ آخر، لأن تزويجها من شهريار يعني الحكم عليها بالموت الأكيد. إلا أن شهرزاد كانت على العكس من أبيها مقتنعة بقدراتها الاستثنائية على وقف المذبحة. ستشفي روح الملك الحائرة وهي تقصّ عليه شقاء الآخرين، سترحل به إلى بلاد بعيدة يجد فيها عادات غريبة حتى تمكنه من فهم الغرابة التي يحملها في ذاته، ستساعده على أن يدرك بأن كرهه للنساء إلى حد الهوس سجن يقيده. كانت شهرزاد متأكدة بأن الملك سيتغير ويغدو قادرا على الحب إذا هي أجبرته على أن يفهم ذاته. خضع أبوها للطلب على مضض، وزوّجها لشهريار في نفس الليلة

ما إن دخلت شهرزاد غرفة الملك شهريار، حتى شرعت في

قص حكايةعجيبة عملت على قطعها في أشدّ اللحظات تشويقا إلى حدّ أن الملك لم يطق فراقها في أوّل الصباح، ولذلك أنعم عليها بالحياة حتى الليلة التالية لكي تكمل القصة. ولكن شهرزاد في الليلة الثانية شرعت في قصّ حكاية أخرى أكثر إثارة كانت نهايتها لاتزال بعيدة حين حلّ الصباح، فاضطر الملك إلى العفو عنها مرّة أخرى، واستمرّ الأمر على هذه الحال طيلة ألف ليلة وليلة أي خلال ثلاث سنوات تقريبا. حينها كان الملك بطبيعة الحال عاجزا عن فراقها، رزقا بطفلين، وبعد ألف ليلة وليلة تخلى نهائيا عن عادته السيئة في قطع رؤوس النساء.

بكيت حين صمتت أمّي عن حكاية شهرزاد: «ولكن كيف نتعلم الحكي لكي ننتزع إعجاب ملك؟»، همست والدتي وكأنها تخاطب نفسها بأن ذلك قدر النساء، إنهن يقضين حياتهن في إتقان مثل هذه الأشياء، فلم يسعفني هذا الجواب الغامض بشيء، أضافت أمي بأن سعادتي في تلك اللحظة رهينة بمهارتي في استعمال الكلمات. بعدها شرعنا أنا وسمير في التدرّب فورا. لقد قرّرنا بعد حادث الراديو تجنب كل خطإ في القول تجاه الكبار، كنا نجلس الساعات نلوك الكلمات في صمت، وندير لساننا سبع مرّات في الفمّ، ونحن نراقب ما إذا كان الكبار يلاحظون شيئا، ولكنهم لم يكونوا يأبهون لشيء، وخاصة في الساحة حيث كانت الحياة تبدو مستقيمة ومنضبطة إلى حد كبير، على عكس ما كانت عليه الأمور في الطوابق العليا.

هناك كانت بنات أعمامي وعماتي المطلّقات يشغلن متاهة من الغرف الصغيرة، وكان عددهن يتغير حسب الخصومات الزوجية. أحيانا كانت إحدى قريباتنا تتخاصم مع زوجها فتقصدنا لعدّة أسابيع، وتأتي أخريات مع أطفالهن لعدّة أيام حتى يثبتن لأزواجهن بأنهن يتوفرن على مكان آخر للإقامة، وأنهن قادرات على تدبر أمرهن ولسن مجرد تابعات.

وغالبا ما كانت هذه الاستراتيجية مفيدة، بحيث كن يعدن إلى بيتهن معززات. وهناك من كن يقمن عندنا إقامة دائمة بعد طلاق أو أزمة حادّة. لقد كان أبي يدافع عن هذا التقليد بحرارة حين ينتقد أحدهم أمامه حياة الحريم، وكان يسأل محدّثه: «وأين ستذهب النساء إذا صادفتهن المصاعب؟».

كانت غرف الدور الأول بالغة البساطة، ذات أرض عارية وجدران مبيضة وأثاث بسيط: مضربات ضيقة محشوة بالحلفة، وحصائر من الدوم الذي ينظف بسهولة، ولذلك لم تكن الأقدام المبتلة أو الأحذية أو كأس الشاي المندلق لتؤدّي إلى النتائج المأساوية كما هو الشأن في الطابق السفلي. كانت الحياة في الأدوار العليا أسهل، لأن الحنان يغمر كل شيء، تلك الخصلة العاطفية المغربية الأصيلة التي نادرا ما عثرت عليها في الخارج.

من الصعب تعريف الحنان بدقة، إنه نوع من العطف التلقائي الذي يتسم بالحرارة ويمنح دون شرط. والناس الذين يضفونه عليك، كعمّتي حبيبة لا يهدّدون بحرمانك من عطفهم إذا ما اقترفت زلّة. لم يكن الحنان متداولا في الطابق السفلي وخاصة عند الأمهات اللائي كان اهتمامهن منصرفا إلى تلقين الطفل احترام الحدود إلى حد ينسيهن إسبال قليل من العطف عليه.

الأدوار العليا فيها مكان مفضل لمن يحب الحكايات، عليك أن تصعد المئة درج من الزليج لتؤدي بك إلى الطابق الثالث والأخير في الدار، حيث السطح الممتد وحيث كل شيء أبيض وواسع وباعث على الترحاب، كانت غرفة عمّتي حبيبة هناك، ضيقة وخالية تقريبا لأن زوجها احتفظ بكل أثاثها معتقدا بأن إشارة منه تكفي لإرجاعها مطأطأة الرأس: «ولكنه لن يستطيع أبدا تجريدي من أعز ما أملك، ضحكاتي وكل الحكايات العجيبة التي أتقن قصها حين يستحق الجمهور ذلك». سألت ذات يوم ابنة عمّي مليكة عما تعنيه «بالجمهور

الذي يستحق» فاعترفت لي بأنها لا تدري عنه شيئا هي الأخرى، قلت بأن علينا أن نسألهامباشرة ولكنها أجابت بأنه من الأفضل أن لا نسألها، لأنها قد تجهش بالبكاء. الكل كان يعرف بأن عمّتي حبيبة تنتحب أحيانا دون سبب، وكنا لا نكاد ننام ليلة الخميس من شدّة لهفتنا على حضور سهرات الحكي ليلة الجمعة.

كانت الفوضى تطبع نهاية هذه التجمعات بشكل عام، نظرا للوقت المتأخر جدا حسب أمهاتنا اللائي كن مجبرات على الصعود إلى هناك لاصطحابنا، كنا نستقبلهن بصيحات الاحتجاج، وكان المدلّلون منا، كسمير مثلا، يتلوّون على الأرض ويصرخون بأنهم لا يرغبون إطلاقا في النوم. والواقع أننا كنا إذا نجحنا فعلا في البقاء حتى نهاية القصة، أي بعد أن تنتصر البطلة على أعدائها وتجتاز في طريق عودتها «السبع نهار والسّبع جبال والسبع بْحور»، كنا نواجه خطرا جديدا أي نزول الدرج. ليس هناك ضوء، لأن أحمد البواب يراقب الأزرار الكهربائية في المدخل ويطفئها على الساعة التاسعة ليحث من كان في السطح على الدخول إلى مقرّ نومه. أما المشكل الثاني فهو الجان الذين يتجوّلون في كل الأمكنة بصمت، في انتظار الانقضاض عليك. وأخيرا فإن ابن عمّي سمير كان يقلّد الجان ببراعة إلى حدّ أنّني بت أعتقده منهم، وقد اضطررت مرّات عديدة إلى تصنع الغيبوبة لكي يكف عن تمثيليته.

أحيانا كانت الحكاية تستغرق ساعات، ولم تكن الأمهات يقدمن لاصطحابنا، فتغرق الدار برمّتها في الصمت. كنا نرجو عمّتي حبيبة لتسمح لنا بقضاء الليلة معها، فتبسط لنا زربية عرسها، التي تحرص عليها وتحتفظ بها وراء صندوقها المصنوع من خشب الأرز، وتضع فوقها إزارا أبيض تطيبه بماء الزهر. لم تكن تملك الوسادات الكافية، ولكننا لم نكن نأبه لذلك، كانت تقاسمنا غطاءها العريض والثقيل ذا اللون الأبيض، وتطفئ الضوء وتضع شمعة كبيرة على عتبة الباب:

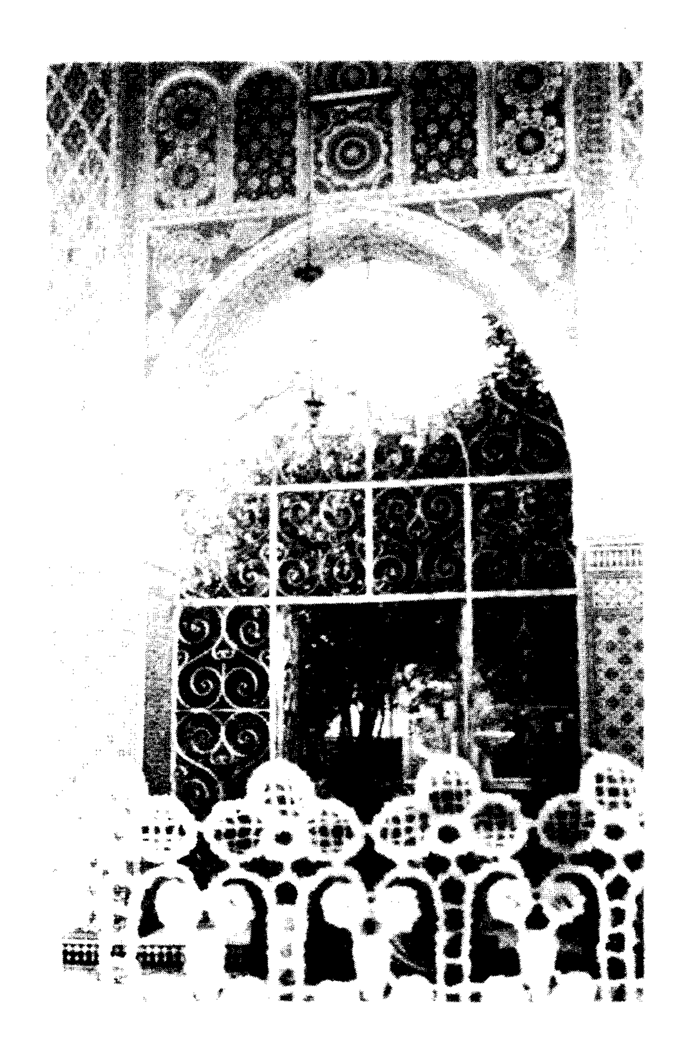
«لو أن أحدكم احتاج إلى الذهاب للمرحاض، تذكروا بأن هذه الزربية هي الشيء الوحيد الذي تبقى لي من حياتي الماضية حين كنت امرأة سعيدة». كنا ننام خلال تلك الأمسيات الجميلة على صوت عمتنا الذي يفتح أمامنا أبوابا سحرية تؤدّي إلى مروج يغرقها ضوء القمر، وحين كنا نستيقظ في الصباح كانت مدينة فاس تمتد تحت أقدامنا. ذلك أن غرفة عمّتي حبيبة الصغيرة ذات نافذة يمتدّ عبرها البصر حتى جبال الشمال.

كانت عمّتي هذه تتقن الكلام ليْلا، بالكلمات وحدها تجعلنا نبحر على ظهر سفينة كبيرة عائمة من عدن إلى المالديف أو تحملنا إلى جزيرة حيث الطيور تتكلم كالإنسان. كنا نمتطي صهوة الكلمات فنجتاز السند والهند تاركين وراءنا دار الإسلام ونعيش مخاطر المغامرة ونلتقي بالنصارى واليهود الذين يعرضون علينا مشاركتهم في أكلهم الغريب، وينظرون إلينا ونحن نصلي كما ننظر إليهم وهم يصلّون. أحيانا كنا نسافر بعيدا جدّا إلى مكان ليس فيه إله، وحتى الوثنيون الذين يعبدون الشمس والنار ينالون تعاطفنا حين تصفهم لنا عمّتي حبيبة.

كانت هذه الحكايات تزرع فيّ الرغبة لكي أكبر حتى يمكنني أنا الأخرى تنمية مواهبي كقصاصة، كنت أودّ أن أتقن مثلها فن الحكي ليلا.

- 3 -

الحريم الفرنسي



كان مدخل دارنا حدودا حقيقية محروسة كتلك التي توجد في عرباوة، وكنا بحاجة إلى إذن للدخول والخروج. كل تحرّك كان يستلزم تبريرا، وكان عليك احترام المراسيم كاملة للتوجه نحو المدخل. إذا قدمت من الباحة عليك أن تسير في ممرّ طويل لتجد نفسك أمام «أحمد» البواب، جالسا على حشيته وكأنه يعتلي عرشا، وصينية الشاي أمامه.

وبما أن طقس المرور يفرض دائما عملية تفاوض محكمة إلى حد ما، كان «أحمد» يدعوك إلى مقاسمته الجلوس على الحشية sofa أو تجلس قبالته جلسة مريحة على «الفوتوي ديال فرنسا»، وهو كرسي قديم محشو عثر عليه في الجوطية بالمدينة. كان أحمد غالبا ما يحمل على ركبتيه أصغر أبنائه الخمسة، لأنه كان يعتني بهم في غياب زوجته «لوزة» التي كانت طباخة ماهرة، تقبل أحيانا بالعمل خارج البيت إذا ما كان العرض مغريا.

كان مدخل دارنا قوساً ضخمة ذات أبواب أثرية من الخشب المنحوت، وكان يفصل حريم النساء عن الغرباء في الخارج. شرف أبي وعمّي كان رهينا بهذا الفصل كما يقال لنا، بإمكان الأطفال اجتياز المدخل على عكس النساء، ولذلك كانت أمّي لا تفتأ تردّد: «لو كنت قادرة على التجوّل في الصباح الباكر عبر الأزقة الخالية،

كنت سأستيقظ في الفجر. من يدري؟ قد يكون الضوء أزرق أو ورديا فاقعا، كما يحدث عند غروب الشمس ترى ما لون الصباح في الأزقة الخالية التي يغلفها الصمت؟» لا أحد يجيب على مثل هذه الأسئلة، في حريم لا تطرح الأسئلة للحصول على إجابة ولكن لمحاولة فهم ما يجري.

النساء كنّ يحلمن بحرّية التجوّل في الأزقة، وأشهر حكايات عمّتي حبيبة، التي كانت تحتفظ بها للمناسبات الكبيرة، هي حكاية «المرأة ذات الأجنحة» التي تطير من الدار حين ترغب في ذلك، وكل مرّة تحكي فيها القصة تشدّ النساء تلافيف القفاطين إلى الحزام، ويشرعن في الرقص فاتحات أذرعهن كما لو كن سيطرن، وقد زرعت ابنة عمّي شامة ذات السابعة عشرة الحيرة في ذهني، حين نجحت في إقناعي بأن النساء يتوفرن على أجنحة خفية، وأن جناحاي أنا الأخرى سيكبران فيما بعد.

يحمينا مدخل الدار أيضا من الجنود القابعين على بعد أمتار من دارنا، في حدود أخرى خطيرة ولا تقل أهمية عن الأولى. أحيانا كنت وأبناء أعمامي نتسرّب إلى الخارج حين ينصرف البواب إلى مناقشة أحد أو ينام في القيلولة. فنلقي نظرة على الجنود الفرنسيين. كانوا يرتدون البذلات الزرقاء والبنادق تتدلى من أكتافهم. عيونهم الرمادية الصغيرة متوثبة دائما، غالبا ما كانوا يحاولون التحدّث إلينا لأن الكبار يتجاهلونهم، وقد منعوا علينا تبادل الحديث معهم منعا قاطعا. كنا نعرف بأن الفرنسيين طماعون، قطعوا كل تلك المسافة لغزو أرضنا، رغم أن الله وهبهم بلادا رائعة الجمال، ذات مدن مزدهرة، وغابات شاسعة، ومروج خضراء غنية، وأبقار أكبر من أبقارنا، تدرّ حليبا يتجاوز ما تدرّه أبقارنا بأربع مرّات، ولكن الظاهر أن الفرنسيين لا يقنعون.

بما أننا كنا نقيم في الخط الفاصل بين مدينتنا القديمة ومدينة

الفرنسيين الجديدة، كان بإمكاننا ملاحظة الفروق بينهما. كانت طرقهم واسعة ومستقيمة ومضاءة ليلا، وكان أبي يقول بأنهم يضيعون طاقة الله، من ذا يحتاج إلى ذلك الضوء في حي بدون مخاطر؟ كانت لهم أيضا سيارات قوية. أما أزقة مدينتنا فكانت ضيقة مظلمة وملتوية، ذات ممرّات ومنعطفات لا تسمح بوصول السيارات إليها، وإذا ما خاطر الأجانب بدخولها لا يجدون لأنفسهم مخرجا، كانوا يخافون التيه في مدينتنا، ومن ثمّ أُرغِموا على بناء مدينة جديدة لهم.

أغلب الناس ينتقلون راجلين في المدينة، أبي وعمّي كانا يملكان البغال، ولكن الفقراء، شأن أحمد البواب، لا يملكون إلا الحمير، أما النساء والأطفال فيرغمون على المشي. كان الفرنسيون يخافون مخاطر السير، ولذلك كانوا يلازمون سياراتهم بما في ذلك الجنود إذ يقبعون في السيارات عندما تنفجر الأحداث. خوفهم يبعث فينا الدهشة نحن الأطفال، لأنه جعلنا ندرك أن الخوف ليس مقصورا علينا، وأن الكبار أيضا يخافون مثلنا. إلا أن هؤلاء الكبار كانوا خارج الأسوار يتمتعون بحرّية التنقل أينما شاؤوا. كيف كان بإمكان الأقوياء الذين فرضوا الحدود أن يخافوا؟ كانت المدينة الجديدة حريمهم بشكل ما، ولم تكن لهم حرّية التنقل في المدينة كالنساء تماما. وهكذا كان بإمكان الإنسان أن يكون قويا وأسيرا للحدود في نفس الوقت. إلا أن الجنود الفرنسيين الذين كانوا غالبا في مقتبل العمر، كانوا يرعبون المدينة بكاملها رغم معاناتهم من الخوف والوحدة. لقد كانوا قادرين على الإساءة إلينا.

حكت لي أمّي بأن الملك محمد الخامس، مؤازرا من طرف الوطنيين، زار ذات يوم من أيام يناير سنة 1944، المقيم العام الفرنسي لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال. غضب المقيم واحمرّت أوداجه وزمجر قائلا: «كيف تجسرون أنتم المغاربة على المطالبة بالاستقلال؟»-1- ولمعاقبتنا أطلق عساكره في المدينة، وشقت السيارات المصفحة في

الأزقة الملتوية طريقها. توجه الناس نحو القبلة للصلاة، وصدحت آلاف الأصوات مردّدة اللطيف خلال ساعات. إن اللطيف اسم من أسماء الله الحسنى، وهو أجملها حسب ما تقوله عمّتي حبيبة، لأنه يظهر الله عطوفا، شفوقا ورحيما، ولكن الجنود الفرنسيين المحاصرين في الأزقة المحيطة، وهم يسمعون اللطيف إلى ما لا نهاية، خافوا وفقدوا أعصابهم وشرعوا في إطلاق النار على جمهور المصلين. وخلال دقائق، تراكمت الجثث على أدراج المسجد، في حين كان اللطيف يُقرأ بالداخل.

حكت أمّي بأنّني وسمير لم نكن نتجاوز الرابعة حينها، وأننا تسللنا إلى البوابة دون أن يرانا أحد، وشاهدنا الجثث المحمولة وجلابيبها البيضاء ملطخة بالدماء: «خلال شهور بقيتِ أنت وسمير ضحية الأحلام المزعجة، كنتما لا تطيقان رؤية اللون الأحمر وتسرعان إلى الاختفاء. حملناكما إلى ضريح مولاي ادريس كل يوم جمعة لمدّة أسابيع لدى الشرفاء طلبا للشفاء، ووضعت تحت وسادتك آية الكرسي، ولم تعودي إلى نومك الطبيعي إلا بعد سنة».

بعد ذلك اليوم المأساوي، حمل الفرنسيون بنادقهم بشكل مكشوف في كل مكان، في حين كان أبي مجبرا على استئذان هيئات عديدة للحفاظ على بندقية صيده، شريطة أن يخفيها ولا يستعملها إلا في الغابة.

حفزت هذه الأحداث فضولي وتكلمت بشأنها مع الياسمين جدّتي لأمّي التي كانت تسكن ضيعة رائعة، فيها أبقار وخراف وحقول شاسعة من الورود، على بعد مائة كلمتر شرق فاس. كنا نزورها مرّة في السنة، وقد حدّثتها عن الحدود والخوف والاختلاف ورجوتها أن تفسّر لي أسباب كل ذلك.

كانت الياسمين خبيرة بكل أنواع الخوف، وكانت تقول لي وهي

تداعب جبيني وأنا ألهو بالعقيق وعقود المرجان التي تحيط جيدها: «إنني أعرف كل شيء عن الخوف، سأخبرك بأشياء عندما تكبرين، سأعلمك كيف نتمكن من تجاوز الخوف».

كان النوم يستعصي علي في بداية مقامنا بضيعة الياسمين، لم تكن الحدود واضحة وليست هناك حواجز بالمرّة، بل حقول شاسعة منبسطة ومفتوحة تغطيها الورود وتمرّ عبرها الحيوانات بحرية. شرحت لي الياسمين بأن الضيعة جزء من أرض الله الواسعة التي لا تعرف حدودا. وتوجد بها حقول تمتدّ على مدى البصر، وأنه علي أن أتخلص من خوفي، ولكن كيف يمكنني المشي في الحقول دون أن أتعرّض لاعتداء؟ سؤال طرحته عليها مرارا ولذلك اخترعت الياسمين لعبة أغرمت بها حتى تساعدني على النوم، كانت تلك اللعبة تدعى «المشية في الخلا»، تحضنني الياسمين وأنا في فراشي فأقبض على عقدها بيدي وأغمض عيني وأتخيل بأنني أمشي في حقل شاسع من الورود «سيري على رؤوس أصابعك حتى تسمعي غناء الورود» ذلك ما كانت تقوله ثمّ تهمس لي «سلاما، سلاما، سلاما...»، كنت أردّد لازمة الورود بأسرع ما يمكن ويختفي كل خطر وأستسلم للنوم. وحين أفتح عيني يكون الصباح قد أطل، وأنا مستلقية على سرير الياسمين النحاسي العتيق، ويداي تقبضان على العقيق الأبيض الوردي، والنغمات المنبعثة من موسيقى النسمات وهي تداعب الأوراق، ومن غناء الطيور التي كانت تتجاوب وتتناهى إلى سمعي من الخارج. لاشيء أمامي سوى الطوس الملقب بالملك فاروق و«طْهُوز» الإوزة الكبيرة البيضاء.

«طهور» كان في الواقع اسما لإحدى زوجات جدّي التي تكن لها الياسمين كرها شديدا، ولم يكن بإمكاني النطق باسم هذه المرأة مجرّدا إلا بيني وبين نفسي، لأن مناداتها بصوت عال تفرض علي أن أقول «لللا طْهُوز». حين كنت صغيرة، كان علي أن أنادي كل الكبار

المهمّين بللا أو سيدي. وأقبل أيديهم كل مساء حين تضاء المصابيح وأنا ألقي عليهم تحية المساء.

كنت أنا وسمير نقبل أيادي الجميع كل مساء بأسرع ما يمكن حتى نعود إلى لهونا ونتلافى سماع الملاحظة القبيحة «ضاعت التقاليد». غدونا خبيرين في الأمر إلى حدّ أننا كنا نتخلص من هذه الطقوس بسرعة لا تصدّق، أحيانا كنا نتسابق إلى حدّ التعثر أو السقوط على ركبة أحدهم أو على الزربية، حينها تضحك أمّي حتى تدمع عيناها: «الأحباء المساكين، لقد تعبوا من تقبيل الأيدي وهم لازالوا في البداية». في الضيعة كانت لللاطهور لا تُرى ضاحكة أبدا، تشبه في عبوسها لللا مهاني في فاس، إنها جادّة دائما، مهذبة وأنيقة، وضعها كأولى زوجات جدي التازي يمنحها مكانة متميزة في الأسرة، وبالتالي لم تكن تقوم بالأعباء المنزلية، وهي البالغة الغنى، وهما امتيازان لم تكن تحتملهما الياسمين: «إنني لا أعبأ بأن تكون هذه المرأة غنية، عليها أن تعمل كباقي خلق الله، هل نحن مسلمون أم لا؟ وإذن فنحن متساوون، ذلك ما قاله الله ونبيه». قالت لي الياسمين بألا أقبل أبدا بالتمييز لأنه غير منطقي، هذا هو السبب الذي جعلها تطلق اسم «طهور» على إوزتها الكبيرة البيضاء.

- 4 -

غريمة الياسمين



حين علمت للالطهور بأن الياسمين أطلقت اسمها على إوزة استشاطت غضبا، طلبت أن ترى جدّي التازي عاجلا وعلى انفراد في جناحها الذي كان عبارة عن قصر صغير، به مرحاض ونافورة ومرآة إيطالية رائعة تغطّي جدارا من عدّة أمتار. قدم جدّي مرغما في الحين ومصحفه في يده لكي يظهر بأنه أزعج في وقت قراءته للقرآن. كان يرتدي كعادته سرواله العريض من القطن الأبيض وقميصا وفرجية بيضاوين، يحتذي «بَلْغَةً» من الجلد الأصفر، لم يكن يرتدي الجلباب في البيت إلا إذا استقبل زائرا.

كان شكله يحمل طابع شكل سكان الشمال بمنطقة الريف التي تنتمي إليها أسرته في الأصل، طويل القامة، نحيفا، ذا تقاطيع دقيقة، وبشرة بيضاء وعينين صغيرتين فاتحتين، يوحي مظهره بالوقار والترفع. أناس الريف معتزون بأنفسهم، غير منفتحين، أو بالأحرى منغلقين على ذواتهم ولا يتحملون الكلام الفارغ. ولذلك كان أشدّ ما يكرهه جدّي هو خصام زوجاته أو سعيهن إلى الخلاف، لقد قاطع الياسمين، وكان يغادر كل مكان حلت به طيلة سنة كاملة، لمجرّد أنها تسببت في خصومتين خلال شهر واحد، بعدها لم تعد تجسر على أكثر من خصام كل سنتين أو ثلاث. أما قضية الإوزة فقد وضعت الضيعة بكاملها في حالة استنفار.

قدّمت لللاطهور الشاي إلى جدّي قبل أن تفاتحه في الأمر، ثمّ هدّدته بالفراق إذا لم يتغير اسم الإوزة فورا. حصل ذلك عشية أحد الأعياد الدينية، وكانت لللاطهور منفعلة غاية الانفعال وهي ترتدي فوقيتها وقفطانها المطرّز بالأحجار والعقيق الحقيقي لكي تذكر الجميع بامتيازاتها. ويبدو أن الحكاية أضحكت جدّي إذ أنه ابتسم لدى سماعه لقصة الإوزة.

لقد اعتقد دائما بأن الياسمين غريبة الأطوار، ولم يتعوّد على بعض عاداتها إلا مع مرور الوقت، كتسلقها الأشجار مثلا وبقائها معلّقة خلال ساعات، بل إنها كانت تأخذ معها إحدى الزوجات الأخريات إلى أعلى الشجرة، فيتناولان الشاي بين الأغصان، ولكن ما كان ينقذ الياسمين هو أنها كانت تضحك جدّي، وهو أمر لم يكن بالسهل لأن طبعه كان كئيبا.

في ذلك الحين وبحجرة جلوس لللاطهور الفخمة، اقترح جدّي على هذه الأخيرة أن تنتقم بإطلاق اسم الياسمين على كلبها الصغير البالغ الدمامة « وهكذا ستجبر تلك المتمرّدة على تغيير اسم إوزتها». ولكن لللاطهور لم تكن لتقبل المزاح فصرخت: «ولكنك مفتون بهذه الياسمين، وإذا ما تهاونت معها هذه المرّة ستشتري حمارا تسميه سيدي التازي. إن هذه المرأة لا تحترم أحدا، إنها قليلة الأدب ككل الذين يأتون من الأطلس، وقد بذرت الفوضى في هذه الدار المحترمة. إما أن تغير اسم إوزتها أو أذهب أنا، إنّني لا أفهم هذا التأثير الذي تمارسه عليك، لو كانت جميلة على الأقل! ولكنها شديدة الطول والنحافة كالزرافة القبيحة!».

الحق أن الياسمين لم تكن تستجيب لمقاييس الجمال خلال تلك الفترة، والتي كانت لللاطهور تمثلها بامتياز. كانت هذه الأخيرة ذات بشرة بيضاء ووجه مدوّر كالقمر ليلة تمامه، وكانت ممتلئة الأرداف والعجيزة والصدر. على العكس منها كانت الياسمين ذات بشرة

قمحية كساكني الجبال، وجهها طويل وخدّاها بارزان وصدرها لا يكاد يبين، فارعة الطول، وذات ساقين رفيعتين يساعدانها على تسلق الأشجار والحركات البهلوانية. كان ساقاها يبدوان كعصاتان تحت قفطانها، ولإخفائهما اخترعت سروالا ذا طيات كثيرة، وقصّرت من طول القفطان ووضعت له فتحة على الجانبين حتى توهم بأنها ممتلئة. حاولت لللاطهور في البداية أن تحرّض الجميع ليهزأ من نمط الياسمين في اللباس، ولكن الزوجات الأخريات شرعن بسرعة في تقليد المتمرّدة، لأن القفاطين القصيرة والمفتوحة على الجانبين كانت تتيح لهن حرّية أكبر في الحركة.

عندما ذهب جدّي لرؤية الياسمين بشأن الإوزة لم تبد تفهّما يذكر، «إذا ما كانت لللاطهور تريد الذهاب فلتذهب» ! ذلك ما قالته، ولن يشعر الزوج بعدها بالوحدة «ستبقى لك ثمان زوجات للعناية بك، وسأكون أكثرهن تفانيا». حينها حاول جدّي إقناع الياسمين بإهدائها دبليجا من فضة تزنيت، شريطة أن يكون مصير الإوزة هو طنجرة الكسكس. احتفظت الياسمن بالدبليج وطلبت منه إمهالها عدّة أيام لكي تفكر، وفي الجمعة التالية عادت باقتراح مضاد، ليس بإمكانها أن تذبح الإوزة لأن اسمها لللاطهور، سيكون ذلك فألا سيئا! ولكنها وافقت على أن لا تنادي أبدا إوزتها بذلك الاسم أمام الناس. ومن حينها أجبروني أنا الأخرى على ذلك، وقد عانيت كثيرا لكي لا أنادي الإوزة باسمها وأحتفظ به لنفسي.

كانت هناك أيضا قصة الملك فاروق، طاووس الضيعة، من سمّى طاووسا باسم ملك مصر المشهور؟ ما شأن الطاووس بضيعة؟ تصوّروا بأن الياسمين والزوجات الأخريات كن يكرهن الملك فاروق لأنه كان يهدّد زوجته الجميلة الأميرة فريدة بالطلاق (طلقها في يناير 1948)، ما الذي أدى بالزوجين إلى تلك الأزمة؟ أي ذنب اقترفته الأميرة؟ الجواب هو أنها ببساطة منحت النور لثلاث إناث، ولم يكن

من حق إحداهن اعتلاء العرش.

تمنع الشريعة الإسلامية تسلّم المرأة لقيادة البلاد، إلا أن ذلك حدث منذ عدّة قرون كما حكت لي جدّتي، لقد استعانت شجرة الدر بالجيش التركي لاعتلاء عرش مصر بعد موت زوجها السلطان الصالح. كانت جارية من أصل تركي حكمت مدّة أربعة أشهر مثلما يحكم سائر الرجال. طبعا لا تتسم كل النساء المسلمات بالحنكة والقسوة اللتين كانت تتصف بهما شجرة الدر، حين قرر زوجهاالثاني الذي كان أكبر قائد عسكري في الجيش التركي خلال تلك الفترة اتخاذ زوجة ثانية، انتظرت دخوله إلى الحمّام ثمّ «نسيت» فتح الباب، ومات القائد مسلوقا. لكن الأميرة فريدة المسكينة لم تكن تتسم بصفات المجرمة الكاملة، ولم تكن تعرف التحرّك في دوائر السلطة أو الدفاع عن حقوقها في القصر. كانت من أصل جدّ متواضع، دون دعامة ترتكز عليها، ولذلك أحبتها زوجات جدّي اللواتي قدمن من أوساط مماثلة وحزنّ للإهانة التي لحقتها، كانت الياسمين تقول: «لاشيء أكثر مدعاة للإهانة بالنسبة للمرأة من أن يُرمى بها: هيا! إلى الشارع! وكأنها قطة، أهذه طريقة محترمة لمعاملة المرأة؟! ثمّ تضيف بأنه يبدو بأن الملك فاروق رغم قوّته جاهل بالطريقة التي يتكوّن بها الأطفال «وإلا عرف بأن الخطأ لا يعود إلى زوجته إذا لم ترزق بطفل ذكر، يجب أن يكون هناك رجل وامرأة لكي يخلق الطفل». كنت أعرف بأنها على حق، لأن ميلاد الطفل يقتضي من الزوج والزوجة ارتداء ملابسهما الجميلة، ووضع الورود على شعرهما، والنوم معا في فراش كبير، بعدها يرزقان بطفل يحرّك أطرافه الصغيرة.

كانت الضيعة على علم بنزوات الملك فاروق الزوجية بفضل راديو القاهرة، وكان حكم الياسمين واضحا ودون رجعة: «هذا الرجل الذي يطلق زوجته لمجرّد كونها لم تلد طفلا ذكرا! أهو قائد إسلامي كفؤ؟ ألم يقل سبحانه وتعالى «هو الذي يصوّركم في الأرحام

كيف يشاء» (سورة آل عمران ، آية 3). ذلك هو السبب الذي جعل طاووس الضيعة يحمل اسم الملك فاروق. إلا أنه إذا كان من السهل على الياسمين إصدار مثل هذه الأحكام فإن إنهاء الأمر لم يكن بهذه البساطة فيما يخص مواجهتها مع زوجة جدي الأولى، رغم أنها نجحت إلى حدّ ما في التخلص من قصة الإوزة.

لم تكن لللاطهور قوية فحسب، ولكنها كانت زوجة جدّي التازي الوحيدة التي تنتمي إلى عائلة أرستقراطية في فاس، لقد كانت ابنة عمّه وتحمل نفس الاسم. جاءت ليلة زفافها بتاج مرصّع بالزمرد واللآلئ والجواهر السوداء، وقد احتفظ به في صندوق حديدي تودع فيه الأشياء النفيسة، يوجد في الزاوية اليمنى بجناح الرجال. لكن الياسمين التي قدمت من أصل قروي متواضع شأنها في ذلك شأن الزوجات الأخريات ترفض الإذعان للأمر كما يبدو من أقوالها: «لا أعتبر أحدا أفضل مني لمجرّد كونه يملك تاجا» ثمّ تضيف وهي تدير رأسها صوب حجرات لللاطهور: «أيا كان غناها، فإنها هي الأخرى محاصرة في حريم، مثلي تماما». طلبت من الياسمين أن تشرح لي ما تقصد بقولها في حريم فقدمت لي عدّة أجوبة لم تشف غليلي.

كانت تقول أحيانا بأن المرأة تكون محاصرة في حريم عندما تفقد حرية التحرك، أو أن الحريم مرادف للشقاء لأن المرأة تقتسم فيه زوجها مع أخريات، وفعلا كان على الياسمين أن تنتظر ثمانية ليال كاملة قبل أن تداعب زوجها خلال ليلة واحدة: «ومداعبة الزوج شيء رائع. حسب قولها- انني سعيدة لأن نساء جيلكن لسن مجبرات على اقتسام أزواجهن!». لقد وعد الوطنيون الذين كانوا يناضلون ضدّ الفرنسيين ببزوغ مغرب جديد تسود فيه المساواة بين الجميع، للنساء الحق في التعليم كالرجال، وأن تكون كل منهن الزوجة الوحيدة لزوجها. وفعلا كان العديد من الوطنيين بفاس متزوجين من امرأة واحدة، كما كانوا يحتقرون الرجال المتزوّجين من عدّة نساء، ومن ثمّ

كان لكل من والدي وعمّي المتأثرين بالأفكار الوطنية زوجة واحدة فحسب.

كان الوطنيون أيضا ضدّ العبودية، وقد ظلت سائدة خلال بداية القرن حسب الياسمين رغم أن الفرنسيين اعتبروها غير شرعية. العديد من الزوجات في الضّيعة اشتُرين من سوق النخاسة، وبعضهن قدمن من بلاد أجنبية كالسودان، وهناك أخريات اختُطفن من أسرهن داخل المغرب خلال فترة الفوضى التي أعقبت قدوم الفرنسيين في 1912. تضيف الياسمين بأن النساء هن اللائي يؤدّين الثمن إذا كان هناك خلاف بين الدولة والشعب، لأن الأمن ينعدم. لقد وُقِّعت معاهدة الحماية التي رفضتها العديد من قبائل المغرب، فاندلعت الفوضى في كل مكان، وأدّت النساء ثمنها. وانبثقت المقاومة في الجبال والصحارى، تحكي الياسمين: «كان هناك أبطال، ولكن كان هناك أيضا مجرمون من كل نوع يتسرّبون إلى كل مكان، كان الأوائل يقاومون الفرنسيين في حين كان المجرمون ينهبون الناس. في الجنوب على حدود الصحراء كان هناك أبطال كالهبة وأخيه من بعده اللذين قاوما حتى سنة 1934. في مسقط رأسي بالأطلس أجبر المقاوم الغيور موحا أوحمو الزياني القوات الفرنسية على التراجع حتى سنة 1920. أما في الشمال فقد هزم أمير المجاهدين عبد الكريم الخطابي الفرنسيين والإسبان مرّات عديدة، إلى أن تظافرا ليلحقا به الهزيمة سنة 1926. خلال هذه الجلبة كانوا يخطفون الطفلات من أسرهن الفقيرة في الجبل لبيعهن لأغنياء المدن في أسواق النخاسة، وكانت هذه الممارسة شائعة. إن جدّك رجل طيب ولكنه كان يشتري الإماء، وكان الأمر عاديا في ذلك الحين، أما اليوم فهو يناصر الأفكار الوطنية كباقي أعيان المدن الكبرى، بما في ذلك احترام الفرد، ونبذ التعدّد في الزواج، والقضاء على العبودية وكل ما يتصل بذلك. قد يبدو الأمر غريبا! ولكننا نحن الزوجات نستشعر أواصر القرابة فيما بيننا أكثر من

أي وقت مضى، واللائي اختطفن منا وهن صغيرات حاولن البحث عن أصولهن ولكنهن لم يفكرن في لحظة ما بالافتراق عن جدّك. لقد غدت مشاعر الأخوّة تربط بيننا، وعائلتنا الحقيقية هي تلك التي نسجناها حول جدّك التازي. قد أستشعر العطف تجاه لللاطهور ذاتها لو أنها كفت عن احتقارنا بدعوى أننا لا نملك تيجانا».

حين أطلقت الياسمين اسم لللاطهور على إوزّتها، كانت تساهم بطريقتها في خلق مغرب مثالي جديد ستقتحمه حفيدتها، ولذلك كانت كثيرا ما تردّد على مسامعي: «لقد تغير المغرب بسرعة يا بنيتي، وسيتغير أكثر». كانت هذه النبوءة تغمرني سعادة، سأكبر في مملكة سعيدة حيث تتوفر النساء على حقوقهن بما في ذلك مداعبة أزواجهن كل ليلة. تضيف الياسمين بأن عليها أن لا تبالغ في الشكوى رغم أسفها على انتظار زوجها ثمانية ليال كاملة، لأن كل زوجة من زوجات هارون الرشيد كانت تنتظره تسعمائة وتسعة وتسعين يوما بما أنه يملك ألف جارية. «إن الصبر خلال ثمان ليال لا يوازي هذه المدة التي تقارب ثلاث سنوات! إن الأمور تتغير إلى أحسن، في وقت قريب سيغدو هناك رجل لكل امرأة. هيا نوزع الحبّ على الطيور، وسيكون لنا الوقت الكافي للحديث عن الحريم فيما بعد». بعدها كنا نسرع نحو الحديقة لنطعم الطيور.

- 5 -

شامة والخليفة



«ما معنى الحريم؟» يحتار الكبار أمام هذا النوع من الأسئلة ويتناقضون، رغم أنهم يلحّون علينا نحن الأطفال دائما لكي نستعمل ألفاظا دقيقة، فكل لفظة حسب قولهم تؤدّي معنى خاصا يجب أن تستعمل فيه. أما أنا فلو كانت لي حرّية الاختيار لاستعملت لفظتين مختلفتين لنعت كل من حريم الياسمين وحريمنا نحن نظرا للتباين الشديد بينهما.

حريم الياسمين ضيعة كبيرة مفتوحة دون أسوار، أما حريمنا نحن بفاس فهو أشبه بقلعة. تمتطي الياسمين وشريكاتها الخيول وتسبحن في النهر وتصطدن السمك وتشوينه على نار الحطب في الهواء الطلق. أما أمّي فلا تبرح البوابة دون الحصول على إذن من جهات متعدّدة، وحتى إن فعلت لا يسمح لها إلا بزيارة ضريح مولاي إدريس أو بيت أخيها الذي يقطن نفس الدرب، أو في حالات استثنائية حضور حفل ديني، وعليها حينها أن ترافق من طرف نساء مسنات وأحد أبناء أعمامي الصغار. من هنا يبدو لي من العبث استعمال نفس اللفظة لوصف وضعية الياسمين ووضعية أمّي. بيد أنّني كلما بحثت عن تحديد معنى لفظة «الحريم» يحتدّ النقاش وسرعان ما يتحوّل إلى عراك.

تحدّثت في الأمر مع سمير، وانتهينا إلى أن الكلام في مجموعه

خطير، ولكن هذه اللفظة بالذات قنبلة موقوتة. وإذا ما شاء أحد زرع الفتنة في ساحة الدار ما عليه إلا أن يهيّئ الشاي ويدعو بعض الأشخاص ويطلق لفظة «حريم» وينتظر بعدها بنصف ساعة، سيرى نساءا جدّ مؤدبات، أنيقات في قفاطينهن الحريرية وأحذيتهن المطرّزة يتحوّلن إلى كائنات تصرخ بشراسة، ومن تمّ قرّرت أنا وسمير أن نحمي الكبار، ولذلك سنستعمل لفظة «الحريم» بحرص شديد وسنحاول الحصول على المعلومات بطريقة غير مباشرة ولا تلفت الانتباه.

يرى فريق من الكبار بأن الحريم شيء جيد في حين يزعم الآخرون العكس. تنتمي جدّتي لللامهاني وأم شامة لللاراضية إلى المعسكر المناصر للحريم، أمّا أمّي وشامة وعمّتي حبيبة فتنتمين إلى المعسكر المعارض. غالبا ما تبدأ لللامهاني النقاش بقولها بأن المجتمع ما كان ليتقدّم أو ينجز عملا لو لم يفصل بين النساء والرجال: «لو كانت للنساء حرّية التجول في الأزقة، حسب قولها، لتوقف الرجال عن عملهم لأن اللهو سيستحوذ على تفكيرهم، ولسوء الحظ فإن المجتمع لا ينتج غذاءه وما يحتاج إليه عن طريق اللهو. إذا ما رغبنا في تجنب المجاعة على النساء أن يلزمن مكانهن أي البيت».

تذاكرت أنا وسمير حول المقصود «باللهو»، واستخلصنا بأنه يرتبط بالجنس حين ينطبق على الكبار، كنا رغم ذلك نودّ التأكد فعرضنا الأمر على ابنة عمّتنا مليكة التي قالت بأن الحق معنا، سألناها وكلّنا آذان صاغية: «وما هو الجنس في رأيك؟»، بطبيعة الحال كنا نعرف الإجابة ونودّ اختبارها. تخيلت مليكة بأننا نجهل كل شيء ورمت بظفيرتها إلى الوراء وجلست على المضرّبة ووضعت وسادة على ركبتيها كما يفعل الكبار وقالت ببطء: «في ليلة الزفاف يبقى العريس والعروسة وحيدين في غرفتهما، يدعو العريس العروسة إلى الجلوس على الفراش، تتشابك أيديهما ويحاول أن يجبرها على النظر في عينيه

ولكنها تقاوم وتخفض بصرها. إنه أمر بالغ الأهمية، أن تكون العروس جدّ خجولة ومرتاعة. يقرأ العريس قصيدة وتستمع إليه وعيناها لا تبرحان الزربية، وأخيرا تعلو الابتسامة محياها فيقبل جبينها، ويظل بصرها خاشعا فيقدم لها كأس شاي، تنهله بتأن شديد، يستعيد الكأس منها ويجلس بجانبها ويقبلها على.. على..». تقرّر مليكة، التي تعرف بأننا نتحرّق شوقا لمعرفة موضع القبلة السكوت في تلك اللحظة الحاسمة. القبلات على الجبين أو الخدّ أو اليد اعتيادية أما القبلة على الفم فتلك قصة أخرى! وعوض إظهار فضولنا نصطنع أنا وسمير اللامبالاة ونتهامس فيما بيننا حتى نلقن مليكة درسا في التواضع. لقد أخبرتنا عمّتي حبيبة بأن أفضل طريقة يمتلكها الضعفاء لممارسة السلطة هي اصطناع اللامبالاة المطلقة تجاه المتحدّث: «أن تتحدّث والآخرون ينصتون إليك تعبير فعلي عن السلطة والمكانة، ولكن المستمع الأكثر صمتا وخضوعا في الظاهر يلعب دورا استراتيجيا هامّا هو دور الجمهور. ما مصير خطيب مفوّه إذا ما فقد جمهوره؟» استشعرت مليكة الخطر بسرعة وتابعت حديثها عن ليلة الزفاف: «يقبل العريس عروسته على الفم وينامان معا في فراش حيث لا يراهما أحد». توقفنا عن الأسئلة لأننا كنا نعرف البقية، يتجرّد الرجل والمرأة من ثيابهما، يغمضان الأعين وبعدها يغدو لهما طفل.

تبدو علامات التوتر على عمّتي حبيبة كلّما أشادت للالامهاني بفضائل الحريم، ولا تفتأ تعدّل من وضع المنديل التي تلف به شعرها رغم أنه لا يبرح مكانه، إلا أنها وهي المطلقة، لا تجسر على مواجهة للالامهاني فتدع الأمر لأمّي وشامة وتلوك اعتراضاتها في صمت. وحدهن اللائي تتوفرن على قدر من السلطة مؤهّلات لمواجهة الآخرين والتعبير عن اختلاف وجهة نظرهن، أما المرأة المطلّقة فلا تمتلك بيتا بالمعنى الكامل للكلمة، إنها لاجئة وعليها أن تؤدّي ثمن إيوائها مقابل

الصمت قدر الإمكان، فما كانت لتكون هنا لو امتلكت التبصر والذكاء اللازمين للحصول على مكان في المجتمع، إنها مثلا لا ترتدي ثيابا فاقعة الألوان رغم أنها أحيانا تبدي رغبة في ارتداء فرجيتها الحريرية الحمراء، لباسها باهت غالب الأحيان والزينة الوحيدة التي تستعملها هي الكحل: «على الضعفاء أن يتعلّموا تجنب الإهانة. ذلك ما كانت تقوله.، لا يجب أن تمنح الآخرين فرصة إهانتك، والفقر لا يجب أن يلغي الاعتزاز بالنفس».

تجلس أمّي على المضرّبة وهي تثني ركبتيها شأنها كلّما رمت مواجهة لللامهاني. بهدوء بالغ تسحب الوسادة على الفخذين حتى تضع عليها يديها، من اللازم أن نتجنب الاضطراب أو ضياع الطاقة حين نتهيّأ للهجوم، تشبك أمّي بعدها الذراعين وهي تتكئ بمرفقيها على الوسادة وتنتصب بظهرها وتصوّب بصرها إلى لللامهاني: «إن الفرنسيين يا حماتي العزيزة لا يأسرون نساءهم وراء الأسوار، إنهن يتجوّلن بحرّية في الأزقة، والكل يمرح ويلهو، ومع ذلك ينجزون كل الأعمال المنوطة بهم، بل إن مردوديتهم أفضل وقد أهلتهم لتجهيز جيش قوي بعثوا به لإطلاق الرصاص علينا في المدينة» وقبل أن تستردّ لللامهاني أنفاسها، تعرض شامة نظريتها عن أصل الحريم، وحينها يحتدم الصراع، وتصرخ لللامهاني وأم شامة معا بأن هناك مؤامرة ضدّ الأسلاف وأن تقاليدنا المقدّسة غدت مدعاة للسخرية.

كانت أطروحة شامة مشوقة، وكنا أنا وسميرشديدي الإعجاب بها لأن بنت عمّنا تشخص ما تقوله. كان هناك زمان يتحارب فيه الرجال باستمرار، سال دم كثير إلى حدّ أنهم قرّروا ذات يوم تعيين ملك لتنظيم الأمور وممارسة السلطة وإصدار الأوامر إلى الآخرين، بحيث يغدو الجميع مجبرا على الطاعة. ولكن القوم تساءلوا: وكيف سنعين ملكا من بيننا؟ فكّروا في الأمر طويلا وخطرت ببال أحدهم فكرة: «على الملك أن يمتلك شيئا ليس في حوزة الآخرين»، فكّروا

أكثر واقترح أحدهم فكرة أخرى: «علينا أن ننظم مطاردة للنساء، وسيغدو ملكا من يحصل على أكبر عدد منهن».

أقرّ الآخرون بصواب الفكرة ولكنهم تساءلوا: وما هو الدّليل على ذلك؟ إننا سنتفرّق في الغابة وقت المطاردة، وعلينا أن نعثر على طريقة لتقييد النساء الأسيرات حتى نتمكن من عدّهن ومعرفة المنتصر منا». وهكذا راودتهم فكرة بناء دور ذات بوابات وأقفال لأسر النساء.

لاحظ سمير بأنه كان من الأسهل ربط النساء إلى الأشجار بما أن لهن ظفائر طويلة، ولكن شامة أجابته بأن النساء وقتها كن قويات كالرجال، وأنهن كن يقضين نهارهن في الغابة مثل الرجال تماما، ولو ربطت إثنتان أو ثلاثة منهن إلى شجرة، كن قادرات على انتزاعها من الأرض، ثمّ إن الأمر كان سيأخذ وقتا ويستهلك طاقة كبيرة، زيادة على أنه كان بإمكانهن توجيه ركلات إلى الرجال قد تصيب موضعا لا يجوز لنا ذكره. وبالتالي كان من الأفضل تشييد أسوار عالية مغلقة إلا من ثقوب نادرة هي عبارة عن أبواب ذات أقفال، واستعمال الحيلة حتى تقترب منها النساء لكي تصبحن أسيرات بداخلها، ذلك ما فعله أوّل الرجال الذين طرأت عليهم فكرة الحريم.

نظمت المسابقة على المستوى العالمي، وانتصر البيزنطيون في الجولة الأولى. كان هؤلاء أشرس شعب في الامبراطورية الرومانية، ولسوء الحظ كانوا يقيمون قريبا من العرب. ولم يكونوا يدعون فرصة تمرّ دون إهانة جيرانهم. غزا إمبراطور بيزنطة العالم وأسر عددا كبيرا من النساء جمعهن في حريم لكي يثبت بأنه القائد، وسجد له الشرق والغرب خوفا من جبروته. ولكن العرب بعد قرون من ذلك تعلّموا فتح البلدان ومطاردة النساء، وقد حققوا تقدّما سريعا إلى حدّ أن راودتهم فكرة غزو الإمبراطورية البيزنطية، وأخيرا كان الخليفة هارون الرشيد أوّل من وطئ أرضها، حيث هدّد بجيشه الامبراطور الروماني

سنة 181هـ، وبلغ هذا الأخير حدّا من الرعب أن اعترف وهو يرتجف كورقة في مهب الريح بأنه مستعدّ لتأدية مبالغ طائلة مقابل تراجع الجيش الإسلامي. غدا هارون الرشيد ثريا وتابع غزوه للعالم، وبعد أن جمع ألف جارية في حريمه شيّد قصرا فخما في بغداد لمحاصرتهن، وهكذا لم يكن أحد ليشك في أنه الخليفة.

أصبح العرب ملوك الدّنيا وسبوا أعدادا هائلة من النساء، إلى حدّ أن المتوكل امتلك أربعة آلاف جارية، أما الخليفة المقتدر فقد كان يملك أحد عشر ألفا من العبيد والجواري. نال العرب احترام العالم، كانوا يصدرون الأوامر والرومان يطيعون، إلا أن المسيحيين أصحاب حيلة ولا يجب منحهم الثقة وخاصة حين يتظاهرون بالخضوع: في حين كان العرب منهمكين في محاصرة النساء وراء الأبواب، اجتمع الرومان وباقي المسيحيين وقرّروا تغيير قواعد اللعبة في البلاد المتوسطية. صرّحوا بأن الأمر لم يعد يتعلق بأسر النساء، ولكن الأقوى سيكون هو من يمتلك الالات والأسلحة المتطوّرة بما في ذلك الأسلحة النارية والسفن. وقرّروا أن لا يفشوا سرّهم للعرب لكي يفاجئوهم، وكان هؤلاء غارقين في سباتهم معتقدين بأنهم يعرفون كل شيء عن قواعد لعبة السلطة.

في هذه اللحظة توقفت شامة عن الكلام، قفزت من مكانها لكي تبهرنا أكثر، ودون أن تعبأ باحتجاجات لللامهاني ولللاراضية شرعت في تمثيل أقوالها. كانت عمّتي حبيبة حينها تزمّ شفتيها لكي تخفي ابتسامتها، ذلك أن ضحكها يعني موافقتها لشامة وسخريتها من قدرة مواكبة الأسلاف لحيل النصارى. ترفع شامة قميصها الأبيض المطرّز حتى تحرّر ساقيها وتنط على مُضَرّبة فارغة، وتصيح قائلة: «العرب غارقون في سباتهم» ثُمَّ تغمض عينيها وتشرع في الشخير، لكي تقفز بعده مرّة ثانيةوتحدّق فينا أنا وسمير كأنها ترانا لأوّل مرّة: «أخيرا استيقظ العرب منذ عدّة أسابيع، عظام هارون الرشيد غدت

غبارا حملته الأمطار إلى نهر دجلة الذي يصب في البحر حيث يغدو كل شيء صغيرا، وهكذا تلاشت عظام هارون الرشيد في ثنايا الأمواج الهائجة. يحكم منطقتنا الآن قائد فرنسي، ويحمل لقب رئيس الجمهورية الفرنسية. إنه يملك قصرا فخما في باريس يسمّونه الإليزيه، ويا للعجب! إن له زوجة واحدة ولا تراوده فكرة الحريم، زوجته الوحيدة هذه تقضي وقتها في التجوّل عبر الأزقة بتنورتها القصيرة وقميصها المفتوح، والكل يرى عجيزتها ونهديها ولكن لا أحد يشكك في أن رئيس الجمهورية الفرنسية هو أقوى رجل في البلاد. إن سلطة الرجال لم تعد تقدّر بعدد النساء الأسيرات، ولكن هذه الأمور مستحدثة في مدينة فاس لأن عقارب الساعة توقفت عند زمن هارون الرشيد!» ترتمي شامة من جديد على الفراش وتخفي وجهها في الوسادة الحريرية الملوّنة بالورود ويسود الصمت.

كنت وسمير شديدي الإعجاب بحكاية شامة، يا لها من ممثلة رائعة! كنت أرقبها دائما بانتباه لأتعلم تشخيص الحكايات، يجب العثور على الألفاظ الملائمة ومصاحبتها بالحركات. بيد أن قصة شامة لم تكن تنال إعجاب الجميع وخاصة أمها لللاراضية، كانت هذه الأخيرة تبدو مرتاعة ثمّ ينفجر غضبها وهي تسمع اسم الخليفة هارون الرشيد. كانت لللاراضية امرأة مثقفة تقرأ كتب التاريخ، وقد ورثت ذلك عن أبيها الذي كان يتمتع بمكانة علمية في الرباط، كانت تكره السخرية من الخلفاء عامة ومن هارون الرشيد على الأخص ولذلك تصيح: «يا ربّي سامح ابنتي، ها هي ذي تهاجم الخلفاء مرّة أخرى، وتزرع الحيرة في أذهان الأطفال، وهما ذنبان لا يغتفران. المساكين الصغار سيكوّنون فكرة مشوّهة عن أسلافهم لو ظلت شامة على ما هي عليه». بعدها كانت لللاراضية تطلب منا الاقتراب منها أنا وسمير لكي تحكي لنا التاريخ الحقيقي وتجعلنا نحب الخليفة هارون الرشيد: «لقد كان أمير الخلفاء، هو الذي فتح بيزنطة وأعلى راية

الإسلام خفاقة في العديد من العواصم المسيحية». وكانت تضيف مؤكدة بأن ابنتها مخطئة بشأن الحريم، إنه في رأيها اختراع رائع، وهكذا يقدّم كل الرجال المحترمين الغذاء والمأوى لجميع قريباتهن حتى لا يجابهن الأخطار وانعدام الأمن في الخارج. إنهم يقدّمون إليهن دورا رائعة مزلجة بالرّخام، وغذاءًا جيدا، ولباسا جميلا وجواهر، فهل تحتاج المرأة إلى أكثر من ذلك لتغدو سعيدة؟ وحدهن النساء الفقيرات مجبرات على الخروج للبحث عن لقمة العيش شأن لوزة زوجة أحمد البواب، أما النساء الغنيات فلا يأبهن لذلك.

كنا نجد أنفسنا أنا وسمير متجاوزين غالب الأحيان بهذه الآراء المتضاربة، ولذلك كنا نحاول تنظيم معلوماتنا للحريم. علاقة بالرجال والنساء، ذلك واقع مؤكد، له علاقة أيضا بالبيت والأسوار والأزقة. إنها أمور بسيطة يسهل تمثيلها إلى حدّ ما: ضعوا أربعة جدران وسط الأزقة، وستحصلون على بيت، ضعوا النساء في البيت ودعوا الرجال يخرجون ستتوفرون على حريم. ولكنني تجاسرت وسألت سمير: ماذا سيحدث لو حاصرنا الرجال في البيت ومنحنا النساء حرّية الخروج؟ قال سمير بأنني أعقد الأمور في اللحظة التي بدأت فيها الأشياء تتضح لنا، ولذلك قبلت إعادة النساء إلى البيت ومنح الرجال الحرية، وتابعنا بحثنا. المشكل هو أن الأسوار وكل الأشياء الأخرى تنطبق على تعريف الحريم بفاس ولا تتلاءم البتة مع حريم الضيعة.

- 6 -

فرس طامو



حريم الضيعة هو عبارة عن بناية ضخمة ذات طابق واحد، تحيط بها الترع والحدائق. تقيم النساء في الجناح الأيمن من البيت، أمّا الجناح الأيسر فكان مخصصا للرجال، وهناك حاجز رقيق من قصب الخيزران يرسم الحدود بين الاثنين. الواقع أن الجناحين متماثلان إذ شيد أحدهما خلف الآخر بواجهات متوازية وأروقة ذات سواري عالية تُبقي على الهواء المنعش في حجرات الاستقبال والغرف الصغيرة بالبيت. كانت الأروقة هي المكان المفضل للعبة «غمايضة»، وكان أطفال الضيعة أكثر جسارة من أطفال فاس. إنهم يتوفرون على جرأة مدهشة، يتسلّقون السواري حفاة، وينطون كالبهلوانات، ولا يخافون الضفادع والعظايات الصغيرة، أو الحيوانات الصغيرة المجنحة التي تهاجمك في الأروقة. كانت الأرض مزلجة بزليج أبيض وأسود، والسواري مرصعة بزليج ذي ألوان فريدة من نوعها، خليط من الأصفر الباهت والبني، إنها ألوان اختارها جدّي وما رأيتها قط في غير ذلك المكان. تحيط بالحدائق شبابيك جميلة من الحديد المنحوت، ذات مداخل مقوّسة تبدو دائما مغلقة ولكن ما إن تلمسها بيدك حتى تجد نفسك في الحقول.

كانت حديقة الرجال مشيدة في نظام، ذات أشجار وورود، أمّا حديقة النساء فتلك حكاية أخرى: إنها خليط من الأشجار الغريبة والأعشاب العجيبة والحيوانات من كل نوع، لأن كلّ زوجة استولت

على بقعة صغيرة تزرع فيها الخضر وتربي الدجاج والنوع الحبشي منه أو الطاووس. وبالتالي يستحيل عليك التجوّل هناك دون أن تطأ قدمك التراب الذي استحوذت عليه إحداهن، في حين تتبعك الحيوانات تحت أقواس الرواق محدثة ضجيجا حادا يتناقض مع الصمت المطبق في حديقة الرجال.

إلى جانب البناية الرئيسية في الضيعة، هناك بيوت ملحقة، وتشغل الياسمين البيت الموجود على اليمين، وقد أصرّت على الاستقرار فيه وشرحت لجدّي بأنها ترغب في الابتعاد ما أمكن عن للـلاطهور. تتوفر هذه الأخيرة على قصرها الصغير في البناية الرئيسية، حيث الحيطان مغلفة بالمرايا، وحيث السقوف الخشبية الملوّنة والمنحوتة والثريات المدلاة. أما بيت الياسمين فهو على النقيض من ذلك، يتشكل من حجرة واسعة متواضعة وخالية من مظاهر الترف. لم تكن الياسمين لتبالي بثريات ومرايا البندقية، وكانت تفضل الابتعاد والتوفر على مكان واسع لتجريب مزروعاتها من الأشجار والورود وتربية الإوز والطواويس من كل نوع. يتوفر بيت الياسمين على طابق علوي شيد من أجل طامو التي لجأت إلى الضيعة فارّة من حرب الريف المندلعة حينها في جبال الشمال، لقد عالجت الياسمين طامو حين مرضت، ومن يومها غدتا صديقتين.

جاءت طامو سنة 1926، إثر انهزام عبد الكريم الخطابي بعد أن تحالفت ضدّه الجيوش الفرنسية والإسبانية، ظهرت ذات صباح باكر في أفق سهل الغرب ممتطية فرسا تعلوه سرج إسبانية، ترتدي سلهاما أبيض كالرجال، وتبرز تسريحة شعرها حتى لا يطلق عليها الجنود الرصاص. كانت الزوجات شغوفات برواية قصّة قدومها إلى الضيعة، وهي قصة أكثر إثارة من حكايات ألف ليلة لأن طامو كانت حاضرة من لحم ودم لتستمع وهي تبتسم لقصّة بطولاتها. كانت تضع في يدها حينها أساور فضية مكعّبة ذات أسنان قد تستعمل للدفاع عن

النفس إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وتتقلّد خنجرا وتحمل في سرج الفرس بندقية إسبانية حقيقية تخفيها تحت السلهام. كانت ذات وجه مثلث يزينه الوشم الأخضر على الذقن، عيناها سوداوان تحدّقان فيك دون ترميش، وظفيرتها الذهبية الطويلة تتدلّ بحرّية على كتفها الأيسر. توقفت على بعد أمتار من الضيعة وطلبت مقابلة السيد. لم يكن أحد يدري في ذلك الصباح بأن الحياة ستتغير في الضيعة منذ تلك اللحظة، لأن طامو كانت بطلة من بطلات حرب الريف، وكان المغرب بأسره يكن الإعجاب للريفيين الذين استمرّوا في مواجهة الاحتلال بعد أن خضعت سائر أطراف البلاد. وهاهي ذي طامو تصل، مرتدية زي القتال بعد أن اجتازت وحدها حدود عرباوة لتلتحق بالمنطقة الفرنسية وتطلب النجدة. وبما أن الأمر يتعلق بحالة استثنائية، فإن بعض القواعد لم تكن لتحترم، وعلى كل كانت طامو تتصرف كما لو أنها تجهل كل شيء عن التقاليد.

من المحتمل أن يكون جدّي قد أحب طامو من اللحظة التي رآها فيها، ولكنه لم ينتبه للأمر إلا بعد عدّة شهور نظرا للتعقيد البالغ الذي طبع ظروف لقائهما. كانت طامو قادمة لتأدية مهمّة محدّدة، لقد كان أقرباؤها فارين ومطاردين في المنطقة الإسبانية، وكان عليها أن تقدّم لهم المساعدة، لبّى جدّي طلبها وكان أوّل ما قام به هو أن عقد عليها كزوجة له حتى يبرّر وجودها في الضيعة، في حالة ما إذا بحثت عنها الشرطة الفرنسية. بعدها طلبت منه طامو أن يساعدها على نقل الغذاء والدواء لذويها، فهناك جرحى كثيرون، ثمّ أن كل قرية من قرى الريف بعد هزيمة عبد الكريم كانت معزولة ومجبرة على تدبير بقائها بوسائلها الخاصة. كانت طامو لا تكف عن سب أهل فاس الذين كانت تسمّيهم بالدّجاج الأبيض: «لو انضمت المدن إلى المعركة لما انهزم عبد الكريم»، وكان جدّي يحرص على عدم معارضتها كما أنه كان سعيدا لتمييزها إياه عن ناس مدينة فاس التي ينتمي

إليها، حيث تمنحه إمكانية تقمص دور البطل. هيّأ لها جدي الحاجات الضرورية وذهبت ذات مساء تصحبها شاحنتان تسيران ببطء على المنحدر وأضواؤهما مطفأة، وكان هناك فلاحان متنكران في زي التجار يرشدانهما وهما يمتطيان الحمير ويوجهان الشاحنتين نحو الطريق الخالية بمصابيح يدوية.

عندما عادت طامو بعد أيام من ذلك كانت إحدى الشاحنتين محمّلة بالجثث المخفية تحت الخضر، وكان الأمر يتعلق بأبيها وزوجها وطفليها ولد وبنت، وقفت صامتة بالقرب من الشاحنة حين إفراغها، ثمّ أتتها الزوجات بكرسي: وظلت جالسة تنظر في صمت خلال الوقت الذي استغرقه حفر القبور لدفن الجثث. لم تذرف دمعة، ثمّ زرع الرجال ورودا لإخفاء القبور، وبعد انتهاء الدفن لم تقدر طامو على الوقوف، نادى جدّي الياسمين التي سندتها حتى بيتها ومدّدتها على الفراش. لم تنبس طامو ببنت شفة خلال شهور، واعتقد الجميع بأنها فقدت القدرة على النطق. إلا أنها كانت تصيح في نومها وهي تواجه أعداءا لا مرئيين، ما إن كانت تهجع إلى النوم حتى تعود الحرب فتقفز من فراشها، أو ترتمي على ركبتيها وهي تتذرع إلى معذبيها كي يغفروا لها بلغة لم تكن الياسمين تفهمها، وحين أخبرتها هذه الأخيرة بأنها تتحدّث لغة غير مفهومة في كوابيسها أجابتها بأنها اللغة الإسبانية. كانت طامو في أمسّ الحاجة إلى من يساعدها على تجاوز حزنها دون أن يطرح أسئلة فضولية، أو يفشي سرّها إلى الجنود الفرنسيين والإسبان الذين كانوا يفتشون في الضفة الأخرى من النهر. اعتنت بها الياسمين خلال شهور حتى برئت، وذات صباح شوهدت طامو وهي تداعب قطة وتزين شعرها بوردة. في تلك الليلة أقامت الياسمين حفلا على شرفها، اجتمعت الزوجات في بيت هذه الأخيرة وغنين لها حتى تشعر بأنها واحدة منهن، ابتسمت طامو ثمّ سألت ما إذا كان بإمكانها الحصول على فرس للخروج في اليوم التالي.

حضور طامو غير أشياء عديدة في الضيعة، لقد كانت غالبا ما تستشعر رغبة لا تقاوم في امتطاء الفرس والانطلاق في نزهات لا تنتهي أو القيام بحركات بهلوانية. كانت تلك طريقتها في مواجهة الحزن وإيجاد معنى للحياة، وعوض أن تستشعر الياسمين أو الزوجات الأخريات الغيرة منها، أعجبن بها نظرا لمواهبها المتعدّدة التي تبعث على الدهشة لدى المرأة. وحين تماثلت إلى الشفاء وعادت إليها القدرة على الكلام اكتشفن بأنها تعرف استعمال البندقية، وتتكلم الإسبانية بطلاقة، وتقفز في الهواء عاليا، أو تقوم بقفزات خطيرة دون أن يصيبها الدوار، كما أنها قد تطلق ألفاظ السباب بعدّة لغات. وبما أنها تنتمي إلى بلاد جبلية تمرّ عبرها الجيوش الأجنبية باستمرار، فقد انتهت إلى الخلط بين الحياة والقتال، وبين الراحة والسباق. وحين رأت الزوجات طامو في الضيعة بوشمها وخنجرها الذي تتقلّده أيام الأعياد، وأسورتها الثقيلة وشغفها بالتنزه على الخيل، أدركن بأن هناك طرقا عديدة للجمال لدى المرأة، بإمكانها أن تكون فاتنة لأنها تعرف القتال، وترفض العجز، وتسب بصوت عال، وتنطلق في جولات تبعث على الدوار. كانت طامو تجهل التقاليد وكانت كل الأنظار مصوّبة نحوها.

غدت طامو أسطورة من اليوم الذي ظهرت فيه، وبعثت في الأخريات الوعي بقوّتهن الدّاخلية وقدرتهن على مقاومة الأقدار أيا كانت. خلال مرضها كان جدّي يأتي إلى بيت الياسمين يوميا ليستفسر عن صحتها، وحين تماثلت إلى الشفاء وطلبت فرسا قلق وخشي فرارها، كان يجدها جميلة جدا لأنها ثائرة ومليئة حيوية بظفيرتها الذهبية، وعينيها السوداوين البراقتين، وذقنها الموشومة بالأخضر، ولكنه لم يكن متأكدا من مشاعرها نحوه. لم تكن زوجته، والعقد الموجود بينهما صوري أملته الظروف، وطامو محاربة قد تختفي ذات يوم على فرسها في الأفق قاصدة الشمال الذي أتت منه. طلب من الياسمين أن تصاحبه إلى الحقول وحدّثها عن مخاوفه، فقلقت هي

الأخرى لأنها كانت معجبة بطامو ولا تتحمّل فراقها، ولذلك اقترحت على جدّي أن يطلب من طامو قضاء الليلة معه «وإذا ما قبلت فذلك يعني أنها لا تفكّر في الرحيل، أما إذا رفضت فهي تفكّر فيه». عاد جدّي إلى البيت واختلى بطامو في حين كانت الياسمين تنتظر بالخارج، وحين ذهب كانت الابتسامة تعلو محياه، فأدركت الياسمين بأن طامو قبلت أن تصبح إحدى زوجاته، بعدها بشهور شيد جدّي بيتا جديدا لطامو في الطابق الأعلى لبيت الياسمين، ومن يومها غدا منزلهماالصغير بمثابة قيادة عامة للتضامن النسوي.

بعد بناء الطابق الجديد كان أوّل شيء قامت به طامو والياسمين هو زرع شجرة موز حتى تحسّ يايا الزوجة السوداء بأنها في بلدها. كانت يايا جدّ كتومة وكانت طويلة القامة نحيفة إلى حدّ تبدو معه هشة في قفطانها الأصفر. وكانت ذات تقاطيع دقيقة، تغيّر المنديل الذي تلف.به شعرها حسب مزاجها، رغم أن لونها المفضل هو الأصفر «لأنه يمنح الضوء كالشمس» حسب قولها، كانت كثيرا ما تصاب بنزلات البرد وتتكلم العربية بلكنة، ولا تختلط البتة بالزوجات الأخريات، بل تلازم بيتها أغلب الأحيان. يايا تبدو هشة إلى الحدّ الذي جعل الزوجات الأخريات يتحمّلن عنها الأعباء المنزلية، ومقابل ذلك وعدتهن بأن تحكي لهن قصة كل أسبوع لتصف الحياة في مسقط رأسها بإحدى قرى السودان، حيث لا يكبر شجر البرتقال أو الحامض، وتنمو أشجار الموز وجوز الهند. لم تكن يايا تتذكر اسم قريتها، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تصبح القصاصة الرسمية للحريم شأن عمّتي حبيبةعندنا. كان جدّي يساعدها على استعادة رصيدها من الذكريات، حيث يقرأ بصوت عال كتب تاريخ السودان وممالك شونغاي وغانا، وأبواب تومبوكتو الذهبية، وكل عجائب غابات الجنوب التي تخفي الشمس. كانت يايا تقول بأن ذوي البشرة البيضاء عاديون ويوجدون في كل بقاع الأرض، ولكن السود جنس خاص

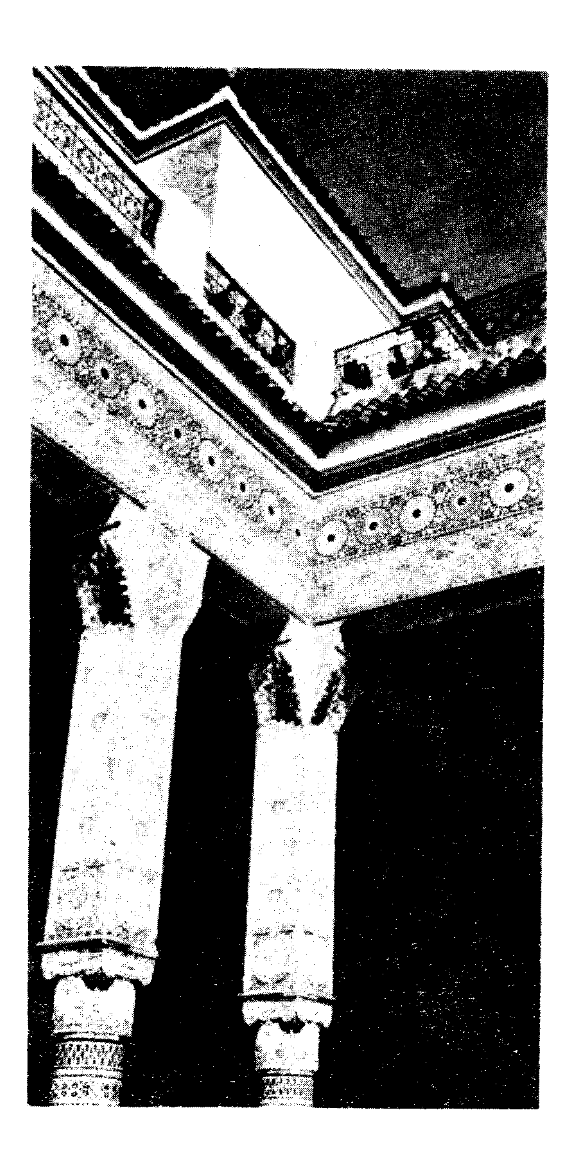
لأنهم لا يوجدون إلا في السودان والبلاد المجاورة جنوب الصحراء.

خلال ليالي القصّ، كانت الزوجات تجتمعن في غرفة يايا وتحملن صواني الشاي، وكانت هي تتحدّث عن مسقط رأسها العجيب، وبعد ذلك بسنوات غدت الزوجات يعرفن بدقة تفاصيل «طفولتها»، إلى حدّ أنهن كن يسعفنها إذا ما تردّدت أو فقدت ثقتها بذاكرتها. ذات يوم قالت طامو وهي تسمعها تصف قريتها: «إذا كان الشيء الوحيد الذي ينقصك لكي تحسّي بأنك في بلادك هو شجرة موز، سنزرعها لك في الحين»، طبعا لم يصدّق أحد الأمر في البداية إذ كيف يمكن زرع شجرة موز في سهل الغرب حيث تهب رياح الشمال القادمة من اسبانيا وتمرّ السحب الآتية من الأطلس؟ ولكن الأصعب كان هو الحصول على الشجرة. طلبت طامو والياسمين من كل الباعة المتجوّلين على حميرهم أن يصفوا لهما شجرة موز، إلى أن أتى بها إليهما ذات يوم أحدهم وكان قادما من منطقة مراكش. فرحت بها يايا واعتنت بها كطفل حيث كانت تسرع لحمايتها كلّما هبت رياح الشمال فتحيطها بغطاء أبيض، بعد ذلك بسنوات أثمرت الشجرة موزا فأقامت الزوجات حفلة وارتدت يايا قفطانا وفرجية لامعين ووضعت ورودا على منديل رأسها، ونزلت نحو النهر وهي ترقص سكرى من النشوة.

لم تكن هناك في الواقع حدود لما يمكن أن تفعله نساء الضيعة، كان بإمكانهن زرع الأعشاب الغريبة والتسابق على الخيل والتنقل حسب رغبتهن على الأقل في الظاهر. وبالمقارنة مع كل ذلك كان حريمنا بفاس سجنا حقيقيا، بل إن الياسمين كانت تقول بأن أفظع شيء بالنسبة للمرأة هو أن تنفصل عن الطبيعة: «الطبيعة هي أفضل صديقة للمرأة، وإذا ما كانت لديك مشاكل، يكفي أن تسبحي في نهر أو تستلقي في حقل ورود أو تراقبي النجوم. هكذا تبرأ المرأة من خوفها».

- 7 -

الحريم اللامرئي



تحيط الأسوار العالية بحريمنا في فاس، وباستثناء الطرف الصغير من السماء الذي نبصره من ساحة الدار، لا وجود للطبيعة. طبعا إذا ما تسلقنا الدرج كالسهم لرؤية السماء من السطح سندرك بأنها أكبر من البيت ومن كل الأقوياء ومن كل شيء، ولكن الطبيعة في الساحة تبدو عديمة الأهمّية وغائبة تقريبا. إنها موجودة كما اشتغلت عليها أيدي الصناع، حيث عوضت برسوم هندسية تغدو فيها الورود المنسوخة على الزليج والخشب ذات زوايا حادّة. إن الورود في الحريم تحال إلى خطوط صغيرة هشة تسحقها المثلثات والدوائر وتقنية المزج بينهما. والواقع أن الورود الوحيدة التي تحافظ على بقائها في البيت، هي ورود الأغلفة الملوّنة التي تلف المضربات، وستائر الحرير المطرّزة التي تسدل على الأبواب والنوافذ.

يستحيل عليك أن تفتح النوافذ لرؤية الخارج إذا ما استشعرت الرغبة في رؤية ورود أخرى غير الورود الأسيرة في نسيج الأثواب الفاخرة، ذلك أن كل النوافذ تفتح على وسط الدار، وليست هناك نافذة واحدة تفتح على الخارج: «يا طفلتي الصغيرة، كما تقول الياسمين، يجب أن تتعلّمي الاحتراس من الكلمات، نافذة لا تطلّ على الخارج، لو كنت مكانك لترددت في أن أطلق عليها هذه الصفة. باب يُفتح على ساحة داخلية أو حديقة مسيجة بالأسوار أو مغلقة

بأبواب محروسة ليست بالتأكيد بابا، عليك أن تدركي بأن الأمر يتعلّق بشيء آخر».

مرّة كل سنة خلال فصل الربيع، كنا نخرج إلى النزهة في ضيعة عمّي بوادي فاس على بعد عشرة كلمترات من المدينة. يمتطي الكبار ذوو المكانة في العائلة السيارة، أما الأطفال والعمّات المطلّقات والقريبات الأخريات فيحشرون في شاحنة تُكْتَرى للمناسبة. تحمل عمتي حبيبة وشامة دائما طعارجهن وتحدثان ضجيجا لا يطاق خلال الطريق يفقد معه السائق صوابه فيصيح: «إذا لم تتوقفن سأحيد عن الطريق ونجد أنفسنا جميعا في المنحدر!» ولكن صيحاته تذهب سدى لأن التطبيل والتصفيق يعلوان على صوته.

يستيقظ الجميع يوم النزهة في الفجر ويسرعون إلى الساحة كما لو أن اليوم يوم عيد، البعض يعد الطعام والبعض الآخر يعدّ المشروبات أو يجمع الزرابي والأفرشة الخفيفة. تنصرف أمّي وشامة لجمع الأرجوحات وهن يقلن كلّما اقترح أبي التخلّي عنها نظرا للوقت الذي يستغرقه ربطها على الأشجار: «وهل هناك نزهة بدون أرجوحة؟»، ولإثارة أمّي يضيف والدي: «إن الأرجوحة تلائم الأطفال لأن الأشجار المسكينة تعاني حين يتعلّق الأمر بالكبار». ولكن أمّي لا تأبه لذلك وتستمر في جمع الأرجوحات والحبال الضرورية لربطها. تغني شامة على وزن نشيدنا الوطني «مغربنا وطننا»: «إذا عجز الرجال عن ربط مطيشات ستقوم النساء بذلك... تاتاتطا...». خلال ذلك الوقت، كنا أنا وسمير نبحث بلهفة عن أحذية الرياضة لأنه من العبث انتظار مساعدة من أمهاتنا المنصرفات إلى مشاغلهن. أما للالامهاني فتعدّ الصحون والكؤوس حتى «تقيّم الخسارة وتعرف العدد الذي سيكسر منها عند نهاية النهار». بإمكانها، كما تردّد ذلك غالبا، الاستغناء عن النزهة، خاصة وأن هذه الاحتفالات قد لا تتلاءم والتقاليد.

نصل إلى الضيعة في وسط النهار، مجهزين بالزرابي والأفرشة الخفيفة والكانون، حين تنشر الزرابي توضع الأفرشة فوقها ونوقد نار الفحم الخشبي ونشوي اللحم ويختلط غناء المقاريج بتغريد العصافير. وبعد الغذاء تتفرق النساء في الغابة والمراعي بحثا عن ورود أو أعشاب يستعملنها في زينتهن، في حين تدفع كل منهن المطيشة (الأرجوحة) بالأخرى، ولا نأخذ طريق العودة إلا بعد غروب الشمس.

تنغلق الأبواب وراءنا وتظل أمّي بعدها حزينة عدّة أيام تقول: «بعد قضاء يوم في الهواء الطلق، لا يتحمّل الإنسان أن يستيقظ ليجد الجدران وقد غدت آفاقا».

ليست هناك طريقة للدخول إلى بيتنا إلا عبر البوابة الرئيسية التي يراقبها أحمد البوّاب، ولكن هناك إمكانية أخرى للخروج عن طريق السطوح. بإمكانك أن تقفز من سطحنا إلى سطح أحد الجيران وأن تجد نفسك في الخارج بعد أن تجتاز بابهم. مفتاح سطحنا يوجد في حوزة لللامهاني بشكل رسمي، وحين يطفئ أحمد الأضواء بعد غروب الشمس، فذلك يعني أن الحركة قد توقفت، ولكن هذا المفتاح أودع لدى عمّتي حبيبة التي تسكن الغرفةالمؤدية مباشرة إلى السطح نظرا للحاجة إلى ارتياده في كل وقت في إطار الأشغال المنزلية، كالإتيان بالزيتون المخزون في جرّات كبيرة أو تنظيف الغسيل ونشره. نادرا ما تراقب الأنشطة التي يعرفها السطح لأن الوصول إلى الخارج انطلاقا منه بالغ الصعوبة، وعلى الإنسان أن يتوفر على ثلاث صفات بدنية أساسية إذا شاء ذلك: أن يتقن التسلق والقفز والنزول بخفة. أغلب النساء يعرفن التسلق والقفز إلى حدّ ما، ولكن نادرات هن اللواتي يستطعن النزول بمرونة، إلى حدّ أننا كنا نرى من حين لآخر بعضهم وهو يربط عرقوبه وكان الجميع يدرك ما جرى.

حين نزلت أوّل مرّة من السطح دامية الركبتين، شرحت لي أمّي

بأن مشكلة المرأة الأساسية في الحياة هي النزول: «عليك أن تفكري في النزول كلّما أقدمت على مغامرة، إن الانطلاق لا يهمّ، وحين تحسين الرغبة في الطيران، عليك أن تعرفي أوّلا المكان الذي ستنزلين فيه. ألم تري طامو في الضيعة ؟ إنها تقضي أياما بأكملها وهي تفكر في الطريق الذي سترتاده قبل أن تمتطي فرسها وتنطلق، في الوقت الذي تنصرف فيه النساء الأخريات إلى غسل الأواني ويشغلن وقتهن بوصفات المطبخ. وفي يوم السباق تكون هي الأولى دائما. لم نرها تدخل مطبخا قط، إنها نادرة الكلام وتقضي وقتها في التفكير بصمت. إن حياة المرأة سلسلة من المكائد ولا أودّ أن تفكر ابنتي في الطيران وهي تريد تغيير العالم دون أن تدخل في حسابها مشروعا جيدا للنزول».

لم يكن القفز من حائط السطح عملا بطوليا إذن، وبالإضافة إلى الخطر الذي يمثله كان هناك سبب آخر يجعل أمّي وشامة لا تعتبران السطح منفذا ممكنا، إن هذا الهروب يكتسي بعدا سريا تحتقره النساء اللائي كن يرغبن في النضال من أجل حق النساء في التنقل بحرّية. ومن ثمّ فإن مواجهة أحمد البواب كانت هي العمل البطولي الوحيد والفريد من نوعه، أمّا الهروب من السطح فلم يكن ليتلاءم مع هذا التعطش للحرية.

لم تكن هذه السبل لتوجد في ضيعة الياسمين، وحين زرتها في ذلك الصيف، رويت لها ما حكته شامة عن أصل الحريم، لاحظت اهتمامها بما أقوله، فاستعرضت معلوماتي التاريخية، وتحدّثتُ عن الرّومان وحريمهم، وعن الطريقة التي غدا بها العرب سلاطين الدنيا بفضل الألف جارية التي امتلكها هارون الرشيد، وحيل المسيحيين الذين قرّروا استغلال سبات العرب وتغيير قواعد اللعبة. ضحكت الياسمين للحكاية وقالت بأنها ليست متعلّمة لكي تحكم على مدى صحّة هذه الأحداث التاريخية، ولكنها تبدو ممتعة وجدّ منطقية.

سألتها بعدها عن مدى صحة أو خطإ ما قالته شامة، فأجابتني بألا أولي بالا للصحيح أو الخطإ، وأخبرتني بأن بعض الأشياء قد تكون صائبة وخاطئة في نفس الوقت، وأن بعضها الآخر ليس صائبا أو خاطئا: «إن الكلمات كالبصل كلّما أزلت القشرة وجدت دلالات، وحين تشرعين في اكتشاف معاني أخرى لن يعني لديك الصواب أو الخطأ شيئا. إن الأسئلة التي تطرحينها أنت وسمير عن الحريم مفيدة جدّا، ولكن عليكما أن تفكرا دائما بأن هناك أسئلة أخرى ستطرح دائما» ثمّ أضافت «سأنزع قشرة إضافية من أجلك أنت فحسب، ولكن تذكري بأنها ليست إلا واحدة ضمن أخريات».

كلمة الحريم تعود إلى لفظة الحرام الذي يتعارض مع الحلال. إن الحريم هو المكان الذي يضع فيه الرجل أسرته ليدرأ عنها الخطر سواء تعلق الأمر بزوجة واحدة أو عدّة زوجات، بأطفاله أو قريباته، قد يكون في بيت أو خيمة، لا أهمية لذلك. فالحريم يعني المكان وكذلك الأشخاص الذين يسكنونه، وحين نتحدّث عن حريم أحدهم، نحيل على أفراد عائلته والبناية التي يقيمون فيها. أما الحريم العائلي، فهو مكان محمي ومنظم له قانونه المحدّد، إذ لا يمكن لرجل أن يدخله دون إذن صاحبه، في هذه الحالة عليه أن يخضع لقانونه. إن الحريم محكوم بفكرة الملكية الخاصة والقوانين التي تسيّرها. وبهذا المعني تقول الياسمين ليست الحيطان ضرورية.

إذا تعلّمنا الموانع، نحمل الحريم في ذاتنا، إنه الحريم اللامرئي الموجود في رؤوسنا و«المسجل في الجبين والجلد».

أقلقتني جدا فكرة حريم لا مرئي وقانون موشوم على جبهتي وراسخ في دماغي بالرغم مني. كرهت ذلك وطلبت منها مزيدا من الشرح: «إن الضيعة كما قالت الياسمين، حريم ولكنها غير محاطة بالأسوار لأن هذه الأخيرة ليست ضرورية إلا في أزقة المدن، ولكن الإنسان إذا قرّر الإقامة في البادية كما فعل جدّك لا يحتاج إلى حواجز

لأننا وسط الحقول ولا أحد يمرّ. بإمكان النساء أن يتجوّلن بحرّية في الحقول لأن الأجانب لايقتربون من الضيعة، بإمكانهن كذلك أن تمتطين الخيل خلال الساعات دون أن تلتقين بأحد، ولكنهن إذا وجدن فلاحا في طريقهن ولاحظ بأنهن غير محتجبات. يخفي وجهه بجلبابه لكي لا يراهن. وبالتالي، فإن الحريم تضيف الياسمين في هذه الحالة راسخ في ذهن الفلاح مرسوم على جبينه. إنه يحمل حريما لا مرئيا في ذهنه الصغير، ويعرف بأن نساء الضيعة في ملكية جدّك التازي وليس من حقه النظر إليهن».

حيرتني فكرة التجوّل بحريم لامرئي في الذهن، ووضعت يدي خفية على جبهتي لأتحسّسها حتى أعرف ما إذا كنت مجرّدة منه، حينها غدت الشروح التي قدّمتها الياسمين باعثة على القلق. لقد قالت بأن جميع الأمكنة التي نرتادها تنظم السلوك فيها قوانين لامرئية «وحين أتحدّث عن المكان كما قالت، أعني أي مكان، ساحة أو سطحا أو غرفة أو دربا أحيانا».

«في كل مكان هناك قاعدة، وإذا ما خضعت لها لن ينالك سوء». ثمّ أضافت شيئا أرعبني بحق:

«إلا أن القاعدة، لسوء الحظ، غالبا ما تكون ضدّ النساء». سألتها:

ـ «وكيف ذلك؟ إنه ظلم!» ثم اقتربت منها لكي لا تفوتني كلمة من إجابتها فقالت لي: «إن العالم لا يأبه كثيرا لأن يكون عادلا تجاه النساء، لقد وضعت القوانين بشكل جرّدهن من حقوقهن بطريقة أو بأخرى. إن النساء مثلا يعملن كالرجال طيلة النهار، ولكن الرجال يحصلون على الأجر دون النساء. إنه أحد القوانين اللامرئية، وحين تبذل المرأة مجهودا كبيرا دون أن تحصل على أجر تحاصر في حريم حتى وإن كانت لا ترى أسواره. لاشك أن القوانين قاسية لأنها لم توضع

من طرف النساء». سألتها إثر ذلك:

ـ ولماذا لا تضع النساء القوانين؟ فأجابتني:

ـ حين ستتوفر النساء على ذكاء يؤهّلهن لطرح هذا السؤال عوض الامتثال والطبخ وغسل الأواني طيلة النهار، حينها ستجدن طريقة لتغيير القواعد ستهزنّ العالم بأسره.

ـ كم سيستغرق ذلك من الوقت؟

ـ فترة طويلة جدّا.

بعدها طلبت منها ما إذا كان بإمكانها أن تدلّني على طريقة أتعرّف بها على القاعدة أو القانون اللامرئي حين أرتاد مكانا لأوّل مرّة، هل هناك علامات أو شيء مادّي يرشدني؟ فأجابتني: «السوء الحظ، لا! ليست هناك علامة خاصة باستثناء النتائج العنيفة. وكلما خرقتِ قاعدة تتعرّضين للعنف».

لاحظت الياسمين بأن العديد من الأنشطة المفضلة لدي تندرج لسوء الحظ في إطار الممنوعات المطلقة على النساء كالتجول واكتشاف العالم والغناء والرقص والتعبير عن الرأي. إن سعادة المرأة تخرق القاعدة، والواقع أن هذه الأخيرة غالبا ما تبدو أكثر صلابة من الحيطان والحواجز. بعد هذه الكلمات غدوت آمل في أن تتجسّد كل القواعد أمامي في شكل حدود مرئية وأسوار حقيقية، وحينها راودتني فكرة أكثر مدعاة للحيرة. إذا كانت ضيعة الياسمين حريما، رغم كونه غير محاط بالأسوار، ماذا تعني كلمة الحرية؟ أطلعتها على الفكرة فبدت قلقة، وقالت لي بأنها تفضل لو انصرفت إلى اللعب كباقي الأطفال في سنّي عوض أن أنشغل بالأسوار والقوانين والموانع ودلالة كلمة الحرّية.

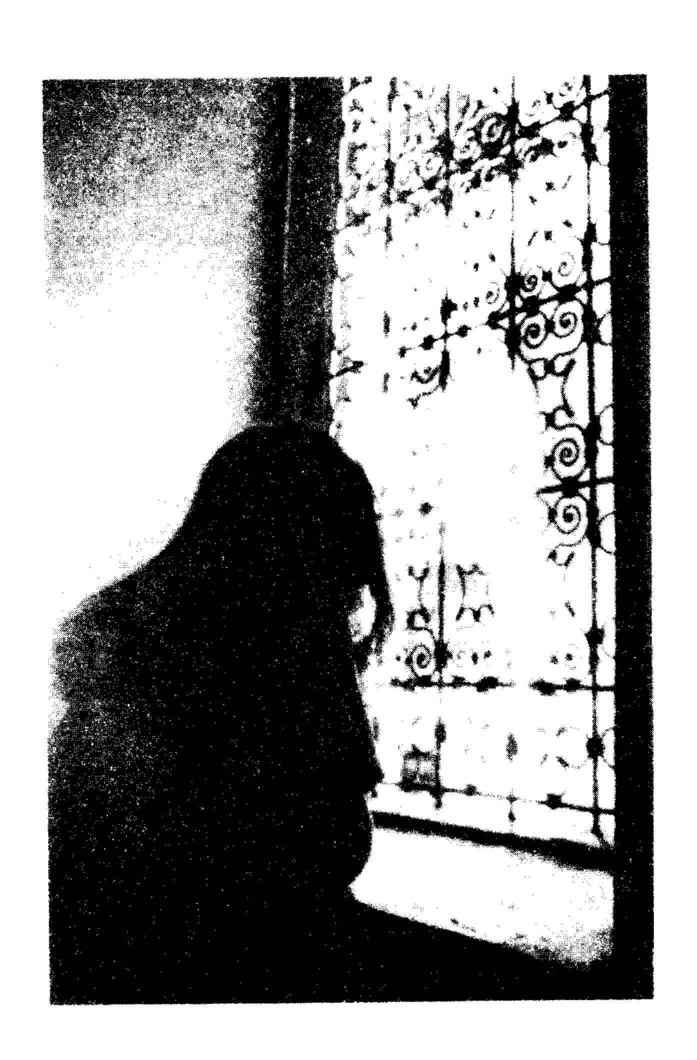
«ستدعين السعادة تفلت منك إذا ما فكّرت كثيرا في الأسوار والقوانين يا صغيرتي العزيزة. إن الهدف الأقصى من حياة المرأة

هوالسعادة، ولذلك لا تضيعي وقتا في البحث عن أسوار لكي ترتطمي بها». ولإضحاكي قامت الياسمين وجرت نحو أقرب حائط وصاحت، وهي تتصنع ضرب رأسها عليه: «آه! آه! الحائط يؤلمني! الحائط هو عدوي!»، انفجرت ضاحكة رغم قلقي، مرتاحة لأن السعادة لازالت في متناول يدي رغم كل شيء. نظرت إلى وهي تشير إلى ناظرها: «هل تفهمين ما أودّ قوله؟» طبعا كنت أفهم وكانت السعادة تبدو ممكنة فعلا رغم أشكال الحريم الظاهرة واللامرئية. جريت نحوها لأعانقها وأهمس في أذنها، في حين كانت تضمّني إليها وتدعني أداعب عقيقها الوردي: «أنا أحبك حقا، هل تعتقدين بأنني سأكون سعيدة عندما سأكبر؟».

«. طبعا ستكونين سعيدة! ستصبحين سيّدة عصرية ومتعلمة، ستجسّدين حلم الوطنيين وستتعلّمين اللغات الأجنبية. ستحرزين على جواز سفر وتجولين العالم وتقرئين آلاف الكتب، وعلى كل، سيكون مصيرك أفضل من مصير أمّك. تذكّري دائما بأنني رغم كوني غير متعلمة وعانيت من وطأة التقاليد، نجحت في انتزاع لحظات قصيرة من السعادة في هذه الحياة الملعونة. ولذلك لا أريدك أن تفكري دائما في الحدود والحواجز. أودّ أن تنشغلي أساسا بالتمتع والضحك والسعادة. إنه مشروع يلائم فتاة طموحة مثلك!».

- 8 -

لذة غسل الأواني في النهر



كنا نصل ضيعة الياسمين بعد بضع ساعات من السفر، نقصدها كما لو كنا سنرحل إلى إحدى جزر الصين البعيدة التي ترسو بنا فيها عمتي حبيبة بحكاياتها. كانت نساء الضيعة يقمن بأشياء لم تكن لتخطربيالنا نحن في المدينة، كصيد السمك وتسلّق الأشجار أو السباحة في واد تتدفق مياهه الصاخبة نحو نهر سبو قبل أن تتجه إلى المحيط الأطلسي. اعتادت النساء، إثر قدوم طامو على مسابقات ركوب الخيل، كن يمتطينها سابقا ولكن بشكل لا يلفت الانتباه، ولم يكن ليذهبن أبعد من ذلك. أما طامو فقد جعلت من سباق الخيل طقسا رسميا ذا قواعد مضبوطة وتدريبات وحفلات رسمية لتوزيع الجوائز.

كانت الحائزة على الصف الأوّل في السبق تحرز على جائزة تصنعها آخر من اجتازت خط الوصول، وهي عبارة عن بسطيلة كبيرة، هذه الأكلة التي تعدّ من ألذ أطباق الدنيا إذ أنها حلو ى وطبق دسم في نفس الوقت، لذيذ بمزيجه الخارق بين المذاق الحلو والمالح، خليط خلقته الصدفة بين لحم الحمام واللوز والسكر والقرفة. آه! إن البسطيلة تذوب في الفم، وعلى من يتناولها أن يفعل ذلك باحتراس وإلا سيغمر السكر المدقوق والقرفة وجهه. يستغرق تحضير البسطيلة وقتا طويلا، لأنها مصنوعة من ورق العجين المحشوّ باللوز المقلي

المدقوق إضافة إلى عشرات من المفاجآت التي تتغير حسب رغبة صانعاتها. تقول الياسمين أحيانا كثيرة بأن النساء، لو رزقن ذرّة من عقل لتاجرن بالبسطيلة وحصلن على مال عوض استعمالها أكلة منزلية عادية-1-.

باستثناء لللاطهور التي كانت ذات بشرة بيضاء باهتة، كما هو الشأن لدى المدينيات، كانت ملامح أغلب الزوجات الأخريات كملامح القرويات في الجبال المغربية. وبما أن لللاطهور لم تكن تشارك في الأعمال المنزلية، فقد كانت ترتدي ثيابها الثلاثة المتتالية التي تتدلّى حتى قدميها، في حين تلف النساء الأخريات أقمصتهن حول الحزام، وتشمرن أكمامهن بواسطة خيط بلاستيكي ملوّن على شاكلة التخمال التقليدي. كانت هذه الطريقة في اللباس تمكنهن من التحرّك بسهولة لقضاء الأعمال المنوطة بهن والعناية بحيوانات الضيعة، وكانت إحدى مشاغلهن الأساسية تتمثل في إضفاء طابع المتعة على الأعباء المنزلية، وذات يوم اقترحت مبروكة التي كانت شغوفة بالسباحة غسل الأواني في النهر.

استنكرت لللاطهور الأمر وقالت بأن الفكرة تناقض التقاليد الإسلامية، ستهدّم القرويات سمعة هذا البيت كما تنبأ بذلك المؤرّخ الكبير ابن خلدون منذ ستة قرون، لقد قال في مقدّمته بأن الإسلام ثقافة مدينية بالأساس، مهدّدة من طرف البدو الغلاظ الجهلة. من المؤكد أننا بهذا العدد الضخم من الزوجات القادمات من الجبل نسير إلى الكارثة». ردّت الياسمين بأن لللاطهور ستكون أفيد للمسلمين لو تخلت عن كتبها القديمة، ووضعت يدها في العجين كالآخرين. ولكن لللاطهور رفعت الأمر إلى جدّي لأنها لم تتمالك نفسها من الغيرة وهي ترى النساء الأخريات عازمات على اللهو.

استدعى جدّي مبروكة والياسمين وطلب منهما أن تشرحا له سبب الخلاف، وبعد أن عرضتا الأمر أبانتا على أنهما ليستا غبيتين

رغم أصولهما القروية الجاهلة وبالتالي فهما لا تحترمان أقوال ابن خلدون. وعلى كل فهو مجرّد مورّخ «إنه يثرثر كما نفعل نحن جميعا» ذلك ما غمغمت به الياسمين التي حرصت على الحصول على معلومات عن ابن خلدون من فقيه الكتاب القرآني في الضيعة، قبل أن تذهب إلى المحكمة عندما علمت بأن جدّي سيستدعي المشاغبات. لقد كانتا مستعدّتين للتخلي عن مشروعهما لو أن لللاطهور حصلت على فتوى من القرويين تحرّم على النساء غسل الأواني في النهر، وحتى ذلك الحين ستتصرفان حسب مشيئتهما، وعلى كل فالنهر صنيعة الله وتعبير عن قدرته سبحانه وتعالى، وإذا كانت السباحة ذنبا، فهما مستعدّتان لتحمله غدا في يوم القيامة. تأثر جدّي بنطقهما وأنهى المقابلة وهو يقول: «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها» (سورة الإسراء، آية 14).

رفعت الياسمين عقيرتها بالغناء لتحتفل بانتصارها في المحاكمة «كل كبش يُعلّق من رجله»، دارى جدّي ابتسامته وانسحب بأسرع ما يمكن.

في الضيعة، كما هو الشأن في كل حريم، تخضع الأشغال المنزلية للتناوب، حيث تنقسم النساء إلى فرق صغيرة حسب استعدادهن واهتماماتهن وتتوزعن المهامّ. الفريق الذي يطبخ خلال أسبوع ينظف الدار في الأسبوع الثاني، ويحضر المشروبات في الأسبوع الثالث، ويغسل الثياب في الأسبوع الرابع، ويرتاح في الأسبوع الخامس. ونادرا ما تنكب كل النساء على عمل واحد خلال نفس الفترة باستثناء غسل الأواني حين انقلب إلى مرح في النهر. بعد اقتراح مبروكة تحوّل هذا العبء الممل (على الأقل خلال المصايف التي قضيتها بالضيعة) إلى استعراض مائي عجيب بممثلين ومشاهدين ومشجعين.

تنزل النساء إلى النهر وينقسمن إلى صفين، في الصف الأوّل

تراهن واقفات مرتديات كامل ثيابهن تقريبا والماء يغطيهن حتى الركبتين، أما الصف الثاني فمخصص لللائي يعرفن السباحة لأن التيار غادر أحيانا، كان الماء يغمرهن حتى الحزام، وكن لا يرتدين إلا أقمصتهن التي يلففنها حول وسطهن، رؤوسهن حاسرة حتى يستطعن مقاومةالتيار دون انشغال بإمكانية ضياع مناديلهن أو وشاحاتهن الحريرية المطرّزة. يتكلف الصف الأوّل بالتنظيف الأوّلي للأطباق والطناجر والطواجين حيث تحك بواسطة طين «تَدَقّهْ»*، بعدها يدفعن بها في الماء نحو الصف الثاني من أجل تنظيف آخر. وخلال ذلك الوقت تنتقل باقي الأواني في الماء من يد ليد لتخليصها من بقايا «تدقه». وبعدها تظهر مبروكة السبَّاحة الماهرة. لقد اختطفت من إحدى القرى القريبة من أگادير على المحيط خلال مرحلة السيبة، وقضت طفولتها وهي تتسلّق الصخور لترتمي في البحر،كانت تلك أسطورتها. كان لك الحق في أسطورتك الخاصة بضيعة الياسمين إذاما تدبّرت الأمر وحافظت على قدر من الواقعية ـ . لم تكن مبروكة تسبح كسمكة وتظل فترة طويلة تحت الماء فحسب، بل إنها أنقذت عدّة زوجات من الغرق المحقق، ولولاها لجرفهن التيار حتى القنيطرة، حيث يصب نهر سبو في البحر. وكان دورها في عملية غسل الأواني هو استعادة الكؤوس والطناجر التي تفلت من يد الأخريات حيث تقاوم التيار وتحملها إلى الضفة، وكلّما كانت تطفو على السطح وهي تحمل طبقاً أو طنجرة تستقبلها النساء بالتصفيق، أما «المذنبة» أي تلك التي أضاعت الآنية فكان عليها أن تستجيب لإحدى رغبات مبروكة في اليوم ذاته. وكلّما أخطأت الياسمين كانت مبروكة تطلب منها تحضير الإسفنج الذي تصنعه بمهارة. بعد غسل الأواني تتمّ إعادتها إلى الياسمين التي تسلّمها بدورها إلى كريشة، (تصغير كرش أي

* ـ خليط من الرمل والطين يجمع من ضفة النهر.

البطن) وهو اللقب الذي أطلقته النساء على محمد الغرباوي، سائقهن الوحيد والمفضل الذي يحظى بكل اهتمامهن.

كان كريشة غَرباويا من سهل الغرب بين فاس وطنجة، وكان يعيش مع زوجته زينة بالقرب من الضيعة. لم يغادر قريته قط ولذا كان يعتقد بأنها أجمل بلاد الدنيا فيقول: «من المستحيل أن تجد مكانا في العالم أجمل من الغرب»، وحين كانت زوجته تلكزه خفية لتنبيهه يعقب قائلا: «باستثناء مكة». كان كريشة طويل القامة قوي البنيان كأغلب سكان السهل، يرتدي دائما عمامة بيضاء تلفت الانتباه وسلهاما بنيا يضعه على كتفيه بأناقة. والحقيقة أنه كان يوحي بسلطة طبيعية لم يكن يملكها في الواقع، إذ لم يكن ليأبه لممارسة السلطة أو حماية النظام، كما أن تطبيق القوانين ومراقبة الآخرين كانا يبعثان في نفسه الملل إلى حدّ كبير. ومن ثمّ كان لطيفا ومقتنعا بأن أغلب مخلوقات الله تتوفر على قدر من الذكاء لكي تعمل وتتصرف بمسؤولية، ابتداءا من زوجته التي كانت لا تؤدّي من الأعباء المنزلية إلا القليل دون أن يستثير ذلك غضبه: «إذا كانت لا تحب الأشغال المنزلية كما يقول، لابأس في ذلك، ولن أطلقها من أجل هذا الأمر البسيط، سنتدبر أمرنا». لم يكن كريشة إنسانا مشغولا بالمعنى الكامل للكلمة، وعندما لا يسوق عربته تراه نائما أو منهمكا في الأكل. ولكنه كان يشارك، غالب الأحيان، في أنشطة النساء، وخاصة إذا ما كانت تستدعي حمل الأشخاص أو الأمتعة. بدون كريشة كانت عملية غسل الأواني في النهر مستحيلة، لأن أغلب الأواني كانت جدّ ثقيلة من النحاس أو الحديد أو الطين، وكان من المستحيل حملها من المطابخ إلى النهر دون مساعدة كريشة وعربته. وبما أنه لا يقاوم إغراء وجبة جيدة، كان بإمكانه أن يزعزع الجبل إذا ما وعد بطبق من كسكسه المفضل بالزبيب المجفف ولحم الحمام وقدر من البصل المعسّل.

كانت إحدى المهام الرّسمية المنوطة بكريشة هي نقل النساء إلى

الحمّام مرّة كل أسبوعين، كان الحمّام يوجد في قرية سيدي سليمان. حينذاك. التي تبعد بضعة كلمترات عن الضيعة، وكانت الرحلة في عربة كريشة مدعاة دائمة للمتعة. كانت النساء لا يفتأن يصعدن إليها أو ينزلن منها، ويطلبن منه التوقف كل دقيقتين «للتبول»، كان يعقب دائما بنفس الجواب الذي يفجر ضحكاتهن: «يا سيّداتي من المنصوح به أن تتبولن في السراويل. ليس المهمّ هو التبوّل بل ملازمة هذه العربة القديمة حتى نصل إلى سيدي سليمان». حين يصلن إلى الحمّام ينزل كريشة بتأن من كرسي القيادة، ويقف على الطوار وهو يعدّ النساء على أصابعه واحدة واحدة حين يدخلن إلى الحمّام «لا تذبن في البخار أيتها السيّدات، من فضلكن، أعوّل على حضوركن جميعا حين نعود هذا المساء».

آه، لم يكن الملل ليجد طريقه إلينا في ضيعة الياسمين! التي كانت تقول، وأنا أنتحب حين أتذكر العودة إلى فاس: «الصلة المباشرة بنهر مرتعش، والحقول التي تهتز لدى مداعبات النسيم والسماء التي تبتلع الآفاق، كل ذلك يوقف الحدود ويلغي الفوارق. على المرء أن يعدّد صِلاتِه بالطبيعة، والإنسان التعيس حقا هو الذي حرم من هذه العلاقة، مثل هؤلاء قد يقضي عليهم الخضوع. إلا أنّني لست خائفة عليك».

- 9 -

ضحكات على ضوء القمر



لم نكن ندري الساعة التي سنتناول فيها عشاءنا بضيعة الياسمين، وكانت هذه الأخيرة أحيانا تنسى بأن عليها أن تقدّم لي الأكل، وحين تتذكر ذلك في آخر لحظة تقنعني بالاكتفاء بالزيتون وكسرة من الخبز اللذيذ الذي تعجنه في الفجر. أمّا في حريمنا بفاس فتلك قصة أخرى! كنا نتناول طعامنا، في أوقات محدّدة ويستحيل علينا الحصول على كسرة خبز بين الوجبات، علينا أن نجلس في أماكن معينة ونتحلق حول واحدة من الموائد الأربع. يتحلق الرجال حول المائدة الأولى، أما الثانية فمخصصة للنساء ذوات الامتياز، في حين كانت الثالثة من أجل الأطفال والنساء الأقلّ أهمّية، الشيء الذي يعجبنا لأنه يعني بأن عمّتي حبيبة ستشاطرنا طعامنا. أمّا المائدة الرابعة فمخصصة للخدم وللمتأخرين دون اعتبار للسن أو الجنس أو المكانة، ونادرا ما كان هناك مكان شاغر حولها لأنها، الفرصة الأخيرة لللذين اقترفوا خطأ التأخر عن موعد الأكل.

أكره ما تكرهه أمّي هو الأكل في مواعيد محدّدة، ولذلك كانت تحث أبي باستمرار على أن يتخلّ عن هذه العادة حتى تختلي أسرتنا الصغيرة بنفسها. إن الوطنيين يناضلون من أجل التخلّي عن الحجاب وملازمة النساء للبيت، ولكنهم لم يكونوا ينبسون ببنت شفة حول حق الأزواج في الانفصال عن الوسط العائلي، والواقع أن أغلب

القادة كانوا يقيمون مع آبائهم، كانت الحركات الوطنية الذكورية تناصر تحرير المرأة، ولكنها لم تكن تقبل حينها بأن يعيش الآباء الشيوخ بمفردهم وأن يقيم الأزواج في بيوت منفصلة عنهم لأن الإجراءين معا منافيان للمواضعات المعمول بها.

أمّي هي آخر من يستيقظ في البيت، تحب تناول فطورها المتأخر الذي تعدّه بنفسها تحت نظرات جدّتي لللامهاني الساخطة، تخفق البيض وتدهن البغرير بالعسل والزبدة الطرية وتحضر الشاي. وعموما كانت تتناول فطورها حوالي الحادية عشرة في الوقت الذي تستعدّ فيه لللامهاني للوضوء من أجل صلاة الظهر. وبعدها بساعتين، أي عند وقت وجبة الغذاء، لاتستطيع ابتلاع لقمة واحدة من المائدة، وأحيانا تتخلّف عن الحضور وخاصة إذا شاءت إغاظة أبي لأن عدم الحضور مناف للأد ب ودليل على الأنانية.

إنها تحلم بالعيش منفردة مع أسرتها الصغيرة لذلك تقول مستنكرة: «من سمع منكم بعشرة طيور في عش واحد؟ ليس من الطبيعي العيش في مجموعة كبيرة كهاته إلا إذا كانت الغاية هي إتعاس الناس». وكان أبي لا يفتأ يردّد بأنه لا يدري شيئا عن عادات الطيور، ولكنه ضمنيا متفق معها، وموزع بين واجبه تجاه العائلة التقليدية ورغبته في إسعادها. لقد كان يحسّ بالذنب إذا خرق التضامن العائلي، وهو يعرف في قرارة نفسه بأن العائلة الممتدّة عموما والحريم خصوصا آيلان إلى الزوال. بل أكثر من ذلك يتنبأ بأننا خلال العشرين أو ثلاثين سنة المقبلة، سنصبح أفظع من النصارى الذين لايهتمون بآبائهم، والواقع أن معظم أعمامي الذين انفصلوا عن بيت العائلة لا يجدون وقتا لزيارة أمّهم لللامهاني باستثناء زوال الجمعة بعد الصلاة، كما أن الجميع يتنكر لكون أبنائهم لايقبّلون أيدي الكبار. والأفظع من ذلك هو أنهم جميعا كانوا يقيمون في البيت الكبير حتى وقت قريب، وأنهم غادروه إثر رفض زوجاتهم الحياة المشتركة، الشيء

الذي كان يبعث الأمل في والدتي.

عمّي كريم والد بنت عمّي مليكة هو أول من غادر العائلة، كانت زوجته شغوفة بالموسيقى تحبّ الغناء حين يرافقها بعوده إذ كان عازفا ممتازا، ولكنه نادرا ما يلبّي رغبتها في قضاء أمسية معها، لأن أخاه الأكبر أي عمّي عَلِيّا كان يرى بأن الغناء أو العزف على آلة موسيقية لا يلائم الرجال. وذات يوم ذهبت زوجة عمّي كريم مرفوقة بأبنائها إلى بيت والدها، وأقسمت أن لا تعود ثانية إلى البيت المشترك. رأى عمّي كريم، الذي كان مرح الطبع ومتضايقا من صرامة الحريم، في ذلك فرصة للانفصال عن العائلة، واعتذر بأنه يفضل إرضاء رغبة زوجته على تهديم بيت الزوجية. بعدها بفترة وجيزة سار أعمامي الواحد تلو الآخر في نفس الطريق، ولم يبق في البيت إلا عمّي عَلِيّا ووالدي الذي كان يقول دائما: «لن أغادر هذا البيت مادامت أمّي على قيد الحياة»، إذ أن ذهابه كان يعني نهاية العائلة الكبيرة.

بيد أن أبي الذي يكن كل الحب لزوجته يشعر بالتعاسة لعدم قدرته على تلبية رغباتها، ولذلك يقترح حلولا توفيقية كأن يضع تحت تصرّفها دولابا مليئا بالمؤونة في حالة ما إذا شاءت الأكل بمفردها، لأن أحد مشاكل الحياة المشتركة هو أنه ليس بإمكانك فتح ثلاجة عندما يراودك الجوع في أي وقت لأن الثلاجة لم تكن متوفرة في ذلك الحين ثم - وهذا هو السبب الرئيسي - لأنك مجبر في حياة الحريم أن تعيش على وتيرة العشيرة: وبالتالي يستحيل عليك الأكل حين ترغب في ذلك، لقد كانت لللاراضية زوجة عمّي تحتفظ بمفتاح الخزين، وإذا ما طلبت منك ذات مساء الأكلة التي ترغب فيها ليوم الغد، عليك أن تقبل بما تقرّره العشيرة بعد نقاش لا ينتهي. وإذا ما اختارت هذه الأخيرة طبق الكسكس بالحمّص والزبيب الجاف عليك أن تمتثل ولا أحد يأبه لك إذا كنت لا تحب الكسكس بهذه الطريقة، ومن ثمّ ليس لك خيار إلا الاكتفاء بأكل قليل من الزيتون والخبز دون

إثارة الانتباه، «يا له من وقت ضائع! تقول أمّي، هذه النقاشات التي لا تنتهي بشأن الأكل! كان من الأفضل للعرب أن يدعوا كلا يختار ما يشاء ابتلاعه. إن إجبار الجميع على تناول ثلاث وجبات في اليوم يعقّد الأمور. وبأي هدف؟ مقدّس أم لا، أجيبوني؟ طبعا ليس هناك هدف ما»، ثم تتابع كلامها لتقول بأن حياتها بكاملها عبث، في حين يفسّر لها أبي بسعة صدر بأنه لا يستطيع مغادرة البيت هكذا وإلا ستنهار كل التقاليد: «إننا نعيش أوقاتا صعبة، فالبلاد في يد المحتل الأجنبي، وثقافتنا مهدّدة ولم تبق لنا إلا التقاليد». كان هذا المنطق يفقد أمّي صوابها: «هل تعتقد بأننا سنجد القوّة اللازمة لطرد جيوش الاحتلال ونحن نعيش جميعا متراكمين في هذه الدور الكبيرة؟ وما هو الأهمّ في رأيك على كل حال؟ التقاليد أم سعادة البشر؟».

يضع هذا الردّ نهاية للنقاش، ويحاول مداعبة يدها ولكنها تسحبها فيعود إلى اقتراح حلوله التوفيقية. لم يزوّد أمّي بالمؤونة التي تحتاجها فحسب، ولكنه كان يأتيها بموادّ كثيرة تصنع منها الحلويات كالجوز واللوز والعسل والطحين والزيوت بأنواعها، وهكذا غدا بإمكانها تحضير أكلات خفيفة باستثناء اللحم والوجبات الكاملة، لأن ذلك يعني نهاية التنظيم المشترك. والواقع أن الاستفزاز الذي تمارسه بوجبات فطورها الفردية كان يشكل سبة كافية في وجه باقي العائلة.

من حين لآخر، تتدبر أمّي أمرها وتحضر وجبة غذاء أو عشاء كاملة، كان عليها أن لا تحيط عملها بالكتمان فحسب، بل أن تجد للأمر مبرّرا استثنائيا، ولذلك فإن خطتها غالب الأحيان هي تحويل الوجبة إلى نزهة ليلية على السطح. هذا العشاء المنفرد مع أمّي كان وسيلة أبي لتهدئتها بإرضاء رغبتها في الاختلاء به. كنا ننتقل إلى السطح كالرحل، نحمل الأفرشة والموائد والأطباق ومهد أخي الصغير. لم تكن الفرحة تسع أمّي، ولا أحد كان يجسر على الظهور لأن الكل كان يدرك بأنها تحاول الإفلات من الضيق الذي تستشعره

وسط الآخرين. كانت تحبّ بشكل خاصّ أن تثير أبي لكي يتخلّى عن تحفظه، ولذلك ما إن تصل السطح حتى تشرع في ارتكاب الحماقات كالأطفال، فيطاردها أبي عبر السطح وهي تتحدّاه: «إنك لم تعد قادرا على الجري يا سيدي! لقد تقدّم بك السن! ولم تعد تصلح إلا للجلوس والسهر على ابنك في المهد. يجب أن يعرف أهل فاس بأن الهادي المرنيسي لا يقدر على مطاردة امرأة فكيف بالأحرى القبض عليها!»، كان أبي يبتسم وينظر إليها وكأن الأمر لا يعنيه في شيء، ولكن ابتسامته سرعان ما تختفي وينطلق وراءها قافزا على الأفرشة والأطباق. أحيانا كانا يقيمان ألعابا نشاركهما فيها أنا وأختي وسمير (الوحيد الذي كان مسموحا له بالانضمام إلى لقاءاتنا على ضوء القمر)، إلا أنهما في أغلب الأحيان كانا ينسيان بقية العالم، فنصاب نحن الأطفال بنزلات برد لأنهما نسيا تغطيتنا حين غفونا على السطح تلك الأمسية.

بعد هذه الأماسي الرائعة كانت أمّي تتحلّى برقة غير اعتيادية طيلة أسبوع كامل، ثمّ تقول لي بأن علي أن آخذ بثأرها أيا كانت الحياة التي سأعيشها: «أريد لبناتي حياة حقيقية ومثيرة، وأن يرفلن في السعادة مئة في المئة، لا أكثر ولا أقل» كنت أرفع رأسي وأنظر إليها بجدّية وأسألها عما تعنيه بالسعادة مئة في المئة، لأنّني أودّ أن تعرف بأنّني سأبذل كل جهدي لتحقيقها. فسّرت لي بأن السعادة هي أن يحس الإنسان نفسه مرتاحا وخفيفا ومبدعا وراضيا ومحبا ومحبوبا ثمّ حرّا. إن الإنسان الشقي يعاني من حواجز تعوق تطلعاته وتدمّر مواهبه الداخلية. والمرأة السعيدة هي التي تستطيع ممارسة حقوقها، بما في ذلك حق التجوّل والابتكار، ومواجهة الآخرين وتحدّيهم دون خوف من ردود فعلهم تجاهها، وقد تكون مدينة في جزء من سعادتها لرجل يحب قوّة زوجته ويفخر بمواهبها. تشمل السعادة أيضا الحق في الاختلاء بالنفس، وفي الهروب من الآخرين، والانصراف إلى

التأمّل، أو قضاء اليوم وحيدا مستسلما للراحة دون أن تستشعر ذنبا أو تبحث عن أعذار. إن السعادة يا ابنتي هي أن نعيش مع الآخرين ونحس بوجودنا كأفراد وأننا لسنا معهم لمجرّد إسعادهم. السعادة هي التوازن بين ما نعطي وما نأخذ. بعدها سألتها عن نسبة سعادتها في الحياة، أجابتني بأنها تتغير حسب الأيّام، هناك أيّام لا تتجاوز هذه النسبة فيها خمسة بالمئة، وهناك أيّام أخرى تحقق فيها سعادتها الكاملة مئة في المئة، كتلك التي نمضيها على السطح مع أبي.

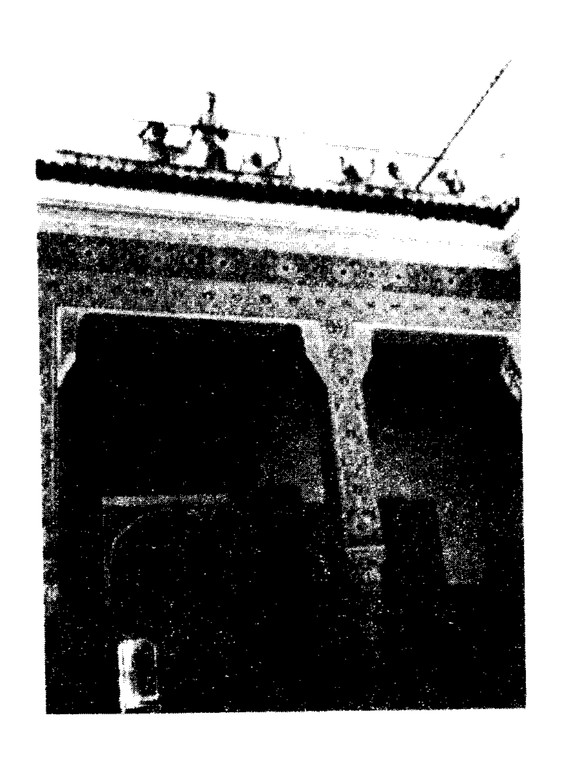
هذا الهدف من أجل الحصول على السعادة بنسبة مئة في المئة عبء ثقيل على الطفلة التي كنتها، وخاصة حين ألمس عناء أمّي في تحقيقه. كم من الوقت والطاقة كانا يلزمانها لكي تحصل على الحق في تلك الأمسيات على ضوء القمر، حيث يغدو بإمكانها الجلوس إلى جانب أبي والهمس في أذنه ووضع رأسها على كتفه! كان ذلك يبدو لي انتصارا حقيقيا لأنها كانت تحضر للجلسة طيلة أسبوع كامل، دون الحديث عما يستلزمه نقل الأكل والأمتعة. كيف لا يتأثر الإنسان بهذا الجهد والإصرار الضروريين للحصول على سويعات من السعادة؟ على الأقلّ غدوت أعرف بأن ذلك ممكن وسأحاول الوصول إليه. «إن الزمن سيغدو أقلّ صعوبة على النساء يا ابنتي. ستتلقيان أنت وأختك تعليما جيدا، وستتجوّلان في الشوارع والحدائق وستكتشفان العالم. أريد أن تكونا متحرّرتين وسعيدتين، أريدكما مضيئتين كالقمر، أودّ أن تكون حياتكما سلسلة من الأفراح الهنيئة. مئة في المئة من السعادة، لا أكثر ولا أقل».

ولكن أمّي تفقد صبرها فجأة أمام إلحاحي على معرفة التفاصيل: «عليك أنت أن تجدّي! إننا ننمّي عضلات السعادة بالطريقة التي ننمّي بها العضلات التي تمكننا من المشي أو التنفس. هل تعتقدين بأن عملية التنفس سهلة؟» وبالتالي كنت أجلس كل صباح على العتبة أنظر إلى الساحة الخالية وأحلم بمستقبل رائع «هذه السلسلة من الأفراح

الهنيئة». على الإنسان ألا يتخلّى أبدا عن الأمسيات الرومانسية في السطح على ضوء القمر، وأن يدفع بمن يحب إلى نسيان الضغوط الاجتماعية ولولمجرّد ليلة واحدة، وأن يستلقي ويضحك وينظر إلى القمر ويده تحضن يد من يحبه... قلت لنفسي هذه طريقة رائعة لتنمية عضلات السعادة. ابتكار ليالي تغمرها الرقة، حين تمتزج الضحكات بنسائم الربيع.. ولكن مثل هذه الليالي كانت نادرة أو على الأقلّ كانت تبدو كذلك.

- 10 -

قاعـة الرجـال



المشكل عندنا هو أنه كان من السهل إضاعة فرصة التسلية وارتكاب الحماقات واللهو، لم تكن هذه الفرص منتظرة إلا إذا سعت إليها بنت عمّي شامة وعمّتي حبيبة، وحتى في هذه الحالة كانتا تصادفان صعوبات عدّة، ذلك أن حلقات حكي عمّتي حبيبة ومسرحيات شامة كانت تعرض بالضرورة في الطوابق العليا، ولم يكن بالإمكان إطلاقا الاستمتاع حقا بها في وسط الدّار الذي كان مكانا عموميا. ففي الوقت الذي يحلو فيه الجوّ ويسود المرح، يصل الرجال ليتحدّثوا عن مشاريعهم ويخوضوا في مناقشات مهنية، أو يستمعوا إلى الراديو ويعلقوا على الأخبار. يشرع الصغار في لعب الورق، أما الأكبر سنا فيمارسون لعبة الشطرنج، وكنا نحن مجبرين على إخلاء المكان. كل تسلية ذات قيمة تتطلب التركيز والصمت حتى يمارس قائد الحفل سحره، سواء تعلّق الأمر بالحاكي أو الممثلين.

من المستحيل بعث هذا السحر في وسط الدار التي يرتادها عشرات الأشخاص طيلة النهار، يثبون من حجرة لأخرى، أو ينبثقون من الدرج أو يتنادون من الطابق السفلي إلى الأعلى. من المستحيل أيضا بعث أي سحر حين يتحدّث الرجال في السياسة، أو يستمعون إلى الراديو، أو يقرؤون الصحف الوطنية والدولية. كانت نقاشات الرجال دائما مشحونة، وإذا ما استمع الإنسان إلى ما يقولون يخيل إليه بأن نهاية العالم وشيكة. تقول أمّي بأننا لو صدّقنا الراديو

وتعليقات الرجال، لكانت الكرة الأرضية قد اختفت منذ زمن بعيد.

يتحدّثون عن الألمان، جنس مسيحي سمعنا به أخيرا ضرب الفرنسيس والانجليز علقة، كما يتحدّثون أيضا عن قنبلة أطلقها الأميريكيون على اليابان، وهم شعب آسيوي قريب من الصين على بعد آلاف الكيلمترات من مكة. لم تتسبب تلك القنبلة في مقتل آلاف الأشخاص فحسب، ولكنها محت غابات بأكملها من على وجه الأرض. أغرقت الأخبار المتعلقة بهذه القنبلة أبي وعمّي عليا وأبناء أعمامي الشباب في متاهات من اليأس، ذلك أن النصارى الذين أطلقوا قنابلهم على الآسيويين البعيدين عنهم لن يتوانوا عن ضرب العرب الذين تفصلهم عنهم مسافة أقلّ.

كنت أنا وسمير شغوفين بنقاشات الرجال السياسية، لأنه كان مسموحا لنا حينها بالدخول إلى قاعتهم والانضمام إليهم، كان أبي وعمّي يبدوان مرتاحين في جلستهما وسط الشباب، أي مجموعة المراهقين والعزاب الذين كانوا يقيمون في البيت. وكثيرا ما كان أبي يمزح معهم بشأن بذلاتهم الغربية الضيقة، وهو يقول بأن عليهم أن يأتوا بالكراسي ليجلسوا عليها، والكل كان يكره الكراسي الغربية لأن الفراش المغربي مريح للغاية. كنت أجلس في حجر والدي، وكان عمّي عليا يجلس القرفصاء على الفراش الأكبروهو يرتدي جلبابه وعمامته البيضاوين، ويحمل ابنه سمير، الذي يرتدي «شورتا» انجليزيا، على ركبتيه. كنت ألتصق بوالدي في فستاني الفرنسي الجميل الأبيض والقصير جدّا، المزين بأشرطة من الساتان في الخصر. كانت أمّي تصرّ على أن تلبسني آخر صيحات الموضة الغربية أي فساتين قصيرة ذات أشرطة ملوّنة، وأحذية سوداء لامعة، وبما أنها تغضب إذا ما اتسخ الفستان أو تشابكت أشرطته، فقد كنت أرجوها أن تدعني ألبس سروالي المريح، أو أي زي تقليدي آخر لا يتطلب كل ذلك الحرص. ولكنها لم تكن تسمح لي بارتداء القفطان إلا يوم

الأعياد تحت إلحاح أبي الشديد، لأنها مصرّة على أن تراني متحرّرة من التقاليد: «إن مشاريع المرأة تنعكس على طريقتها في اللباس، إذا كنت تودين أن تكوني عصرية عبّري عن ذلك من خلال ما ترتدينه. وإلا ستجدين نفسك محاصرة وراء الأسوار. من المؤكد أن جمال القفطان لا يعادَل، ولكن الفساتين الغربية رمز للعمل الذي تتلقى عنه المرأة مقابلا». وهكذا ربطت في ذهني الصغير القفطانَ بترف الأعياد والعطلة والطقوس الدينية وروائع أسلافنا، أما اللباس الغربي فقد ارتبط لدي بالمشاريع العملية والأعباء المهنية المملّة.

كان والدي يجلس في القاعة المخصصة للرجال مقابل عمّي على الفراش المجاور للراديو، حتى يتمكن من ضبط المحطّات التي يشاء الاستماع إليها، وكان الرجلان يرتديان جلبابين، أحدهما شفاف من الصوف الرقيق، الذي صنع بمدينة وزان المشهورة بنسيجها، أمّا الجلباب الداخلي فهو من ثوب متين، كان والدي يضع عمامته الشاميةالصفراء ذات الثوب المطرّز، وهي من الأشياء النادرة التي يخرج فيها عن الزي المغربي الأصيل، لقد سمعته يتوجه ذات يوم إلى أبناء عمّي الجالسين حوله وهو يمازحهم: «ولكن ما هو مستقبل زيّنا التقليدي وأنتم جميعا ترتدون زيّاً كـ «رودولوف ڤالنتينو؟» والواقع أنهم كانوا جميعا يرتدون البذلات الأجنبية، رؤوسهم حاسرة وشعرهم قصير، يشبهون الجنود الفرنسيين الواقفين في زاوية الدرب إلى حدّ كبير. «سننجح لامحالة يوما في طرد الفرنسيين، لكي ندرك بعدها بأننا جميعا نشبههم» حسب قول عمّي.

من ضمن الشباب الذين يرتادون قاعة الرجال هناك إخوة سمير الثلاثة: زين، جواد وشكيب، إضافة إلى أبناء كل عمّاتي وبنات أعمامي اللائي فقدن أزواجهن أو طلقن وقدمن للإقامة معنا. أغلبهم يدرس في المدارس الحرّة التي أنشأها الوطنيون، أما البعض منهم وخاصة المتفوّقون فكانوا يتردّدون على ثانوية أبناء الأعيان، «كوليج

مولاي ادريس» التي تبعد عن دارنا بعدّة أمتار، وكانت الثانوية مؤسسة فرنسية تهيء أبناء العائلات الكبيرة للمراكز الهامّة. مستوى تفوّق التلاميذ بها رهين بمعرفتهم اللغة العربية والفرنسية والتاريخ، إذ كان على الشباب العربي إتقانُ ثقافتين إذا شاء التغلب على الغرب. كان زين الأكثر موهبة من سائر أبناء أعمامي، يجلس عادة إلى جانب عمّي ويفتح الصحف الفرنسية. إنه شاب جميل أسمر ذو عينين واسعتين وخدين بارزين وشاربين قصيرين، يشبه رودولوف ڤالنتينو الذي كنا نراه في سينما ـ بوجلود ـ إلى حدّ كبير، وهي سينما كانت تعرضُ دائما فيلمين أحدهما مصري بالعربية والآخر أجنبي بالفرنسية. والمرة الأولى التي شاهدنا فيها رودولف ڤالنتينو في أحد أفلامه أنا وسمير، ألفناه بسرعة واعتبرناه فردا منا لشبهه الكبير بابن عمّي زين. الزين في دارجتنا هو الجمال وكنت مبهورة بشخصية ابن عمّي وأناقته، إنه مثال للرجال الذين يثيرون إعجابي، أقرب إلى الآلهة منهم إلى البشر، يسبحون بين ثقافتين وينتقلون بينهما في سهولة ويسر. كنت أنبهر كالجميع لإتقانه اللغة الفرنسية، التي لم يكن أحد منا قد درسها بعد، وكنا نستمع إليه باحترام حين يأذن له عمّي بقراءة الجرائد الفرنسية.

كان يشرع بقراءة العناوين الرئيسية ليعود إلى المقالات التي يختارها والدي أو عمّي بالصدفة أحيانا كثيرة، لأن معرفتهما بالفرنسية جدّ محدودة، بعدها يقرأ بصوت مرتفع قبل أن يقدّم ملخصا بالعربية دون أن يخلطه بتعاليقه الخاصة، حتى يتفادى الخطأ الذي يقترفه أغلب أبناء أعمامي الآخرين، إذ أن والدي وعمّي كانا يراقبان محدّثهما، ويميزان الإضافات التي يختلقها من خلال نبرته أو تردّده، فهما لم يكونا ليثقا بمن يخلط بين القراءة والتأويل، ومن هنا اكتسب زين مكانته السامية.

طريقته في التحدّث بالفرنسية تثير فيَّ القشعريرة وخاصة حين ينطق حرف r، لأن نطقي له كان جدّ سيء وخاصة في اللغة

العربية، ولذلك كانت أستاذتي لللا الطام غالبا ما تقاطعني لدى قراءتي للقرآن لتذكرني بأن أجدادنا ينطقون حرف الراء دون لثغة، وتناديني قائلة: «يا فاطمة المرنيسي، لماذا تعذبين هذه الحروف؟ ما ذنبها؟». كنت أتوقف وأستمع إليها بأدب وأقسم بأن أحترم الأسلاف وأجمع كل نفسي في محاولة شجاعة ويائسة للنطق براء صحيحة، ولكن أنفاسي تنحبس بشكل فظيع، في حين أنه كان بمقدور زين الموهوب الجميل التحدّث بالفرنسية، والنطق ألف مرّة بهذا الحرف دون أن يبذل مجهودا على ما يبدو، بل أكثر من ذلك فإنه كان يحوّل الغين الفرنسية إلى راء عربية.

كنت أركّز النظر فيه آملة أن ينقل لي هذا التركيز قليلا من موهبته أو جماله السحري، أو من يدري! قدرته الغريبة على النطق بالراء. لقد كان زين يشتغل كثيرا ليغدو الوطني المثالي الحديث أي المطلع اطلاعا واسعا على تاريخ العرب وأساطيرهم وشعرهم، إضافة إلى كونه يتكلم الفرنسية لغة أعدائنا، حتى يفك رموز صحافة النصارى ويفشل مخططاتهم. وقد نجح في ذلك إلى حدّ الروعة. رغم أن تفوّق النصارى المحدثين واضح في العلوم والرياضيات، كان الوطنيون يشجعون الشباب على قراءة أعمال ابن سينا والخوارزمي بهدف التعرف على طريقتهم في التفكير فحسب، المفيد دائما أن نعرف بأن أسلافنا اتسموا بالدقة وسرعة البديهة. كان أبي وعمّي يريان في زين أحد أبناء الجيل المغربي الجديد الذي سينقذ البلاد ويدعوان له في جامع القرويين عندما يؤمّانه لصلاة الجمعة.

غالبا ما يجتمع أهل نفس الحي في المسجد، ويعودون معا وهم يتحدّثون ويتبادلون الرأي بشأن المستجدّات. كان ابن عمّي زين والشباب الآخرون يذهبون سيرا على الأقدام في حين كان الكبار يتبعونهم على بعد أمتار، وكانوا أحيانا راجلين أو راكبين البغال. كنت وسمير نفرح عندما يركب والدانا البغال، لأن ذلك يعني أننا

سنصاحبهما. تردّد أبي في اصطحابي معه أوّل الأمر، ولكن عمّي طمأنه بأنه لا مضرّة في أخذ طفلة إلى المسجد، ألم يرو أحد رواة الحديث قوله: «بينا نحن جلوس في المسجد إذ خرج علينا رسول الله (صلعم) يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الرّبيع وأمها زينب بنت رسول الله (صلعم) وهي صبية يحملها فصلى رسول الله صلعم وهي على عاتقه يضعها إذا ركع ويعيدها إذا قام حتى قضى صلاته يفعل ذلك بها»-1-.

كل مرّة كنت أتشبت فيها بجلباب أبي وأنا أطلق صرخات حادّة حين يشرع في ارتداء ملابسه لصلاة الجمعة، كانت أمّي التي تغار من حريتي في التنقل وفي مصاحبة أبي إلى الأماكن العامّة التي لا ترتادها، لا تدع الفرصة تمرّ دون أن تسخر منه وهي تراه يخضع لنزواتي: «إذا ما دللت هذه البنت يا عزيزي الهادي وتركتها تفعل ما تشاء، ستصر يوما على اصطحابك إلى المرحاض».

التنازل الوحيد الذي يقدّمه الشباب يوم الجمعة لصالح التقاليد هو ارتداؤهم للطربوش الوطني. وعلى كل فإن التقليد والحداثة كانا منسجمين في زي الشباب، وكذا اجتماعات الرجال «الصحفية» عندنا. فبعد الاستماع إلى الأخبار بالفرنسية والعربية في الراديو، كان أبي يطفئه ليستمع إلى الشباب وهم يقرؤون الصحف المكتوبة ويعلّقون عليها.

يتمّ تقديم الشاي ويُفرض علينا الصمت أنا وسمير، ولكنني غالبا ما أميل نحو أبي لأهمس في أذنه: «من هم الألمان؟ من أين يأتون؟ ولماذا هم أقوى من الفرنسين؟ وأين يختفون بما أن الإسبان في الشمال والفرنسيين في الجنوب؟». كان أبي يعدني دائما بالجواب فيما بعد حين نكون وحدنا، وكان يلتزم بوعده غالب الأحيان، ولكنني ما كنت أفهم شيئا ولا سمير رغم كل الجهود التي نبذلها لإعادة تركيب قطع اللعبة.

- 11 -

الحرب كما تبدو
من وسط الدّار



الألمان مسيحيون، إنه أمر أكيد، يعيشون كالباقين فيما نسمّيه بلاد الثلج. لم ينعم الله بنعمه على النصارى لأن مناخهم بارد وقاس، الشيء الذي يفقدهم البهجة. وحين تغيب الشمس عدّة شهور يغدون قساة، ويشربون الخمر بحثا عن الدفء ومشروبات أخرى ذات مفعول قوي يكسبهم صفة العدوانية، فيبحثون عن طرق للإيقاع بالآخرين. إنهم يتناولون الشاي أحيانا كباقي خلق الله، ولكن شايهم هو الآخر مرّ ومختلف جدّا عن شاينا نحن المعطر بالنعناع. يقول ابن عمّي زين الذي ذهب إلى انجلترا بأن شايهم هناك مرّ إلى حدّ يدفعهم إلى خلطه بالحليب، وقد حاولت أنا وسمير وضع الحليب مرّة في شاينا المنعنع فلم نستطع شربه. وبالتالي لاداعي للدّهشة في أن يكون النصارى أشقياء يميلون إلى الحرب والعدوانية.

وأيا كان الأمر، يبدو أن الألمان جهّزوا في سرية تامة منذ سنوات جيشا كبيرا، وذات يوم احتلّوا فرنسا وشرعوا في إصدار الأوامر إلى الناس كما يفعل الفرنسيون هنا بفاس. ورغم ذلك كنا محظوظين لأن الفرنسيين لم يحبّوا مدينتنا القديمة، فبنوا مدينة جديدة أقاموا بها. حين طلبت من سمير أن يشرح لي ما كان سيحدث لو أن المدينة التي شيدها أسلافنا نالت إعجاب الفرنسيين، أجابني بأنهم كانوا سيطردوننا ويحتلون بيوتنا. ولكن هؤلاء الألمان الغريبي الأطوار

لم يكونوا يريدون النيل من الفرنسيين فحسب، بل أعلنوا الحرب على اليهود أيضا، حيث أجبروهم على أن يرتدوا شيئا أصفر يميزهم إذا ما غادروا منازلهم، كما يجبر المسلمون النساء عندنا على وضع الحجاب لنفس الهدف.

لماذا يودّ الألمان النيل من اليهود؟ لا أحد في وسط الدار كان بإمكانه تقديم الجواب، كنت وسمير نطرح الأسئلة دون توقف ونتنقل خلال الظهيرة الهادئة بين مجموعات النساء المنهمكات في التطريز، إلا أننا لم نكن نحصل إلا على افتراضات، تقول أمّي: «قد يكون الأمر كما هو عليه بالنسبة للنساء عندنا، فلا أحد يدري السبب الذي يجعل الرجال يجبروننا على وضع الحجاب، لاشك أنها مسألة الاختلاف، ذلك أن الخوف من الاختلاف يجعل الناس يتصرّفون بطريقة غريبة، ومن المحتمل أن يستشعر الألمان الأمان فيما بينهم، إنهم كالرجال الذين يصيبهم الاضطراب بمجرّد ما يقع بصرهم على امرأة في المدينة. وإذا ما أصرّ اليهود على التشبت بتميزهم فإن ذلك يفقد الألمانيين توازنهم. إن العالم أحمق!».

في مدينة فاس، يقيم اليهود في حيّهم الذي يسمّى «الملاح»، وهو يبعد عنا بحوالي نصف ساعة مشيا على الأقدام، وهم كباقي الناس في ثيابهم الطويلةالتي تشبه جلبابنا، يضعون القبعات عوض العمامة، ذلك هو الاختلاف الوحيد. يشرفون على أعمالهم، ويقيمون في الملاح حيث يصنعون مجوهرات رائعة، أو تحضر نساؤهم مصبّرات الخضر المخلّلة اللذيذة. حاولت أمّي هي الأخرى أن تفعل نفس الشيء بالخيار والباذنجان الصغير، ولكنها لم تفلح وأقرّت بأنهم يقرؤون تعاويذ سحرية لصنع مخلّلاتهم ما في ذلك شك. لليهود صلواتهم وإلههم وكتابهم المقدّس الذي يعلّمونه لأطفالهم، كما توجد في الملاح بيعة (كنيساً) يقصدونها للتعبّد كما نقصد نحن المساجد. إننا

جميعا نؤمن بنفس الأنبياء والرسل ماعدا حبيبنا محمد عليه الصلاة والسلام.

لم أتعرّف على كل الأنبياء والرسل، لأن الأمر يغدو معقدا ولأنني أخشى ارتكاب خطإ. تقول أستاذتي لللاالطام بأن الأخطاء في المسائل الدينية قد تدخلك جهنم لأنها تصحيف، وبما أنّني عازمة على دخول الجنة، فإنّني أتلافى الأخطاء التي تمنعني من دخولها. هناك شيء مؤكد وهو أن اليهود عاشوا مع العرب منذ العصور السحيقة، وأن الرسول «ص» لم يكن يعاديهم في بداية دعوته، ولكنهم فعلوا أشياء قبيحة فقرّر الفصل بينهم وبين المسلمين إذا ما تواجدوا في مدينة واحدة، بحيث يقيم كل منهم في حيه الخاصّ به. اليهود منظمون وحسّهم الجماعي متطوّر عن حسّنا: «الغني لديهم لا ينسى الفقير» كما تقول عمّتي حبيبة. إنهم في الملاح يولون الفقراء عنايتهم، كما أن جميع أطفالهم يتردّدون على مدرسة الرابطة الإسرائيلية حيث يسود انضباط صارم كما هو الشأن لدى لللاالطام.

لم أكن أفهم ما كان يفعله اليهود في ألمانيا، كيف انتقلوا من الملاح إليها. ما علاقتهم بأوروبا وهم الذين عاشوا دائما مع العرب-1- يخافون برد بلاد الثلج ويفضلون عليه المناخ الحارّ، ما هو السر في كل ذلك؟ ما كان بإمكان أحد أن يجيبني على هذه الأسئلة، ويوضح لي الأمور، لأن الكبار أنفسهم يجهلون كيف انتقل اليهود من ملاحهم إلى أوروبا.

لم تسعفني لللا الطام هي الأخرى بجواب، لأنها كانت تتحدّث عن الأندلس وتعايش العرب واليهود فيها خلال قرون، وهي تلقننا القرآن إلى حدّ اختلطت معه علي الأمور، فبت أظن بأن تاريخ الأندلس مذكور في القرآن خاصة وأنها لم تكن تفسّر لنا ما نحفظه من سور، بل تفرض علينا حفظها عن ظهر قلب.

يجلس كل منا في مكانه واللوحة على حجره ويقرأ بصوت مرتفع ويعيد الكرة حتى تعلق الايات بذهنه، وكل يوم أربعاء كنا نستظهر ما حفظناه أمام لللا الطام، كان عليك أن تضع اللوحة في حجرك مقلوبة تحت تهديد أهداب سوطها حتى تستظهر ما حفظته، وكانت لللا الطام تبتسم إذا كان الحفظ جيدا. بعد يوم الاستظهار كانت أيّام الخميس والجمعة أيّام عطلة تقريبا، رغم أننا كنا خلالها نمحو الألواح وننسخ آيات أخرى. وخلال ذلك لم تكن لللا الطام تقدّم شروحا وتقول بأن ذلك لن يجدي شيئا: «اكتفوا بحفظ لوحاتكم عن ظهر قلب ولن يطلب منكم أحد رأيا». إلا أنها كانت كثيرا ما تتحدث عن فتح الأندلس، فاختلط عليَّ الحابل بالنابل، واعتقدت بأن ذلك مذكور في القرآن، وحين عرفت لللا الطام بالأمر صرخت بأنه تصحيف، واستدعت والدي الذي شرح لي المسألة بعد زمن ليس باليسير.

أوضح لي بأنه من الضروري لفتاة تريد أن يكون لها مكان في العالم الإسلامي معرفة بعض التواريخ ويوميات أهل الكتاب على اختلافها، وأن الأشياء ستتوضح بسهولة، ثم أخبرني بأن الوحي انتهى بوفاة الرسول «ص» في السنة الحادية عشرة من الهجرة التي تقابل سنة 632 في التاريخ المسيحي. طلبت من أبي أن يسهّل علي الأشياء فلا يحدّثني عن يومية أخرى غير اليومية الإسلامية، لأن اليومية المسيحية بالغة التعقيد بالنسبة لي، ولكنه أجاب بأن الفتاة الذكية التي رأت النور على ضفاف المتوسط يجب أن تكون قادرة على الإبحار في يوميتين أو ثلاث يوميات لأهل الكتاب، و«الانتقال من إحداهما إلى الأخرى يصبح آليا إذا ما شرعت في تعلّمها منذ الصغر»، ولكنه رغم ذلك قبل بإغفال اليومية اليهودية حينها، والتي كانت أقدم من الأخريات، حيث كان يصيبني الدوار لمجرد التفكير في المسافة الزمنية التي تعود بك إليها.

وأخيرا، ولنعود إلى ما كنا فيه، فتح العرب الأندلس إذن بعد

حوالي قرن من وفاة الرسول «ص» سنة 91 هـ، ولذلك لا نجد في القرآن ذكرا لهذا الفتح ولكن: «لم تتحدّث لللا الطام عن ذلك باستمرار؟». أجابني والدي بأن ذلك يعود بدون شك إلى أن أصلها أندلسي، إن اسمها العائلي «سباطة» اسم اسباني في الأصل - Zappata - ، وأبوها كان حتى وقت قريب يحتفظ بمفتاح دارهم في إشبيلية: «إنها تحن إلى أرضها كما يقول أبي، وقد أمرت الملكة إيزابيلا بقتل معظم أفراد عائلتها». أضاف بأن اليهود والعرب أقاموا في الأندلس سبعة قرون بعد أن هزمت الدولة الأموية النصارى وأقامت خلافة عاصمتها هي قرطبة حسب أقوال أبي أو ربما غرناطة أو إشبيلية؟ ولم تكن لللا الطام تذكر مدينة دون أن تذكر الأخريات، ورغم أنني كنت متيقنة من أن لكل بلد عاصمة واحدة فحسب، ظننت أنه كان من حق الناس في الأندلس الاختيار بين عدّة عواصم. والواقع أن لاشيء كان عاديا بما في الكلمة من معنى في إسبانيا ابتداءا من اسمها إذ أن الأمويين عوضوا اسمها بالأندلس.

كان الخلفاء الأمويون حسب لللا الطام مجموعة من الناس المنغمسين في اللهو، انصرفوا إلى تشييد القصور الفخمة كقصر الحمراء وصومعته العجيبة «الخيرالدا»، وبما أنهم كانوا يريدون إظهار قوتهم للعالم فقد شيّدوا صومعة شبيهة بها في مرّاكش هي الكتبية، لقد تصرّفوا كما لو أن الحدود غير موجودة بين افريقيا وأوروبا: «الجميع يحلم بتوحيد هاتين القارتين كما يقول أبي، وإلا لماذا يرابط الفرنسيون ببابنا الآن؟» وإذن فقد استمتع العرب واليهود بحياتهم هناك في الأندلس خلال سبعة قرون، يقرؤون الشعر ويحلمون بالنجوم من حدائقهم الغناء التي تكسوها الياسمين وأشجار البرتقال، التي كانوا يسقونها بنظام بالغ التعقيد. كانوا يحبون الإبحار بين اللغات وينتقلون بين الثقافات والديانات بمرونة عجيبة إن لم نقل «لاواعية» حسب أبي. كانوا متسامحين إلى حدّ أن الواحد منهم لا يعرف ديانة جاره،

وكانوا يغيّرون العقائد كما يغيّرون القفاطين. لا! حقا، كانت الأندلس غريبة! يصعب تدريسها لطفل لأن الكبار أنفسهم يصابون بالدوار لدى سماع أخبارها.

وعلى كل فقد غابت الأندلس نهائيا عن ذهن أهل فاس حتى اليوم الذي استيقظوا فيه على ضجيج الأندلسيين وهم يفرون بالمئات صارخين وحاملين مفاتيح دورهم، مطاردين من طرف ملكة مسيحية شرسة تسمّى إيزابيلا الكاثوليكية، لقد ضربتهم علقة وقالت لهم: «إمّا أن تصلّوا مثلنا أو نرميكم إلى البحر». والواقع أنها لم تمنحهم مهلة الإجابة ورمى جنودها بالجميع إلى البحر. سبح اليهود والعرب معا حتى طنجة وسبتة (باستثناء أولئك الذين كان لهم حظ العثور على سفينة)، وقصدوا فاس ليختبئوا فيها. حدث ذلك منذ أكثر من خمسة قرون، ومن حينها غدت لنا في فاس جالية أندلسية تقيم وسط المدينة بالقرب من مسجد القرويين، وكذا حي يهودي شاسع هو الملاّح تفصله عن الأوّل مئات من الأمتار.

ولكن ذلك لا يشرح البتة وجود اليهود في ألمانيا، وبعد عدّة نقاشات توصّلت أنا وسمير إلى أن إيزابيلا الكاثوليكية، ربّما صرخت في وجه اليهود الذين اتخذت طائفة منهم وجهة خاطئة قادتهم إلى الشمال، فوجدوا أنفسهم في بلاد الثلج، ثمّ أن الألمان الذين كانوا يدينون بالمسيحية كالملكة المذكورة، طردوهم لأنهم يصلّون بطريقة مخالفة عنهم. ولكن عمّتي حبيبة قالت بأن هذا التفسير غير صائب لأن الألمان يحاربون الفرنسيين وهم مسيحيون مثلهم، الشيء الذي وضع حدّا لمزاعمنا.

كان من المستحيل علينا تفسير الأحداث الجارية في بلاد الثلج بأسباب دينية، وكنت سأقترح على سمير أن نترك جانبا مسألة اليهود ونعود إليها في وقت لاحق بعد أن نكبر وننضج، إلا أن ابنة عمّي

مليكة قدمت شرحا منطقيا ولكنه مرعب. إن الحرب تتعلّق بلون الشعر! فالشعوب ذات الشعرالأشقر تحارب الشعوب ذات الشعر الأسود! يا للحمق! وفعلا كان الألمان شُقْرًا فارعي الطول، في حين أن الفرنسيين كانوا سُمْرًا قصيري القامة. وقد وجد اليهود المساكين أنفسهم محاصرين بين الإثنين حين ضَلّوا عن الطريق وقصدوا الشمال فرارا من الملكة إيزابيلا، كانوا في منطقة حرب وكان شعرهم أسود، ولم يكونوا ينتمون إلى أي معسكر من الإثنين. وهكذا كان الألمان الأقوياء يحقدون على ذوي العيون السوداء والشعر الفاحم.

أصبت بالرعب أنا وسمير، سألنا ابن عمّي زين عن مدى صحة ما قالته مليكة فأخبرنا بأن الحق معها. كان هاي هتلر. وهذا هو اسم ملك الألمان. يكره الشعر والعيون السود، ويطلق قنابله على كل الشعوب التي تتسم بهذه الصفة، ولم تكن هناك إمكانية للإفلات منه عبر البحر لأنه كان يطارد بغواصاته كل من يلوذ بالفرار. نظر سمير إلى أخيه ووضع يديه على شعره الفاحم وكأنه يريد إخفاءه وقال: «ولكن هل تعتقد بأن الألمان سيتوجهون نحو الجنوب ويتقدّمون إلى فاس بعد أن يسحقوا الفرنسيين واليهود؟» أجاب زين إجابة غامضةوقال بأن الجرائد لا تتحدّث عن مخطّطات الألمان على المدى الطويل.

في ذلك المساء، رجا سمير أمّه أن تطلي شعره بالحناء حتى يحمرّ عندما نذهب إلى الحمّام. أما أنا فقد حزمت شعري بأحد مناديل أمّي، وعندما انتبهت صرخت في وجهي قائلة: «لا تغطي شعرك أبدا! أتسمعين؟ إنّني أصارع من أجل إزالة الحجاب وأنت تعودين إليه! يالها من فظاعة!» شرحت لها مشكل اليهود والألمان والقنابل والغواصات، ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قيد أنملة وقالت: «حتّى وإن طاردك هتلر هذا، عليك أن تواجهيه ورأسك حاسر، لا فائدة من تغطية الرأس والاختباء. والمرأة لا تحلّ مسائلها بالاختفاء بل على

العكس من ذلك تغدو ضحية مستهدفة. لقد عانيت كثيرا أنا وجدّتك من حكاية الأقنعة والحجاب، ونحن نعرف بأن لا فائدة ترجى من وراء ذلك. أريد أن تمشي بناتي في أرض الله الواسعة ورأسهن مرفوع وهن ينظرن إلى النجوم».

بعدها نزعت منّي المنديل، وتركتني مجرّدة من كل دفاع، في مواجهة جيش لا مرئي يطارد أناسا ذوي شعر أسود.

- 12 -

اسمهان، الأميـرة الفنانـة



ما إن يغادر الرجال البيت في الزوال أحيانا حتى تهرع النساء إلى الراديو، ويفتحنه بواسطة مفتاحهن السري، وتنطلقن في بحث متلهف عن الموسيقى والأغاني العاطفية. كانت شامة هي الخبيرة لأنها الوحيدة التي تستطيع قراءة التوجيهات الأجنبية ذات الحروف الذهبية المرسومة على الإطار المثير، أو ذلك ما كنا نعتقده على كل حال. كان الرجال يديرون الأزرار بحركات هادئة ودقيقة، ويفهمون دون عناء حسب ما يبدو، العلامات السحرية. ورغم أن شامة تعلّمت الحروف الهجائية الفرنسية، إلا أنها كانت عاجزة عن فك رموز الحروف اللاتينية SW - MW وLW . رجت أخويها زين وجواد أن يشرحا لها ما تعنيه، وهدّدت أمام رفضهما باستعرا ض المنجد الفرنسي بأكمله، فأجاباها بأن ذلك لن يفيدها شيئا، لأن العلامات كانت مختصرات لكلمات انجليزية. ومن ثمّ تخلت عن كل محاولة علمية، ووضعت تقنية عجيبة تعتمد الترقيع واستعمال عدّة أزرار في نفس الوقت بحثا عن نغم، قاطعة الطريق بدون هوادة في وجه المحطات «المهمة» التي تذيع الأغاني القومية والعسكرية في حين كانت عمّتي حبيبة تنهاها عن ذلك، وتقول بأن عدم احترام الوطنيين حرام، وأنه من الأفضل تصنّع الاستماع إليهم لفترة وجيزة قبل خنق صوتهم. وحين كانت شامة تعثر على النغم، كانت تلزمها عدة إجراءات

إضافية، ذلك أن ضبط الراديو الكبير على محطة واضحة وخالية من التشويش قد يستغرق وقتا لا ينتهي. وعندما كانت شامة تنجح في محاولتها وينبعث صوت رجولي دافيء ورقيق كصوت عبد الوهاب وهو يترنم بـ«أحبّ عيشة الحرية»، كان كلّ من في وسط الدار يطلق آهات الطرب، أمّا عندما كانت أصابع شامة السحرية تنجح في التقاط صوت الأميرة اللبنانية اسمهان وهي تتغنى عبر الأمواج «أهوى... أنا أهوى!» فإن الطرب كان يبلغ بالنساء مداه، كانت كل منهن تتخلّص من خفيها وترمي بهما، ويَرقصن حافيات حول النافورة الواحدة تلو الأخرى، وهي ترفع قفطانها بيد وتضمّ إلى صدرها باليد الأخرى حبيبا متخيّلاً.

إلا أنه ولسوء الحظ كان من النادر العثور على أغنية لاسمهان. في حين كنا كثيرا ما نسمع أغاني أمّ كلثوم القومية، المطربة المصرية الكبيرة التي كانت تشحذ الهمم لمقاومة المحتل الأجنبي. يا له من فرق بين أمّ كلثوم الفتاة الفقيرة ذات الصوت الذهبي القادمة من إحدى القرى المجهولة في مصر، التي حققت النجاح بفضل الانضباط والعمل الدؤوب، وبين اسمهان الارستقراطية التي لم تبذل جهدا لنيل الشهرة! كانت أمّ كلثوم تتوفر على هدف في الحياة، وتعرف ما تريده وما تسعى إليه، في حين كانت اسمهان تهز قلوبنا بضعفها البادي. أمّ كلثوم (كما رأيناها في أفلام سينما بوجلود) قوية وسمينة ترتدي دائما فساتين طويلة واسعة تخفي صدرها الممتلئ، وهذا الصدر البارز والثقة البادية عليها كانا من الأسباب التي تمنعني من التماهي معها، ذلك أن صدري لم يكن ضامرا فحسب، بل إن ثقتي بنفسي كانت جد ضعيفة. كانت أم كلثوم تهتم بكل ما هو عادل ونبيل، تعبّر عن رغباتنا القومية في التحرّر، إلا أن النساء لم يكنّ مشغوفات بها كما هو الشأن بالنسبة لاسمهان.

كانت اسمهان على عكسها تماما، مخلوقة نحيفة ذات صدر نافر،

مظهرها يوحي بأنها ضائعة غارقة وسط السحاب، متجذرة في الأحلام أكثر من ارتباطها بواقع يتجاهلها. كانت بالغة الأناقة في قمصانها الغربية المفتوحة على الصدر، وتنوراتها الضيقة. لم تكن مهووسة بالأمّة العربية، وكانت تتصرّف كما لو أن القادة العرب الذين تتغنى بهم أمّ كلثوم لا يوجدون. ما كانت تريده هو أن تحصل على أزياء جميلة، وتضع ورودا على شعرها وتحلم وتغني وترقص بين ذراعي رجل محبّ ورومانسي مثلها، رجل عاطفي رقيق تكون له شجاعة خرق التقاليد، ومراقصة المرأة التي يحبها في العَلَن. كانت اسمهان تهمل الماضي وتنغمس في حاضر مليء بالرغبات الهوجاء، حاضر يستحيل القبض عليه، يفلت من قبضة العرب كعشيق متهرّب.

لم تكن اسمهان إلا بحثا مستمرّا ومأساويا عن لحظات سعادة بسيطة ولكنها آنية، والنساء العربيات اللائي حكم عليهن بالرقص وحيدات في ساحات مغلقة معجبات بها لأنها تجسّد حلمهن برجل وامرأة عربيين متعانقين يرقصان على نغم غربي.

كانت اسمهان تعكس هذه الصورة للمتعة بدون مقابل إلى جانب رجل يشاطرها إياها بشكل كامل. إنها تضع دائما عقدا من الجواهر حول جيدها، وكنت أرجو شامة أن تعيرني عقدها للحظات حتى أخلق رباطا سِرّياً بيني وبين فاتنتي الساحرة. ذات يوم تجرّأت وسألت شامة عن حظوظي في الزواج من أمير عربي، أجابتني بأن العالم العربي يسير نحو الديمقراطية، وأن الأمراء القليلين الذين سيرافقوننا في رحلتنا نحو الحداثة قد لا يتقنون الرقص: «ستستوعبهم مهامّهم بشكل كامل، عبادتهم للسياسية لن تدع لهم وقتا للرقص، وسينصرفون إلى مسؤولياتهم. عليكِ أن تبحثي عن أستاذ إذا شئتِ الرقص كاسمهان».

كنا نعرف حياة اسمهان بتفاصيلها لأنها كانت أحد المواضيع التي

تفضلها شامة في المسرحيات التي تعرضها على السطح، كانت تشخص حياة عدّة بطلات، ولكن الأميرة الرومانسية أكثرهن شعبية، إذ أنّ حياتها أسطورة رغم نهايتها المأساوية كما كان منتظرا منها. ما كان بإمكان امرأة عربية أن تقضي حياتها باحثة عن المتعة دون أن تنال عقابا، أو عن تسلية أو سعادة دون أن تؤدّي الثمن الآن أو لاحقا. كانت اسمهان أميرة ولدت بلبنان في جبال الدروز، تزوجت وهي صغيرة من ابن عمّها الغني الأمير حسن، وطلّقت وهي ابنة السابعة عشرة، وماتت ولم تتجاوز بعد الثانية والثلاثين (1944) في حادث سيارة غريب أشيع بأنه مرتبط بقضية تجسّس دولية.

اشتغلت اسمهان بالغناء والتمثيل، أقامت بالقاهرة ومارست تأثيرا في عالم عربي مفجوع لا يجسر على التفكير في السعادة، كانت تبهر الجماهير وتغوص بها في ثنايا حلم لا عهد لها به آنذاك، حلم السعادة الفردية والحياة التي تمنح الأولوية للذة والحب، متحدّية قوانين العشيرة وما تفرضه القبيلة بشكل كامل.

كانت اسمهان المرهفة والمرعوبة تمتلك قوّة خارقة على تطبيق قناعاتها في حياتها الخاصة. وتعتقد بأن المرأة قادرة على الجمع بين النجاح في مهنتها وحياتها العاطفية على السواء، وتحرص على أن تعيش حياة زوجية كاملة وتشتغل في مجالي الغناء والتمثيل في نفس الوقت. لم يقبل زوجها الأوّل ذلك وطلب الطلاق، تزوجت بعد ذلك مرّتين برجلي أعمال مصريين، كان كل منهما في البداية يبدي تقبله لرغباتها، ولكن المحاولتين انتهتا إلى الفشل والطلاق الصاخب، إذ أن زوجها الأخير طاردها بمسدّس فطاردته شرطة القاهرة مخافة أن يقتلها. وأخيرا شاع الزعم بأنها تتعاون مع مصالح التجسس الفرنسية والانجليزية في حربها ضدّ الوجود الألماني بالشرق الأوسط، الشيء الذي عرضها لانتقادات أخلاقية شديدة. وجعل منها ضحية مجرّدة من كل سلاح للوضع السياسي المتفجر في المنطقة. بعدها عادت

اسمهان إلى لبنان لعدّة سنوات يبدو أنها ارتاحت خلالها، كانت فاتنة تعيش حرّة ومحاطة بالآخرين، سعيدة رغم كل شيء. استقبلت في مقرّ إقامتها الخاصة ببيروت وبقصر الملك داوود بالقدس لقاءات قمّة بين الجنرال دوغول ورئيسي سوريا ولبنان. وخلال هذه السهرات النخبوية، كان القوميون العرب يلتقون بالجنرالات الأوروبيين في جيوش الحلفاء، وكان الثوار يختلطون برجال الأعمال.

كانت حياة اسمهان ذات وتيرة سريعة، «أعرف بأن حياتي ستكون قصيرة». ذلك ما كانت تقوله دائما. كانت تحصل على مال كثير ولكنها تكون دائما في حاجة إليه لتأدية فواتير مجوهراتها وأزيائها وأسفارها الكثيرة. تسليتها المفضلة هي الرحيل الذي يفاجئ محيطها باستمرار، وخلال إحدى نزهاتها الغير متوقعة هذه لحق بها الموت وهي في السيارة مع إحدى صديقاتها على بعد كلمترات من القاهرة، حيث وجدت السيارة عائمة في بحيرة. بكى المعجبون اسمهان في حين تحدّث أعداؤها عن تواطؤ بين مصالح التجسّس، وقد زعم أحدهم بأنها قتلت من طرف جواسيس بريطانيين لأنها باتت تتصرف بحرّية كبيرة، في حين جعل منها آخرون ضحية للجاسوسية الألمانية. أما المتشدّدون فقد هنأوا أنفسهم على موتها المبكّر، ورأوا في ذلك عقابا لها على حياتها الساقطة.

أبهرت اسمهان الرجال والنساء بحياتها المليئة بالمغامرات التي عرفت الفشل والنجاح، وهي حياة أكثر إثارة من وجود باهت ومقنن يقضيه الإنسان وراء أسوار تشله، وبالتالي كان من المستحيل الترنم بأغانيها دون تذكر فترات حياتها المضطربة.

حين تشخص شامة الفترة الأولى من حياة اسمهان، تفرش زربية خضراء على السطح، حتى تجعلنا نتوهم غابات جبال الدروز التي رأت فيها النور، ثم تجلب مضرّبة إلى الخشبة لكي تكون فراشا للأميرة

وتطلي عينيها بالكحل لتبعث نظرة اسمهان الحالمة بعينيها الخضراوين. كان يصعب على شامة تقليد شعر اسمهان، إذ أن شعر هذه الأخيرة كان أسود فاحما، ولذلك كانت شامة مجبرة أن تخفي خصلاتها الذهبية بمنديل أسود، إلا أنها لم تكن للأسف تستطيع إخفاء النمش من بشرتها (بشرة اسمهان كانت صافية كالمرآة)، ولذلك كانت تكتفي برسم الشامة التي اشتهرت بها المطربة على الجانب الأيسر من الذقن، إذ أنه كان من المستحيل تشخيص الدور دونها. كانت شامة تستلقي بعدها على الفراش، ترتدي قميصا من الثوب الأملس، وسّعت أسفله بواسطة خيط حديدي لكي توهم بأنه تنورة غربية واسعة. تبدو عليها مظاهر الحزن والكآبة، ترقب السماء خلال لحظات في صمت ثمّ تتعالى أصوات من وراء الستارة وهي تؤدّي لحنا حزينا يذكر عبث العيش في حصار، وإضاعة الوقت في حين أن العالم بأسره يتمتع. كانت تلك الأصوات الجميلة تصدر عن أخوات شامة وبقية بنات أعمامي.

كان هناك فرس خشبي بالقرب من فراش اسمهان التي امتطت الخيل منذ نعومة أظفارها، وماذا كان بوسع امرأة عربية أن تفعل غير ذلك؟ وهي الفاتنة التي نشأت في عائلة أمراء جبل بعيد لازال الناس يتذكرون فيه الحروب الصليبية، ويخافون الغزوات الأجنبية ويتوجسون من أبسط حركة؟

كانت اسمهان تركب الخيل كطامو في جبال الريف، وكان ذلك يرادف لديها الحرية، والحرية هي الجري والرحيل والابتعاد والاكتشاف والقفز حتى ولو كان ذلك بدون هدف، لأنه يمنحك السعادة، ولأن الحركة بهجة في حدّ ذاتها. كانت شامة تغادر الفراش إذن وتركب الفرس الجامد في حين تستمر الأصوات وراء الستارة في إنشاد مأساة أولئك اللواتي يقعن في مصيدة قلعة لا سبيل إلى الخلاص منها. أحيانا كنت أنا وسمير نؤرجح الفرس لكي نضفي حركة على

المشهد، في حين كان المشاهدون (أي أمّي وأبناء أعمامي المراهقين وعمّتي حبيبة وكل العمّات الأخريات والقريبات اللائي يقمن معنا) ينضمون إلى الغناء. وبعدها كنت أسدل الستارة أنا وسمير، حتى نغير المناظر لنصل إلى مشهد الزواج.

لم تكن شامة تحب إغراق جمهورها في اليأس، وكانت تقول: «إن الهدف من كل عرض هو مؤازرتكم لكي لا تتخلوا عن الأمل، وتؤمنوا بأن تغيير حياتكم أمر ممكن» بعدها يظهر ابن عمي زين على الخشبة، يبهرني جماله إلى حد يجعلني أهمل مهمتي كعاملة في المسرح. كان الجمهور يحتج لأن المفروض هو أن يقدم العامل مرطبات في اللحظة الهامة من العرض كالزواج أو الميلاد. كنت أنا وسمير مكلفين بتوزيع الحلوى والشاي على الجمهور، وكان هذا الأخير يطالب بهما ويهدّد بمغادرة المسرح. إلا أننا كسرنا عددا من الكؤوس مما دفع بلللامهاني إلى منعنا من تقديم الشاي: «إن المسرح نشاط يمكن أن يعاد فيه النظر، حسب قولها، لأنه غير مذكور في القرآن، وهو غير معروف في مكة والمدينة. والآن إذا كانت هناك نساء متهوّرات يتشبثن به فذلك شأنهن! الكل مسؤول عن عمله غدا يوم القيامة. ولكن تكسير كؤوس أبنائي للاحتفال بزواج ذات الفضائح هذه التي تسمى اسمهان حمق لا مراء فيه!». بعدها غدا التقشف يطبع احتفالات الزواج على المسرح، كنا نكتفي بتوزيع حلويات جافة غالبا ماكانت عمّتي حبيبة تهيئوها في آخر لحظة. لقد كان من اللازم تدليل الجمهور لضمان وفائه.

ما أن نكمل الحلوى حتى كان الأمير حسن يطرد اسمهان من البيت، وتبد وشامة على خشبة المسرح وجهها تعلوه صفرة الموت، وهي تحمل حقيبة كبيرة في طريقها إلى القاهرة. كان الكورس ينشد ألم الفراق وحزن المنفى، في حين كانت عمتي حبيبة تهمس لأمي: «لم تكن تتجاوز السابعة عشرة عندما طلقت، ياللعار! لقد كانت تلك

هي الطريقة الوحيدة للخلاص من تلك الجبال الفظيعة التي كانت تخنقها. حين نفكر ندرك بأن الطلاق أحيانا نسمة هواء، إنه يجبرك على الانطلاق نحو المجهول الذي لم يكن بإمكانك التعرف عليه لولا ذلك».

المهم هو أن الأمير حسن طلق زوجته لأنها طلبت منه أن يرافقها إلي الملاهي! فهي لم تقنع بارتداء الفساتين المفتوحة على الصدر والأحذية ذات الكعب العالي وقص الشعر، ولكنها ترغب في ارتياد المراقص حيث يتحلق الناس حول الموائد ويثرثرون حتى الصباح. خلال هذا المشهد كانت شامة تتقدم على الخشبة شاحبة مرتجفة وعيناها نصف مغمضتين وهي تقول: «كانت اسمهان تريد المطاعم الراقية حتى ترقص مثل الفرنسيات وتضم أميرها إلى صدرها، كانت تريد أن ترقص معه رقصة الڤالس الليل بأكمله، عوض البقاء في الكواليس وهي تنظر إليه من بعيد في أحاديثه التي لا تنتهي مع الرجال. كانت تكره العشيرة وقانونها القاسي المجنون. لم تكن مجرمة، ولم تكن تودّ الإساءة لأحد». في تلك اللحظة كانت عمّتي حبيبة تقاطع العرض لتقول، وهي تقلد إحدى أغاني اسمهان: «لم أحلم قط بأشياء مثل هذه ولكنني طلقت رغم ذلك، تذكرن ياسيّداتي ولا تتحرجّن. إن المرأة العربية التي لا تطالب بالقمر بليدة بحقّ!» يصرخ الجمهور مطالبا بالصمت، وتعود شامة لتشخيص أحلام اسمهان بالمتعة بحثا عن اللذة في مجتمع عربي لم يتعود بعد على التعبير بصراحة عن رغبات النساء. وحين كنت أراقب شامة، كنت أعد نفسي بأن أصبح ممثلة حين أكبر. سأبهر الجماهير العربية المعجبة وسأحدثها عما تستشعره امرأة سكرى بالرغبة في الضحك في بلاد ترسّخ الحداد، سأجلعها تبكي حسرة على كل المناسبات الضائعة والأوهام المنقضية. وبعد أن أروّضها سأشدو لها كما تفعل اسمهان وشامة عجائب المغامرة الفردية التي يصاحبها الخوف، وضرورة معاناة الإحساسين معا. سأحدّثها

عن الانبهار بالمجهول وبالمخاطرة وارتياد الآفاق غير المعتادة، سأغني لها ماهو فريد ومالا يمكن ضبطه، أي الحياة الوحيدة التي تستحق العيش دون حدود، حياة ذات آفاق جديدة لا تذكر بالأسلاف.

آه نعم! سأحدّثها عن المستحيل، وعن عالم عربي يرقص فيه الرجال والنساء ويغنون ويتناقشون دون أن تفرق بينهم الحدود وجبال القلق.

آه نعم، سأبهر جمهوري بواسطة الكلمات والحركات كشأن اسمهان وشامة، وأعيد خلق أرض آمنة، بيوتها بدون أبواب، ونوافذها مشرعة على أزقة تبعث على الإطمئنان، سأساعده على ارتياد عالم حيث الاختلاف لا يحتاج لحجاب، وحيث تتحرك أجساد النساء بحرية، ورغباتهن لا تعرف الخوف.

سأخلق مع جمهوري ومن أجله، قصائد طويلة أتغنى فيها لوطن آمن لا خوف فيه، وستكون الثقة لعبتنا الجديدة، وسأحدثه بتواضع عن جهلي بقواعدها التي سنبنيها معا.

سأحصل على مال وفير في مسرحي يكفيني لتوزيع الشاي والحلويات على كل المشاهدين، حتى تغمرهم الراحة خلال ساعات، وهم يفكرون في عالم عربي لا يعرف فيه الصغار الخوف، عالم يسير فيه الرجال والنساء بهدوء، يراقبون أفقا باعثا على الاطمئنان، لا يستطيعون تصوره، إلا أن المجهول فيه لا يهدّدهم بالضرورة.

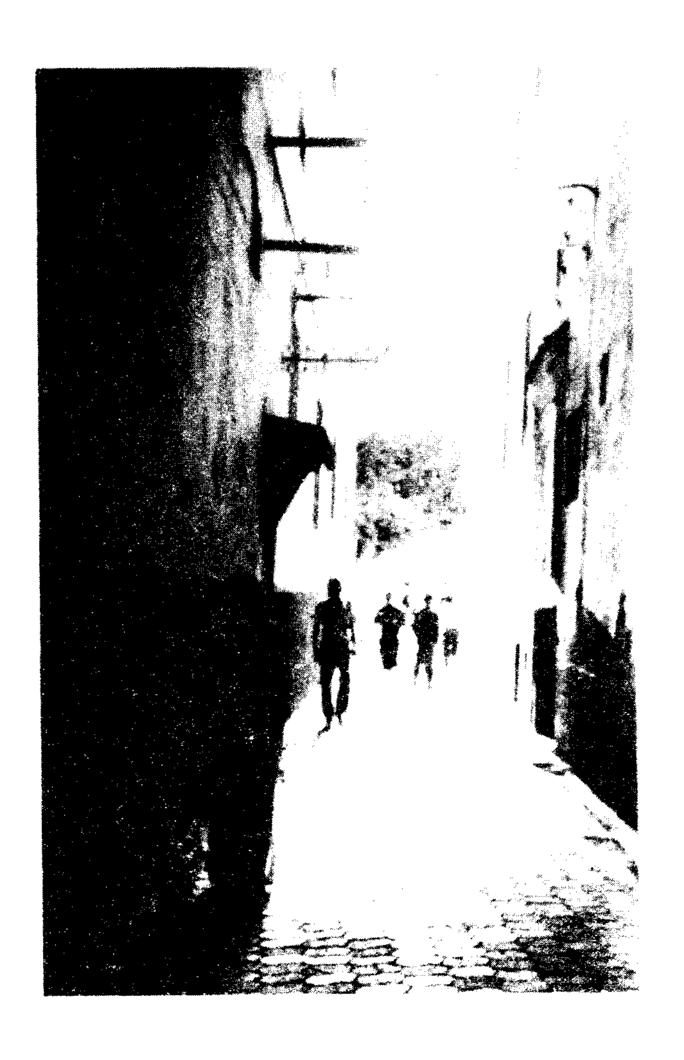
سأقنع جمهوري الصغير المنبهر بأن السعادة يمكن أن تزهر في كل مكان، بما في ذلك أزقتنا المظلمة بالمدينة المحاصرة.

سأعيد الاعتبار لاسمهان، بإمكانها أن لا تكون مجرّد ضحية مأساوية، ستزهر ملايين من اسمهان، ولن يكنّ مجبرات على الموت في الثانية والثلاثين، بمكان بعيد ضحية حادث سيارة يطبعه العبث.

انسابت دموعي عدّة مرّات من أجل اسمهان خلال تلك العروض المسرحية، التي تقدم على السطوح، وأنا أتابع بطرف عيني حركة النجوم في السماء. كان المسرح كتابة للأحلام يحاكي فيها الجسد الخيال، وكان يبدو لي ضروريا، وقد تساءلت مرارا لَم لَم يجعلوا منه مؤسسة مقدسة؟

- 13 -

الحريم يذهب إلى السينما



ربما كان الإعتقاد سائدا لدينا بأن وسائل المتعة مبتذلة، ولكنها كانت رغم ذلك تجلب جمهورا غفيرا. ما أن تنتهي النساء من أشغالهن المنزلية حتى تهرعن للسؤال عن المكان الذي تحكي فيه عمتي حبيبة حكاياتها أو تقدم فيه شامة عروضها. كانت العروض كثيرة في الأماكن التي لا تثير الانتباه والبعيدة نوعا ما، أي على السطوح أو في الطابق الأخير. كل واحد يأتي بحشيته ليجلس عليها ويبحث لنفسه عن مكان ملائم يضع فيه الحشية على الزربية التي ترسم حدود المجلس. كانت الديمقراطية سائدة: إذ للقادمين الأوائل الحق في الصف الأول دون اعتبار للسن أو المكانة، الشيء الذي كنا نستفيد منه نحن الأطفال، إلا أن هناك من يخرق القاعدة ويأتي بمقعد عال فيثير احتجاج الجمهور الذي يجبره على الجلوس في الصفوف الخلفيّة. كنت أجلس القرفصاء مرتاحة على حشيتي، وأتجول عبر العالم، وأنا أقفز من جزيرة لأخرى على ظهر سفن تكاد تغرق قبل أن تنقذها بمعجزة أميرات يرفلن في الغنى والجاه. كانت الإثارة تصل بي إلى حد وضع الحشية على ركبتي والتمايل وأنا منقادَة لسحر اللحظة، تحلّق بي الكلمات الغريبة التي تقذفنا بها ساحرتا المخيال: عمّتي حبيبة وشامة.

كانت عمّتي حبيبة متأكدة بأن كل واحدة منّا تملك في داخلها

نوعا من السحر، منغرس في أكثر أحلامها حميمية: «حين تكونين سجينة دون حماية وراء الأسوار، ومحاصرة في حريم، تحلمين بالانفلات، يكفي أن تعبّري عن ذلك الحلم لكي ينفجر السحر وتختفي الحدود. بإمكان الأحلام أن تغير حياتك، كما أن بإمكانها أن تغير العالم في النهاية. التحرر يبدأ حين ترقص الصور في ذهنك الصغير وتسرعين في ترجمتها إلى كلمات، والكلمات لا تكلف شيئا!» كانت لا تفتأ تردّد علينا بأننا جميعا نملك هذه القوة الداخلية وماعلينا إلا التصرف بها.

سأكون قادرة أنا الأخرى على إزالة الحدود، تلك هي الرسالة التي احتفظت بها وأنا جالسة على حشيتي هناك في ذلك السطح. كل شيء يبدو لي طبيعيا، أتمايل من الأمام إلى الوراء، وأرفع رأسي من حين لآخر إلى السماء لكي أحس ضوء النجوم على وجهي. يجب أن تكون المسارح دائما في الأمكنة العالية على السطوح المبيضة القريبة من السماء. في تلك الليالي الصيفية بفاس، كانت الكواكب البعيدة تنضم إلينا، ولم يكن للأمل حدود، كنت أقول في نفسي: نعم ياعمتي حبيبة! سأكون ساحرة، سأنجح في اختراق هذه الحياة المقننة التي تنتظرني بأزقة المدينة الضيقة، دون أن أغفل الأساسي، أي الأحلام وسحرها، سأنساب في مراهقة دون مشاكل، وأنا أحضن السفر في قلبي كما تحتضن الفتيات الأوربيات فرسانهن في الرقص. سأبجّل الكلمات، وسأحرص عليها لإضاءة الليالي وتحطيم الأسوار والحواجز. كان كل شيء يبدو لي سهلا بفضلك أنت عمتي حبيبة، وبفضل شامة، اللتين تظهران وتختفيان وراء ستارة مسرح عجزكما الهش، كم كنتما نحيفتين في ذلك الليل المتقدم على ذلك السطح المهجور، لكن يا لحيويتكما وروعتكما. سأغدو ساحرة، وسأرصّع الكلمات لكي أقتسم الحلم مع الآخرين وأجعل الحدود غير ذات فائدة.

تنتظر شامة وعمتي حبيبة المساء بفارغ الصبر، اللحظة التي تستدعيان فيها خيالهما وتبعثان الحلم، في حين كان النوم يراود جفون من كانوا أقلنا فضولا. كثيرا من النساء في البيت يعشن من أجل هذه الأمسيات، ولكن الشباب الذين كنا نطلب منهم أحيانا الانضمام إلينا لم يكونوا يبدون حماسا كبيرا، كانوا، أحيانا، يولون بعض الاهتمام للحكايات والعروض المسرحية، لأن لهم الحق في الذهاب إلى سينما بوجلود القريبة من الحمّام متى شاؤوا على عكس النساء.

حين كنا نرى زين وجواد يضعان عقدة الفراشة الحمراء كنا نفهم بأنهما ذاهبان إلى السينما، وغالبا ما كانت شامة تتبعهما وترجو منهما اصطحابها، كانا يقاومان ويتعللان بأنها لم تحصل على إذن من والدها أو والدي، ورغم ذلك تحاول مرافقتهما، فترتدي جلبابها بسرعة، وتحجب وجهها بنقاب من الحرير الأسود وتلحق بهما مسرعة. ما إن يراها أحمد البواب، حتى يقف: «من فضلك ياشامة، لا تجبريني على أن ألاحقك في الشارع اليوم أيضا. لم أتلق أمرا بخروج النساء». ولكن شامة تمضي وكأنها لا تسمعه.

أحيانا كانت تسرع إلى حد تتسرب معه نحو الخارج، فتتجمع كل النساء في المدخل لرؤية ماسيجري. وبعد دقائق يرين أحمد البواب عائدا وهو يلهث وشامة تسبقه ليقول بصوت صارم: «لم يقُل لي أحد بأن النساء سيذهبن إلى السينما هذا المساء، من فضلك لا تسببي لي مشاكل، ولا تجبريني على الجري في هذه السن». كانت أمي تحتد حين ترى شامة تفشل في محاولتها، وتعاد إلى البيت كمجرمة: «سترى يا أحمد ماسيلحقك، ستجد نفسك عاطلا في القريب لأن النساء سيتوفرن على حرية التجول في العالم». ثم تحيط شامة بذراعها وتقودها إلى وسط الدار، والأخريات يتبعنهن ويتبادلن عبارات الرفض والاستنكار. كانت شامة تصمت والدموع تنساب على

خديها، وبعد لحظة تسأل أمي وهي بادية الاضطراب: «وصلت السابعة عشرة وليس في مقدوري مشاهدة فلم لأنني امرأة! ماهذا الظلم؟ ومتى سنعامل بالمساواة إناثا وذكورا؟». كان يجب أن يحقق الفيلم نجاحا ساحقا وأن يشاهده كل سكان فاس لتحصل نساء عائلة المرنيسي على إذن مشاهدته هن الأخريات، كان ذلك شأن كل أفلام اسمهان، وكذا فيلم «دنانير» الجارية المغنية التي فتن بها هارون الرشيد، إلى حدّ أنسته معه جواريه الأخريات.

شخّصت أم كلثوم دور دنانير وأضفت عليه الحياة بصوتها الخارق. كان الفيلم مستمدا من قصة حقيقية كما أخبرتنا شامة، التي عكفت على الجزء الثالث من كتاب مروج الذهب عدة أسابيع قبل أن تذهب لمشاهدة الفيلم، حيث كانت حياة هارون الرشيد خليفتها المفضل تمتد عبر خمسة وسبعين صفحة. أذنت لي بتصفح الكتاب الثمين الذي استعارته من مكتبة والدها، (الذي كان يعتقد بأن الكتاب شيء مقدس ولا يمكن نقله من مكانه أيا كان السبب).

في إحدى ليالي السمر، التقى هارون الرشيد بجارية فاتنة تدعى دنانير. أحببتُ السَمَر عندما شرحت لي شامة ما يعنيه: سهرة يرتاح فيها الخليفة المتعب قبل أو بعد حادث هام (معركة، سفر خطير، أو مفاوضات صعبة) فيسمع الشعر والأنغام، كان الفنانون يجتمعون في القصر، وبما أن النساء لم يكن ممنوعات من منافسة الرجال، فإن جواري بغداد سرعان ماتجاوزن أساتذتهن الذكور إلى حد أن السمر غدا من اختصاصهن. كان هارون الرشيد في حاجة ماسة إلى الراحة، لأنه يقضي معظم وقته في المعارك، خلال فترة حكمه امتدت الإمبراطورية الاسلامية حتى بلاد الصين، إلا أنه كان يعاني من مشكل مع دنانير، إنها جارية وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي كان يحبها. قرر الخليفة أن يخفي مشاعره تجاهها، وشرع في القيام بزيارات متكررة للوزير عسى أن يسمع صوتها، لم يكن بإمكانه التصريح بحبه

لها، ولكن سكان بغداد عرفوا به، وبعدهم بإحدى عشر قرنا تقاطر سكان فاس على القاعات السينمائية ليشهدوا على هذا الحب المحبط الذي اعترضته الصعوبات كما صورته الاستوديوهات المصرية.

لم يكن مسموحا لنا نحن الأطفال مبدئيا بالذهاب الى السينما، ولكننا تمردنا بقيادة سمير كما فعلت النساء، وحصلنا مثلهن على الإذن المطلوب. حين أقول نحن أقصد سمير في الواقع، لأنني كنت أجد صعوبة في الصراخ والركل بقدمي. التعبير عن ثورتي خلق لي مشاكل على الدوام، ولعل ذلك يعود إلى موقف أمي الغريب، لقد كانت تشجعني على التمرد غالب الأحيان ولا تفتأ تردد بأن عليَّ أن لا أعوّل على سمير للدفاع عن مصالحي، ولكنني حين أرتمي على الأرض وأصرخ توقفني في الحين: «لم أقل بأن عليك أن تثوري ضدي! عليك أن تقاومي سلطة الآخرين، رغم ذلك يجب أن تطيعيني وإلا ستسود الفوضى. يجب أن نتمرد بذكاء. عليك أن تقلّبي الأمر وتحلليه. ثوري حين تكونين متأكدة بأنك تملكين حظوظ النجاح». بعدها بذلت جهدا كبيرا في تحليل حظوظي هاته كلما تبينت بأن الغرض هو استغلالي، وحتى اليوم بعد حوالي نصف قرن من ذلك، لازلت أقضي الساعات في التفكير بجدوى «مشهد تمرد» جيد يصاحبه الصراخ والتوتر حين أتعرض لهجوم أو إهانة، وكل مرة أجد نفسي غير متأكدة من النتيجة. ككل مغربية «مبرمجة» بشكل جيد ألجأ غالب الأحيان إلى التفاوض لكي لا أقول الخضوع. لازلت أحلم باليوم الرائع الذي سأكون فيه قادرة على التعبير عن ثورة صارخة تجمّد الدم في عروق عدوي، وتضمن لي نجاحا باهرا. على كل أنا جد مدينة لسمير، لأنه تصرف بتلك الطريقة آنذاك، وإلا ماكان بإمكاني ارتياد السينما، ولم يكن هناك شيء أمتع منها، صدقوني.

يوم الذهاب الى السينما، تشرع النساء في التزين كما لو كن سيخرجن سافرات، كانت أمي تقضي الساعات في تسريحات جد

معقدة، والنساء الأخريات يتزينّ بحماس. الصديقات يتبادلن الرأي بشأن الكحل أو أحمر الشفاه أو التسريحة أو الجواهر. والأطفال يقبضون على المرايا اليدوية ويوجهونها نحو الشمس لالتقاط أشعتها، لأن المرايا المعلقة على الجدران لم تكن تنفع في ذلك، إذ أن خيوط الشمس لا تكاد تصلها إلا خلال بضع ساعات في الصيف. وحين تنتهي النساء من وضع زينتهن، يختفين من الرأس حتى القدمين في ثنايا الحايك أو الجلباب حسب سنهن ووضعهن الاجتماعي.

قبل ذلك بسنوات تخاصمت أمي مع والدي بشأن «الحايك» ثم الثوب الذي يصنع منه النقاب، كان اللثام مثلثا كبيرا من القطن الأبيض الغليظ إلى حد لا يكاد يسمح بالتنفس، أرادت أمي أن تعوضه بآخر أسود صغير من الثوب الحريري الشفاف، فقد أبي صوابه: «إنك تبدين غير محجّبة بهذا اللثام!» ولكن اللثام الصغير سرعان ماشاع لأن زوجات الوطنيين ارتدينه في فاس خلال التجمعات الدينية والحفلات العامة، وخاصة في مناسبة إطلاق سراح السجناء السياسيين من طرف السلطات الفرنسية. كانت أمي تريد أيضا استبدال الحايك التقليدي بالجبلباب الذكوري الذي غدت ترتديه زوجات الوطنيين. كان الحايك الذي تلف به المرأة جسدها يستلزم سبعة أمتار من الثوب القطني الأبيض، وكان على المرأة أن تقبض على طرفي الحايك المعقودين بصعوبة تحت الذقن حتى لا يسقط، ولذلك كانت شامة تقول: «لا شك أن الحايك قد صنع بطريقة يغدو معها خروج المرأة تعذيبا حقيقيا إلى حد لا تفكر معه إلا في العودة إلى البيت وملازمته» وتضيف أمي معززة رأيها: «إذا حدث وزلقت رجلك وسقطت، كوني متأكدة من أنك ستفقدين أسنانك لأن يديك مشغولتان، ثم أنه ثقيل إلى حد الفظاعة، وأنا جد نحيفة!».

حين شرع الوطنيون في إرسال بناتهنّ إلي المدرسة، سمحوا لهن أيضا بارتداء الجلباب الذي كان أخف من الحايك بالإضافة إلى أنه

عملي، وهكذا تزيت البنات بجلباب الرجال واحتذتهن أمهاتهن بعد ذلك بوقت وجيز. حاول أبي أن يصرف أمي عن الأمر، وكان يعلق أحيانا كثيرة على الثورة التي يشهدها في أزقة المدينة: «إذا تزيّت النساء بزي الرجال كان الأمر أفظع من الفتنة، إنه الفناء!». إلا أن فوضى الشارع كانت تتسرب شيئا فشيئا إلى بيتنا بالتأكيد، وكانت الأرض مستمرة في دورانها بمعجزة. ذات يوم بدت والدتي وهي ترتدي جلباب أبي وتضع على وجهها لثاما أسود من الحرير الشفاف، طبعا كانت ملامحها بادية عبره فغضب والدي وأنذرها بمغبة المس بالعائلة، إلا أن شرف العائلة كان مهددا حسب مايبدو في مجموع مدينة فاس، لأن النساء المرتديات جلابيب رجالية ولثاما حريريا أنيقا كن يغمرن أزقة المدينة. بعدها خرجت بنات الوطنيين سافرات مرتديات الزي الغربي الذي يكشف الساقين، وهن يحملن حقائب يدوية. طبعا لم تكن أمي لتتزين مثلهن إذ أن وسطها كان شديد المحافظة، ولكنها فرضت رغم ذلك الجلباب واللثام. وحين علمت بخبر استقلال المغرب ورحيل الفرنسيين سنة 1956، شاركت في مظاهرة مع النساء الوطنيات وأنشدت معهن الأناشيد حتى وقت متأخر من الليل، وعندما عادت إلى البيت متعبة بالسير وترديد الأناشيد كان رأسها حاسرا ووجهها مكشوفا. منذ ذلك اليوم لم نعد نشاهد اللثام يغطي وجه الشابات في مدينة فاس، ووحدهن النساء المسنات أو القرويات القادمات إلى المدينة حافظن على الالتزام بالحجاب[-2-].

ولكن لنعد إلى السينما، كانت النساء في تلك المناسبات الاستثنائية يغادرن البيت باكرا في الظهيرة، يسير أبناء أعمامي في الأمام وكأنهم يمنعون الجماهير من التجمع لإلقاء نظرة خاطفة على الجمال المخزون لدى عائلة المرنيسي، بعد الرجال مباشرة تأتي لللامهاني ذات المظهر الممتلئ الملفوف باعتزاز في الحايك، وهي تسير مرفوعة الرأس، وكأنها تريد أن تشعر المارين بالسلطة التي تتوفر

عليها. تتقدم للاراضية أم سمير بجانب جدتي بخطى صغيرة وعيناها مشدودتان إلى الأرض، وبعدهما تأتي عمتي حبيبة والقريبات الأخريات، وكلهن صامتات مشدودات إلى حياكهن. على العكس من أمي كانت النساء المطلقات أو اللائي فقدن أزواجهن لا يتوفرن على حماية زوج ولا يستطعن ارتداء الجلباب، ولو فعلن ذلك لساءت سمعتهن. في نهاية المسيرة، توجد المتمردات مرتديات جلابيب ملونة، تتبعهن المراهقات اللائي يصدرن ضحكات عصبية بفعل القلق طيلة الطريق، وأخيرا نسير نحن الأطفال قابضين على يدي أحمد.

لم تكن فئة المتمردات كثيرة العدد في الواقع، إذ لم تكن تضم إلا شامة وأمي، ولكنهما كانتا تنجحان في استقطاب الاهتمام. كانت أمي بعينيها المكحولتين وبنت عمي بشامتها المصطنعة التي تقلد بها اسمهان، تضعان اللثام الأسود الشفاف، يداهما متحررتان ورائحة العطر تفوح حواليهما. وكانت أمي أحيانا كثيرة تضحك الجميع وهي تقلد ليلى مراد النجمة السينمائية المصرية، التي كانت تمثل دائما دور المرأة الساحرة، فتتقدم وهي تنظر أمامها وتحملق كما لو أن عينيها مصابتان بمرض، ثم ترسل نظراتها القاتلة يمينا وشمالا وهي تهمس بصوت تقصّد أن يوحي بالإثارة: «جمالي الفتان يقهر كل الرجال، يكفي أن ألقي نظرة لكي يتساقط الضحايا الأبرياء أمامي كالذباب، ستحصل اليوم مذبحة في أزقة فاس!».

عثرت أمي على هذه الفكرة ضمن آراء كاتب مصري مناصر للمرأة يدعى قاسم أمين. كتب هذا الرجل كتابا لاقى نجاحا كبيرا بعنوان «تحرير المرأة» (1899)، افترض فيه بأن الرجال يفرضون الحجاب على المرأة لأنهم يخافون جاذبيتها وجمالها، إنهم عاجزون في رأيه عن مقاومة المرأة ولذلك يكاد الإغماء يصيبهم كلما مرت امرأة جميلة بالقرب منهم، من ثم حث الرجال في النهاية على أن يجدوا طريقة للإنتصار على خوفهم حتى تتمكن النساء من إزالة الحجاب.

كانت أمي معجبة بقاسم أمين، وبما أنها لاتعرف القراءة، كانت ترجو والدي كي يقرأ لها مقاطعها المفضلة. وقبل أن يلبي هذا الأخير طلبها، يفرض عليها طلبات كثيرة تأبى الرضوخ لها في البداية: أن يضم يدها حين يقرأ أو أن تهيء له مشروبه المفضل أي عصير لوز بالحليب البارد المعطر بماء الزهر، أو الأفظع من ذلك أن تدلك له رجليه. إلا أن أمي كانت تقبل في النهاية وتحثه على الشروع في القراءة.

يقرأ والدي، وحين يصل إلى المقاطع الهامة يرمي بالكتاب غاضبا ويندد بقاسم أمين الذي سيهدم البيوت العربية ويصرخ قائلا: «هل أنا محتاج لهذا البليد الدخيل من الأقطار المصرية لكي أقترب من زوجتي أو لكي تكون لطيفة معي؟ أرفض تصديق ذلك!» حينها تسرع أمي إلى التقاط الكتاب، وتعيده إلى غلافه الجلدي، وتغادر الغرفة غاضبة ولكنها واثقة من نفسها، وكنزها بين يديها.

كانت البهجة تغمر شامة بنمشها وعينيها العسليتين، فتضحك كثيرا حين تشاهد عرض أمي عن المرأة الساحرة في الطريق إلى سينما بوجلود، كانتا تحدقان معا في المارة لتريا ما إذا كانوا سيتساقطون كالذباب، وطبعا كانتا تعلقان على الرجال المارين ومن ثم كان زين وإخوته لا يفتأون يلتفتون إليهما حتى تخفضا من صوتهما. في السينما كان الحريم يشغل صفين بكاملهما، وكنا نحجز تذاكر أربعة صفوف حتى يظل الأول والأخير منها خاليين، فلا يكون هناك مجال لمشاهد ذي نوايا سيئة غير محترمة، لئلاّ يستغل الظلمة ويقرص إحدى السيدات المنصرفات بأكملهن إلى قصة الفيلم.

- 14 -

رائدات الحركة النسائية المصرية يزرن السطح



كانت أغلب العروض المسرحية التي تقدمها شامة تفرض وجود ممثلين ذكور، وكان الشبان الموجودون في الدار يشاركون في التمثيل إذا لم ينشغلوا بالسينما المجاورة. وطبعا كان زين مطلوبا جدا نظرا لوسامته وبلاغته، وكان يجد لذة بالغة في اختيار عمامات أو سلهام عمي أو والدي، وصنع السيوف الخشبية ليكون مقنعا في دور الأمراء العباسيين. كان يمثل أدوارا أخرى عديدة سواء تعلق الأمر بشاعر جاهلي أو بطل وطني حديث محاصر في السجون الفرنسية أو البريطانية. أما المسرحيات التي كانت تنال إعجاب الجمهور، فهي التي تضم مشاهد جماهيرية كبرى تصاحبها الاستعراضات والأناشيد، لأن الجميع يشارك فيها. وكانت شامة تكاد تجن خلال تلك اللحظات إذ أن مقاعد المشاهدين تخلو من أصحابها فتصرخ قائلة: «يجب أن يبقى أحد ليشاهد المسرحية، لا يمكننا تقديم مسرح بدون جمهور!». المشكل مع شامة أنها كانت مزاجية الطباع، تمر من الحماس الشديد إلى الصمت الشامل دون أن يتمكن أحد من لمس علامات التحول لديها، ثم أنها كانت تصاب بالإحباط إذا لم يبدِ الجمهور الاهتمام المطلوب، حيث تتوقف ولا تكمل جملتها وتنظر إلى الذين تسببوا في ذلك وتتجه نحو الدرج. وفي هذه الحالة ماكان بوسع أحد أن يفعل شيئا، أحيانا كانت تظل منزوية عدة أيام فتلازم غرفتها، ولكنها حين

تكون رائقة المزاج، صدقوني بأنها قادرة على تعبئة البيت بأكمله.

كان مسرح شامة يمنح كلاً منا الفرصة الرائعة لاكتشاف مواهبه وإبرازها، وتجاوزها، وتجاوز خجله وتنمية ثقته بنفسه. وكانت بنات أعمامي الخجولات جدا يجدن فرصتهن لجذب الأضواء حين يغنين ضمن المجموعة، كن يكرهن الوقوف على الخشبة حين ترفع الستارة، فيحيين الجمهور وهن يلوين بعصبية ظفائرهن، ولكن ما أن تسدل الستارة حتى ترتفع أصواتهن واضحة وجميلة. أما أنا فقد غدوت ضرورية بعد أن اكتشفت شامة معرفتي بالقفز البهلواني، ومن يومها كلفت بالترفيه عن الجمهور بحركاتي كلما حدث شيء يوقف العرض، وما أن أحسّ بأن هناك مشكلا بين المخرج والممثلين أو الجمهور حتى أظهر على الخشبة وأنا أمشي على يديّ وقدماي مرفوعتان، كانت حركاتي البهلوانية تمكن الممثلين أيضا من الوقت اللازم لاستبدال ثيابهم بين مشهد وآخر، ولولا مساعدتي لشامة لاضطرت إلى تقليص الفترة التي تستغرقها هذه العمليات.

كنت فخورة بدوري رغم أنه صامت وهامشي إذ أن أقدامي هي البطلة الرئيسية فيه، ولكن عمتي تقول بأن لا أهمية للدور الذي نلعبه مادام مفيدا، والأساسي هو الحصول على دور والمساهمة في مشروع جماعي. وتضيف بأنني سألعب دورا أهم في الحياة الحقيقية، وبالتالي فأنا محتاجة لإبراز موهبتي فحسب، قلت لها بأنني سأكون موهوبة في الحركات البهلوانية، ولكنها لم تبد مقتنعة: «إن الحياة أقسى من المسرح، ثم إن على النساء في تقاليدنا أن يستعملن أقدامهن في المشي، ومن الخطر الرمي بهن في الهواء». حينها غدوت منشغلة بمستقبلي، ولكن عمتي نصحتني بألا أقلق، وقالت بأن كلاً منا يحمل في داخله كنوزا مخفية، وأن الفرق يكمن في أن البعض ينجح في استغلالها على عكس الآخرين. والذين لا يتمكنون من اكتشاف مواهبهم الغالية يعانون الشقاء في حياتهم، ويكونون مكتئبين، لا

يعرفون التصرف مع الآخرين، وغالبا ما يتسمون بالعدوانية. من الضروري أن نستغل موهبتنا، ذلك ماكانت تردده عمتي حتى نستطيع أن نعطي ونقاسم الآخرين ونبرز، وللوصول إلى ذلك يجب الانضباط والاجتهاد بجد حتى يغدو الإنسان ممتازا في مجاله أيا كان، لأنه غير مهم في حد ذاته، الرقص أو الغناء أو الطبخ أو الطرز، والمهم هو أن يتقن الإنسان شيئا سواء كان فنّ الاستماع أو القدرة على الإبتسامة التلقائية، أو امتلاك الصبر على الانتظار، وتقبل الأمور بهدوء، والتسلح بالقدرة على الحلم أو التمرد، أو فن الحلم والملاحظة: «بإمكان كل ما تتقنينه أن يغير حياتك» كما تقول عمتي، ولذلك قررت أن أنمي موهبة تمكنني من إسعاد الناس المحيطين بي حتى لا يفكر أحد في الإساءة إلي، والمشكلة أنني لم أكن أعرف هذه الموهبة بعد، وكنت متأكدة من أنني أملكها، فالله كريم يمنح كل مخلوق نصيبه من الجمال حتى وإن كان مخفيا في أعماقه، كوردة سرية لا نعي وجودها. من المحتمل أنني حصلت على نصيبي وعلي أن أنتظر حتى تتفتح موهبتي في الوقت المناسب، وفي انتظار ذلك سأطلع على كل مايمكنني الاطلاع عليه بشأن بطلات الأدب والتاريخ.

كانت البطلات اللواتي تشخصهن شامة وكذا عمتي حبيبة هن على التوالي: اسمهان الأميرة المغنية، ورائدات الحركة النسائية المصرية واللبنانية، شهرزاد وأميرات ألف ليلة وليلة، ثم الشخصيات الدينية حين تطالب بها لللامهاني. كانت شامة تفضل ثلاثة من رائدات الحركة النسائية هن عائشة التيمورية وزينب فواز وهدى شعراوي[-1-]. أما الشخصيات الدينية فهن خديجة وعائشة زوجتا الرسول «صلعم» ثم رابعة العدوية المتصوفة. وكانت شامة عادة ماتشخصهن خلال شهر رمضان حين ترتدي جدتي للامهاني الأخضر من قمة رأسها حتى أخمص قدميها وتنصرف إلى التعبد، وتنصح بالتوبة، وتهدد بالنار من يعصي أوامر الله، وكذا النساء المتمردات ضد الحجاب، المحبات

للرقص والغناء واللهو، وبما أن رمضان لا يتجاوز الشهر فإن المسرحيات الدينية كانت تتوقف بانتهائه.

كانت النساء المغربيات اللائي يحلمن بالتحرر والتغيير، مجبرات على البحث عن نصيراتهن في الشرق بمصر وتركيا، لأن البلاد لم تكن تتوفر على نماذج نسائية ترضي تطلعاتهن، ولذلك كانت شامة تلاحظ بين الحين والآخر: «ليس من المدهش أن يكون المغرب بالغ التأخر، فالمغاربة المحاصرون في الجنوب بصمت الصحراء، وفي الغرب بأمواج الأطلسي الهادرة، وفي الشمال بالغز والمسيحي، قد انكفأوا على أنفسهم، في حين حققت كل الأمم الإسلامية الأخرى انطلاقتها وواجهت العالم الحديث. لقد تقدمت النساء في كل مكان إلا في هذا البلد الذي يفخربمقاومته للعثمانيين، لقد أغلقنا أبوابنا ونحن نحارب الأجانب وغدونا متحفا، علينا أن نحصل على ثمن الدخول من السواح الذين يصلون إلى طنجة».

المشكل بالنسبة لبعض الرائدات اللائي كانت تفضلهن شامة، وخاصة الأوائل منهن، هو أنهن لم يقمن بشيء يذكر ما عدا الكتابة، لأنهن كن محاصرات في حريم، وبالتالي لم تكن في حياتهن أحداث كثيرة قابلة للتشخيص، ولذلك كان علينا أن نكتفي بالاستماع إلى شامة وهي تسرد احتجاجاتهن. والأفظع يتمثل في حياة عائشة التيمورية التي ولدت بالقاهرة سنة 1840، حيث أمضت حياتها حتى وفاتها سنة 1906 في كتابة قصائد نارية ضد الحجاب. كان إتقانها لعدة لغات شرقية أي العربية والتركية وكذا الفارسية، يثير إعجابي، لنتخيل امرأة رهينة في حريم تتحدث عدة لغات! إن التحدث بلغة أجنبية يشبه فتح نافذة في حائط مغلق، والتحدث بهذه اللغة في حريم هو التوفر على أجنحة تمكنك من التحليق نحو ثقافة أخرى، حتى ولو كانت الحدود موجودة وكذا البوّاب.

حين كانت شامة تود أن تفهمنا بأن عائشة التيمورية تقرأ شعرها

بالتركية والفارسية وهما لغتان مجهولتان في مدينة فاس، كانت تميل رأسها إلى الوراء، وتحدق في السماء أو السقف، وتسرع في إطلاق همهمات غير مفهومة، وهي تقلد إيقاع الشعر العربي التقليدي، الشيء الذي يفقد أمي صبرها فتصيح بها: «لقد فهمنا ياعزيزتي، كلنا معجبون بإتقان عائشة للتركية، والآن! عودي إلى العربية أو ستفقدين جمهورك». بعد هذه الكلمات تصمت شامة فجأة ويبدو عليها الإحساس بالإهانة، وتطلب من أمي أن تقدم اعتذاراً فورياً: «إنني أجهد لأخلق جوا سحريا صعبا، وأنت تدمرين هذا الحلم حين تقاطعينني!». كانت أمي تقف منحنية الرأس والكتفين، ثم ترفع رأسها وتقسم ألا تعود إلى ذلك.

هناك رائدة نسائية أخرى تثير إعجاب شامة هي زينب فواز، وهي عصامية لبنانية ذات ثقافة واسعة، ولدت حوالي سنة 1850 في قرية مجهولة بدأت فيها حياتها كخادمة، وقد نجحت بفضل خططها في الزواج بالإضافة إلى انضباط صارم، في أن تصبح إسما أدبيا مشهورا في الدوائر الثقافية ببيروت والقاهرة. ولأنها لم تغادر الحريم قط، فقد كان من الصعوبة بمكان العثور على ما يغذي الحركة المسرحية في حياتها المعزولة، وكل ما استطاعت القيام به انطلاقا من الحريم الذي تلازمه، هو إغراق الصحف العربية بالمقالات والقصائد التي تعبر فيها عن كرهها للحجاب وتنديدها بعزلة النساء. وهذان العنصران حسب رأيها يمثلان أهم الحواجز التي تعترض تقدم العالم الإسلامي، ويفسّران سوء مؤهلاتنا في مواجهة الجيوش الغربية. ولحسن الحظ فقد أفلتنا في عروضنا على السطح من كتابات زينب الصحفية المكرورة الباعثة على الملل، لأنها نشرت في سنة 1893 بيوغرافيا عن الشهيرات اللائي بلغ عددهن أكثر من أربعمائة وخمسين امرأة، حيث تلتقي كليوباترا مع الملكة فكتوريا وجها لوجه، الشيء الذي مكن شامة من مادة غزيرة[-2-].

ولكن بطلة حقوق المرأة التي كان الجمهور معجبا بها هي هدى شعراوي، الجميلة والمنحدرة من الأرستقراطية المصرية، حيث ولدت سنة 1879، وأحرزت على تأييد القادة المصريين بفضل الخطب الحماسية والمظاهرات الشعبية. كان تمثيل حياتها يمكن جميع المشاهدين، بما في ذلك نحن الأطفال، من الصعود الى الخشبة، لترديد الأناشيد الوطنية، كان يجب التوفر على ممثلين لتشخيص دور المتظاهرين المصريين والجنود البريطانيين وكذا الناس المتسكعين. أجبرت هدى على الزواج في سن جد مبكّرة إذ لم تكن تتعدى الثالثة عشرة، وكانت شامة مبهورة بها لأنها نجحت في تغيير مجتمع بكامله خلال عقود قليلة بفضل إرادتها الصلبة، كما أنها حققت انتصارين قد يبدوان متناقضين: مقاومة الاحتلال البريطاني وإنهاء عزلة المرأة، ولذلك تخلصت من الحجاب حين قادت أول مظاهرة نسائية ضد الانجليز سنة 1919، وأرغمت المشرعين على وضع عدة قوانين ومن ضمنها القانون الذي رفع من السن الأدنى لزواج البنات الى 16 سنة في 1924. وقد نددت بدستور 1923 الذي يقصر التصويت على الرجال، وشكلت اتحاد النساء المصريات وناضلت من أجل الحصول على حق التصويت للنساء[-3-].

كنا نحب المظاهرات النسائية في سنة 1919، وكانت تلك لحظة أساسية في إخراج شامة، كنا نغمر الخشبة، ونحن نتدافع وراء الرايات التي صنعتها هذه الأخيرة، كانت تلك فرصة للقفز في كل مكان، والصراخ في وجه الجنود الانجليز الذين نتخيلهم، والرمي بمنديل الشعر كرمز للحجاب المكروه. وكنا نحن الأطفال نلهو على الأخص لرؤية هؤلاء الكبار وضمنهم أمهاتنا يلعبون كالصغار. وكانت الأمور غالبا ماتتجاوز حدها، فتضطر شامة الى صعود السلم الذي تستعمله في وضع الديكور، لتصرخ في الممثلين كي يغادروا الخشبة لأن الانجليز غادروا مصر سنة 1922، والأحداث المشخصة

تدور في سنة 1947. كانت هدى تحتضر وكان الصمت لازما نظرا لأنها لفظت أنفاسها في غرفتها، وحين لا يمتثل أحد لأمر شامة كما يحدث غالب الأحيان يتحول صياحها الى تهديد: «إذا لم يعد الممثلون إلى رشدهم ولم يحترموا مراسيم المسرحية، ستضطر إدارة المسرح إلى إغلاقه خلال موسم الصيف، نظرا لأعمال الشغب التي يقوم بها البعض».

كان الانتقال مباشرة من جو الفرح الذي تخلقه المظاهرات إلى مشهد هدى وهي على فراش الموت يمثل لحظة صعبة، لم يكن من المفروض علينا مغادرة الخشبة لنعود إلى مكان المشاهدين فحسب، ولكن كان علينا أيضا أن نلتزم الصمت الذي تفرضه المناسبة لكي نظهر بأننا في حداد، ولم يكن في وسع الجميع الامتثال لذلك، لقد طُردت عمتي ذات يوم من العرض لأنها انفجرت ضاحكة حين خرجت شامة من وراء الستارة، وقد لفت جسدها في إزار أسود بسرعة، فتعثرت وفقدت توازنها. كدنا نضحك جيمعا بطبيعة الحال، ولكن شامة التي انشغلت باستعادة توازنها لم تلحظ ملامح الضحك على وجوهنا.

إلا أن حياة الرائدات النسوية كانت شبه خالية من مقاطع الغناء والرقص، لقد كانت شامة تحبهن بدون شك، ولكن الجمهور كان يفضل اسمهان وإحدى بطلات ألف ليلة وليلة المغامِرات، إذ أن حكايتهن تشمل قصص الحب والغزوات والمغامرات، أما حياة المناصرات لقضية المرأة، فلم تكن تدور حسب مايبدو إلا حول النضال والزيجات الشقية، ،وتخلو من السعادة والليالي الجميلة أو المحبين المولهين: «كل هؤلاء النساء البالغات النشاط كما تقول عمتي، بهروا الرجال العرب بأفكارهن الجديدة، وكانوا يكنون لهن الحب، إلا أننا لم نسمع أحدا يتحدث عن علاقاتهن العاطفية، وذلك لأنهن كن بدون شك يعتبرن ذلك بعيدا عن السياسة، أو لأنهن كن

يمارسن الرقابة الذاتية على أنفسهن حتى لا يتهمن باللاأخلاقية». وأحيانا كانت عمتي تتساءل إذا ماكانت شامة هي التي تمارس الرقابة، حتى لا يغفل الجمهور عن النضال، وينصرف باهتمامه إلى المشاهد الرومانسية. وأيا كان الأمر قررت من يومها بأنه إذا كان علي خوض الصراع ذات يوم من أجل تحرر المرأة، لن أتخلى بالتأكيد عن مباهج الحياة كما تلاحظ عمتي: «لماذا نثور ونغير العالم إذا لم نستطع الحصول على ماينقصنا؟ وماينقصنا أكثر في حياتنا كنساء هو الحب والرغبة والحنان، فيم تفيد الثورة إذا كان العالم سيظل صحراء قاحلة من العواطف؟ على الثورة النسائية أن تغرق الرجال والنساء في بحر من الحنان».

لم تكن شخصيات شهرزاد في ألف ليلة وليلة تهتم بإلقاء الخطب أو الكتابة حول إمكانية تحررهن، بل كن يتقدمن إلى الأمام ويهربن ويعشن خطرا دائما ويواجهن حيرة العواطف، ويتمكن دائما من النجاة. لم يكنّ يحاولن إقناع المجتمع بتحريرهن، بل كن يحررن أنفسهن. خذوا قصة الأميرة بدور، هاهي ذي أميرة مدللة تتوفر على حماية كبيرة، إذا أنها بنت الملك القوي «غيور» وزوجة أمير ليس أقل منه قوة هو «قمر الزمان». تسافر بدور مع زوجها، الذي يتكلف بكل شيء حسب العادة، أما هي فتتبعه كما هو شأن كل النساء اللائي يسافرن مع أزواجهن أو أقربائهن من الرجال، يسافرن بعيدا، وذات يوم تستيقظ الأميرة لتجد نفسها وحيدة في الخيمة على أرض غريبة، لقد اختفى الأمير قمر الزمان. وحتى لا يغتصبها رجال القافلة، أو يسرقون مجوهراتها، أو يبيعونها في سوق النخاسة، قررت ارتداء ثياب زوجها وانتحال شخصيته، ونجحت حيلتها.

كان مشاهدو السطح يحتفون بالأميرة بدور لأنها جسرت على تخيل المستحيل الذي لايتحقق. لقد كانت امرأة عاجزة وضعيفة إلي حد يبعث على اليأس، محاطة بقطاع الطرق، بعيدة عن أهلها، وسط

قافلة من العبيد والمخصيين الذين لا يمكن أن تثق بهم، دون الحديث عن التجار العديمي الذمة. ولكن حين تكون المرأة يائسة، فإن الشيء الوحيد الذي يجب أن تقوم به هو قلب العالم وتغييره حسب رغباتها، وإعادة بنائه، وذلك ماقامت به الأميرة بدور.

- 15 -

مصيـر الأميـرة بـدور



كانت إحدى الصفات التي جعلتنا نحب الأميرة بدور هي هشاشتها، إنها كأغلب نساء السطح غير متعودة على حل مشاكلها، تابعة للرجال وجاهلة بكل مايتعلق بالعالم الخارجي. لم تظهر قط ثقتها بذاتها ولم تسنح لها الفرصة لتحليل المواقف واقتراح الحلول. إلا أنها ورغم اضطرابها البادي نجحت في اتخاذ القرارات الملائمة، رغم كونها بادية الخطر: «ليس العجز عيبا ياسيداتي كما تقول عمتي حبيبة، حين كان عليها أن تصعد إلى الخشبة، والأميرة بدور هي الدليل على ذلك. وإذا لم تتح لكنّ الفرصة لاختبار مواهبكن فذلك لا يعني عدم توفركن عليها». كانت عمتي تأخذ مكانها على الخشبة حين يتعب الجمهور من رائدات شامة بشأن قضية المرأة، ويطالب بمسرحيات ممتعة يصاحبها الرقص والغناء.

لم تكن عمتي مخرجة مسرحية دقيقة كشامة التي كانت تستثمر طاقة لا تصدق في الديكورات والملابس. وعلى العكس من ذلك كانت عمتي حبيبة تبسّط المسائل إلى أقصى حد: «إن الحياة بالغة الصعوبة كما هي عليه ولذا أرجوكم ألا نعقّد الوجود!». ثم تجلس على أريكة مريحة مغلفة بثوب مطرز حتى تبدو كعرش، وترتدي بالمناسبة قفطانها المخملي الأسود المطرز بطرز «النطع» بخيوط الذهب، حيث تحتفظ به مطويا في صندوقها المصنوع من خشب الأرز الذي

استعادته بعد طلاقها. عمتي حبيبة هي التي طرزت هذا القفطان المرصع بالعقيق حيث حمله إليها والدها من مكة، وقد أمضت في ذلك ثلاث سنين! ولذلك كانت تلاحظ: «الناس في أيامنا يقتنون الملابس الجاهزة ويرتدون أزياء لم يبدعوها. ولكننا إذا أمضينا أياما وليالي في تطريز منديل أو قفطان نبدع عملا فنيا أصيلا رغم بساطة الثوب، إنه العمل الإنساني، وإنها أصابعنا الصغيرة التي تحوّل قطعا عادية من الثوب إلى تحف فنية». لاشك أن قفطان عمتي كان رائعا، وبما أنها لا ترتديه إلا في المناسبات الكبيرة، فقد كنا نحس فعلا بأن العالم يتغير حين تظهر على الخشبة. بداية قصة الأميرة بدور سعيدة إلى حدما، لقد زودها أبوها الملك هي وزوجها الأمير قمر الزمان بكل مايحتاجانه للسفر: «. . وشرع السلطان الملك الغيور في تجهيزهم للسفر وعبأ لهم الاقامات والعلوفات والهجن، وحضّر لهم كل ما يحتاجون للسفر، وفي يوم الخروج خلَع السلطان على قمر الزمان وقدم له عشرين رأس من الخيل وخمس عربات هجن وأخرج له خزانه وأوصاه على ابنته وخرج معهم الى ظاهر الجزاير فودعه مع الوزراء والأمراء. ثم ان الملك دخل على ابنته بدور وودعها وضمها الى صدره وقبلها وبكى. ثم انه بعد الوداع خرج من عندها إلى قمر الزمان وودعه على خديه فقبل قمر الزمان يده. ثم افترقوا ورجع السلطان الملك الغيور [إلى] جزايره، وأمر قمر الزمان اصحابه بالرحيل، وسافر اليوم الأول والثاني والثالث والرابع»-1-.

وحين استيقظت في اليوم التالي وجدت نفسها وحيدة في الخيمة إذ أن زوجها اختفى بشكل غريب.

في تلك اللحظة من الحكاية كنت أنا وسمير الجالسين وراء خيمة الأميرة بدور، نصدر أصواتا مختلفة تنبئ عن استيقاظ القافلة، وكان سمير بارعا جدا في تقليد صهيل الخيول وركضها، ويتوقف عن ذلك مرغما حين تشرع شامة التي تشخص دور الأميرة، في الحديث

بصوت مرتفع عن الوحدة وعجز المرأة التي تجد نفسها فجأة دون زوج: «ثم إنها تفكرت في نفسها وقالت: «لا أُعلِم أحدا من الحاشية باختفائه، فيطمعوا فيّ، وأنا امرأة على كل حال»-2-. وغادرت مكانها وارتدت ثياب زوجها وخفيه وكوفيته التي أسدلت طرفا منها على وجهها، ثم وضعت جارية مكانها في الهودج، وخرجت من الخيمة وسافرت مع حاشيتها أياما وليالي، إلى أن بدت في الأفق مدينة على ضفة نهر الملح، حيث أقاموا الخيام وتوقفوا للاستراحة، «سألت عن المدينة قيل لها ملك هذه المدينة يقال له الملك أرمانوس والمدينة يقال لها جزاير الأبنوس وله بنت أجمل أهل زمانها اسمها حياة النفوس-3-. إلا أن مشاكل الأميرة بدور لم تكن لتنتهي بالوصول إلى مدينة الأبنوس، بل إن وضعها ازداد سوءا في الواقع، إذ أن الأمير المنتحل قمر الزمان قد نال إعجاب الملك أرمانوس إلى حد جعله يرغب في تزويجه من ابنته حياة النفوس-4-. ويالفظاعة الفكرة بالنسبة للأميرة بدور! ستكتشف حياة النفوس الخدعة وقد يقطع رأسها في الحين.

لقد كانوا يقطعون رؤوس البشر في مدينة الأبنوس كل يوم من أجل أخطاء أصغر. وفي المشهد الموالي، تبدو الأميرة بدور حائرة تقطع خيمتها جيئة وذهابا متسائلة عما ستفعله. لو قبلت عرض الملك سيحكم عليها بالموت لأنها كذبت، وإذا مارفضت العرض ستؤول إلى نفس المآل إذ أن رفض اقتراح ملك لا يتيح لك العيش طويلا، خاصة إذا كان هذا الرفض بمثابة إهانة موجهة لابنته. وفي حين كانت شامة تستحضر حيرة الأميرة، كان الجمهور ينقسم إلى معسكرين: أحدهما يقترح الاعتراف للملك بالحقيقة، لأنه قد يحب الأميرة ويعفو عنها إذا عرف بأنها امرأة، أما المعسكر الثاني فكان يرى أنه من الأضمن قبول عرض الملك بالزواج، والاعتراف بعد ذلك للأميرة حياة وقت الاختلاء بها، علها تتفهم الأمر بدافع التضامن النسوي.

كان التضامن النسوي موضوعا بالغ الحساسية في الدار، لأن

الاجتماع نادر بين النساء في مواجهتهن للرجال. هناك بعض النساء الراضيات عن وضعهن كجدتي لللامهاني وزوجة عمي لللاراضية يوافقن دائما على قرارات الرجال، وكانت أمي تتهمهن بالتآمر ضد بنات جنسهن: «إنهن أخطر من ا لرجال حسب قولها، وذلك لأنهن مثلنا في المظهر، ولكنهن في الحقيقة ذئابا متنكرة في شكل خراف. لو أن التضامن بين النساء سائد لما كنا محاصرات على هذا السطح، ولكنا الآن نجوب المغرب أو نسافر إلى مدينة الأبنوس، أو إلى أي مكان آخر نرغب فيه!». كانت عمتي حبيبة التي تجلس دائما في الصف الأول إذا لم تكن تمثل أو توجه الممثلين، مكلفة من قبل شامة بمراقبة مزاج المشاهدين، وإذا ماحدث وأثيرت مسألة التضامن النسوي، تقطع الحديث عنها في الحين حتى لا يتحول إلى خصام حقيقي. وفي نهاية الأمر عوّلت الأميرة بدور على هذا التضامن، وتبين بأن اختيارها صائب، وأن النساء قادرات على تبادل عواطف سامية ونبيلة فيما بينهن.

قبلت الأميرة بدور الزواج من ابنة الملك، وكانت هذه الخطوة تخولها الحق في حكم مدينة الأبنوس. كنا نحتفل بالزواج على السطح فنوزع الحلوى أنا وسمير على الجميع، وذات يوم حاولت شامة أن تبين بأن هذه الحلوى غير ضرورية مادام الزواج غير شرعي، ولكن الجمهور رفض في الحين: «إن قاعدة توزيع الحلويات يجب أن تحترم بصرف النظر عن شرعية الزواج أو عدمها!».

بعد إعلان الزواج، اختلى الزوجان في حجرة الأميرة حياة النفوس، ولكن الأميرة بدور اكتفت بوضع قبلة صغيرة على خد الزوجة المفترضة، ثم تمنت لها نوما سعيدا، وانصرفت الى العبادة حتى نامت المسكينة حياة. خلال هذا المشهد كنا نتلوى من الضحك ونحن نرى شامة تشخص الزوج الزاهد وتصيح بها أمي: «كفاك صلاة وقومي إلى سعيك» ثم نسرع أنا وسمير لإنزال الستارة ورفعها

عدة مرات، كناية عن الليالي التي مرت، والزوج منصرف إلى صلاته، والأميرة تنتظر قبلاته سدى، والقاعة كلها تهتز من الضحك. وبعد عدة ليال فقدت الأميرة صبرها واشتكت إلى أبيها الملك القوي أرمانوس، فالأمير قمر كما قالت له لا يبدِ رغبة في أن يكون له منها طفل ويقضي ليله في العبادة.

غضب الملك كما كان متوقعا وهدد بأن يطرد الأمير من مدينة الأبنوس إذا لم يقم بواجبه كزوج. وفي تلك الليلة اعترفت الأميرة بدور للأميرة حياة بكل القصة من البداية حتى النهاية، وطلبت معونتها: «أستحلفك بالله أن تحفظي سري لأني ماالجأت إلى هذه الخدعة إلا ليمكنني الله من ملاقاة محبوبي قمر الزمان ثم ان الست بدور كشفت عن حالها وحكت لها ما جرى لها مع معشوقها زوجها قمر الزمان[-4-]».

وطبعا حدثت المعجزة، تعاطفت الأميرة حياة مع الأميرة بدور ووعدتها بمساعدتها، ثم اختلقت الفتاتان حادث افتضاض البكارة كما تشاؤه التقاليد[-5-] «فقامت حياة النفوس وأخذت دجاجة وقلعت سراولها وصرخت بعد ان ذبحتها وتلطخت بدمها وبلت منديلها. ثم أخفت الدجاجة ولبست سراويلها ونادت فدخل عليها أهلها وزغردت أمها وقبلت بدور وقالت بيض الله وجهك ياولدي»[-5-].

بعدها ادعتا بأنهما زوج وزوجة، وكانت الأميرة بدور تحكم المملكة وتنظم الغارات لملاقاة محبوبها قمر الزمان في نفس الوقت.

كانت النساء على السطح تصفقن لقرار الأميرة حياة بمساعدة الأميرة بدور التي جسرت على محاولة المستحيل. وبعد المسرحية كن يتحدثن بحرارة وحتى وقت متأخر من الليل عن المصير والسعادة، وعن طريقة الإفلات من الأول والبحث عن الثانية. وكان التضامن النسوي في رأي الكثيرات منهن أفضل وسيلة لبلوغ الهدفين معا.

- 16 -

السـطـح الممنـوع



كنت ولازلت أعتقد بأنه لايمكن تصور السعادة بدون سطح، والسطح الذي أعنيه لا علاقة له بسطوح المنازل الأوروبية، التي وصفها لنا ابن عمي زين بعد أن زار مملكة الانجليز، أحد بلاد الثلج الغريبة، حيث حشر الله النصارى المساكين الذين يقضون حياتهم يرتعدون من البرد. حكى لنا بأن الدور هناك لا تتوفر على سطح منبسط كسطوحنا الجميلة المبيضة، حيث نفرش المضربات ونزرع الأغراس والأشجار المزهرة. على العكس من ذلك سطوحهم مثلثة عموديا لكي تحمي دورهم من الثلج، وبالتالي كان من المستحيل الاستلقاء عليها دون الانزلاق مباشرة إلى الأسفل. إلا أن الصعود لم يكن ممكنا إلى كل سطوح فاس، إذ أن العليا منها بعيدة ويمنع الوصول إليها، لأنه قد يؤدي بصاحبه إلى الموت. طبعا كنا نحلم بالذهاب إلى السطح الممنوع علينا وهو أعلى سطح في الدرب، حيث لم يشاهد فيه طفل حسب علمي.

في المرة الأولى التي وطئت فيها قدمي هذا السطح الممنوع، لم أعد متأكدة إطلاقا من أنني رغبت في زيارته، أصبت بالفزع هناك إلى حد انقطعت معه أنفاسي وبدأت أرتعد ، ندمت على عصياني وتركي لسطحنا العادي المحاط بأربعة جدران ارتفاعها متران، كانت كل المآذن بما في ذلك مئذنة القرويين تمتد أمامي، وكأنها لعب صغيرة في

مدينة مصغرة، وفي نفس الوقت بدت لي السحب فوق رأسي قريبة بشكل خطير، ذات لهيب وردي مائل إلى الحمرة لم يسبق لي رؤيته في الأسفل. سمعت صوتا غريبا ومخيفا إلى حد أني اعتقدت في البداية بأن الأمر يتعلق بطائر خفي عملاق، ولكني عندما استفسرت مليكة، أجابتني بأن خوفي هو الذي يصور لي ذلك، أما الصوت فنابع من غليان الدم في عروقي، وقد استشعرت هي نفس الإحساس حين زارت السطح لأوّل مرة، وقالت بأنني لو شرعت في البكاء أو الشكوى ستساعدني على الهبوط، ولكنها لن تصحبني معها مرة أخرى، وعليّ حينها أن أتدبر أمري لفهم ماتعنيه كلمة الحريم، التي تشكل الموضوع الذي قررت هي وسمير مناقشته على السطح، لقد اختارا مهمة تحليل هذه اللفظة الصعبة، وكافآ نفسيهما بزيارة إلى السطح الممنوع، حيث كانت السرية التامة لازمة لأنهما لايريدان أن يعرف بها أحد.

همست بأنني لست خائفة وما كنت في حاجة إليه هو أن ينصحني أحد بطريقة لإزالة الطنين في رأسي، أمرتني مليكة أن أستلقي على ظهري، وأتجنب رؤية الأشياء التي تتحرك كالسحب أو الطيور مثلا، والتركيز على نقطة محددة، وبعدها ستغدو الأمور عادية لديّ وقبل أن أستلقي طلبت منها أن تخبر أمي إذا قررت مشيئة الله أن أموت على هذا السطح، وأطلعتها على دين استلفته من السي السوسي بائع الحمص واللوز المقلي الذي يدير حانوتا صغيرا قبالة الكتّاب، ذلك أن لللاالطام قالت لنا بأننا نذهب إلى النار إذا متنا وفي عنقنا ديون للناس، فالمسلم الصالح يؤدي ديونه حيا أو ميتا.

كان السطح الأعلى الذي يغطي السطح الذي نقدم فيه عروضنا المسرحية ممنوعا لأنه بدون حيطان، إلى حدّ أن أي حركة في غير محلها قد تقذف بك جثة هامدة إلى الأرض. فهو يعلو السطح الآخر بحوالي مترين، وهو في الواقع سقف لغرفة عمتي حبيبة، ولم يكن هناك درج

يؤدي إليه لأن المفروض ألا يصعد أحد، والوسيلة الوحيدة للوصول إليه هي ارتقاء السلم الذي كان في حوزة أحمد البواب. ولكن كل من في الدار كان يعلم بأن النساء اللائي يعانين من الهمّ، يتسلقن إلى هذا السطح للعثور على الهدوء والجمال اللذين كانا في حاجة إليهما. إن الاكتئاب أو ماكانوا ينعتونه لدينا بالهمّ مرض غريب، يختلف عن ذلك الذي تتسبب فيه المشاكل، ذلك أن المرأة التي تعاني مشكلا تعرف سر ألمها، في حين أن المرأة المهمومة لا تدري مصدر شقائها. أرعبتني فكرة الألم من جراء شيء لا أدري التعبير عنه: «إنني أفضل مئة مشكل على هَمّ واحد». ذلك ماصرخت به أمام عمتي حبيبة ذات يوم، حين دار الحديث عن الألم وأنا جالسة قرب «مرمة» طرزها، أجابتني: «هذه ليست طريقة ملائمة للتعامل مع الحياة يا ابنتي الصغيرة، مئة مشكل كثيرة عليك، الأفضل هو أن تنظمي حياتك حتى يكون لك مشكل صغير واحد كل مرة. بحيث تأخذين الوقت الكافي لتحليله بهدوء والتفكير فيه بصمت لكي تجدي الحل»، وكانت عمتي تقول بأن المرأة المحظوظة هي التي تحدد مصدر ألمها حيث تكون قابلة للعلاج، أما المصابة بالهم فلا تملك لنفسها شيئا، سوى القعود في صمت وعيونها مفتوحة، وذقنها مستند على راحة يدها، كما لو أن عنقها غير قادر على حمل رأسها.

جلست في ركن حين خلا السطح ذات يوم، وشرعت في التدرب على إسناد رأسي إلى راحة يدي، وعيناي تنظران إلى فراغ، وعنقي مائل إلى اليسار كما لو أنه لا يستقيم. فعلت ذلك لكي أهيء نفسي للمخاطر التي قد تعترض حياتي حين أكبر. ضبطتني أمي على هذا الوضع فجن جنونها: «لا تقلدي الشقاء أيتها الغبية، إنه فأل سيء! ثم إن الحياة بكاملها مجرد مسرح. إذا ماخضت الحياة بعنق مكسور سيحيلونك إلى فُتات. إرفعي رأسك عاليا رغم الألم ورغم الهم. وإذا ماضبطتك مرة أخرى في هذه الوضعية، سأحكي كل

شيء لللاالطام التي ستعرف كيف تعاقبك». ولأتجنب عقاب لللاالطام المخيفة قررت التخلي في الحين عن المشاكل والهم، والانصراف الى السعادة وحدها.

ونظرا لأن علاج النساء المصابات بالهم يتطلب الهدوء وجمال المكان، فقد كن غالبا ما يحملن إلى الأضرحة الموجودة في قمم الجبال كضريح مولاي عبد السلام بالريف، أو ضريح مولاي بوعزة في الأطلس، أو إحدى حفرات لللاعائشة المنتشرة على ضفا ف المحيط بين طنجة وأگادير[-1-].

كانت شامة تصاب بالهم أحيانا، وعموما كانت الأزمات تنتابها حين تستمع إلى أحد برامج إذاعة القاهرة، الذي يتحدث عن هدى شعراوي وحقوق النساء في مصر وتركيا. يعلوبكاء شامة وصراخها: «إن جيلي هو الضحية، الثورة تحرر النساء في مصر وتركيا وفي باقي أنحاء الإمبراطورية العثمانية سابقا، أما نحن هنا فيلفنا النسيان. إننا لا نعيش في عالم تقليدي ولكننا لم نستفد بعد من امتيازات الحداثة، ونحن محاصرات بين الإثنين كفراشات تائهة». حين كانت شامة تبكي كنا نغمرها بحناننا حتى تستعيد عافيتها.

هناك امرأة أخرى في البيت تتسلق الحائط إلى السطح السري أحيانا هي عمتي حبيبة، وقد كانت تفعل ذلك عندما أتت للإقامة معنا بعد طلاقها، وبفضلها تعلمنا الصعود دون سلم، لقد كنا نحن الأطفال نعرف هذا السر لأنها كانت تعتمد علينا في مراقبة الساحة والدرج حين تشاء الصعود. كانت تستعمل عمودين كبيرين من الأعمدة التي تشد إليها حبال نشر الغسيل كسلم، ولم يكن الأمر سهلا، كان عليها أولا أن تركز العمودين في جرات الزيتون المحشوة بالوسائد لخنق كل صوت أو ارتطام، ثم تشبك الطرفين الأعلى للعمودين حتى يشكلا درجا تصعده، وتحتها تصنع أدراجا أخرى

بالأكياس الموجودة على السطح. وبفضل هذه الأخيرة كانت تحصل على علو كاف، وتعتمد على العمودين المتشابكين للتسرب إلى السطح الممنوع.

لم تكن هذه الفكرة لتخطر على بالنا لو لم نر عمتي حبيبة تطبقها. لقد كانت جرات الزيتون ضرورية شأنها في ذلك شأن العمودين. كنا نتسلم الزيتون الأسود القادم من الجبال الموجودة شمال فاس في أكتوبر، نضعه في سلال كبيرة من القصب، ونرشه ونثقله بالأحجار حتى يتخلص من عصاره المرّ بالملح، وبعد أن يتم ذلك ننقله إلى جرات كبيرة من الطين، وندعه يجف فيها على السطح خلال السنة بأكملها. ومن حين لآخر تنشره عمتي حبيبة على ثوب في أحد أركان السطح ثم تعيده إلى الجرات. إنها تقول بأن الزيتون على عكس النساء لايكون جيدا إلا إذا جف وانكمش. وابتداءا من آواخر فبراير نشرع في استهلاكه، بحيث أن النساء المكلفات بإعداد الفطور يأتين بقدر منه كل صباح، لأننا كنا غالب الأحيان نتناول فطورا لذيذا يشمل الزيتون الأسود والشاي والخليع والخبز. كنت أحب الفطور ولم يكن ذلك من أجل الزيتون فحسب، بل من أجل الشهِيوَات التي كانت تهيئها النساء اللواتي لا يكتفين بما يقدم على المائدة، وبما أن الأكل دون مشاركة الآخرين يعد عيبا، فإن الفطور يتحول بفضل هذه الشهيوات إلى حفلة حقيقية، إذ أن معدّاتها كن يهيئن القدر الكافي لإرضاء أهل البيت. كانت البعض منهن يأتين ببيض الدجاج أو الإوز، وتأتي أخريات بالعسل المعطر بنكهة الأوكالبتوس القادم من غابات منطقة القنيطرة أو بالإسفنج. كنت أفضل الفواكه النادرة أو الأجبان المملحة التي تصنع في الريف الذي يقدم على سعف النخيل. لنعد إلى الزيتون الأسود، لقد كنا نحن الأطفال نحب أكله، ولكننا كنا نبتهج أكثر عندما تفرغ جرات الزيتون من محتواها الواحدة تلو الأخرى، لأننا نستعملها في أغراض كثيرة، ولم يكن الصعود الى

السطح إلا واحدا منها.

كانت نتائج أول زيارة لنا للسطح الممنوع هزيلة، بعد أن استعدنا الأنفاس انبهرنا بهدوء المكان وجماله، وجلسنا في صمت ننظر دون أن نتحرك لأننا كنا نحن الثلاثة مشدودين إلى بعضنا البعض، بحيث أن كل حركة تشكل مصدر إزعاج، ومن ثُمّ احتج سمير ومليكة لمجرد كوني جمعت ظفيرتي على قمة رأسي، ثم طرحت هذه الأخيرة سؤالا بسيطا: «هل الحريم هو البيت الذي يعيش فيه رجل مع عدة زوجات؟»، كان لكل منا جوابه، أجابت مليكة بنعم، لأن ذلك هو الوضع السائد في أسرتها، إذ أن أباها عمي كريم متزوج من امرأتين: «بيبة» أم مليكة و«خناتة». قال سمير بالعكس، لأن هناك حريما بزوجة واحدة كما هو الشأن بالنسبة لوالده عمي علي وكذا والدي، وكان جوابي أعقد من ذلك، إذا ما اعتمدت حالة الياسمين سأجيب بنعم، أما إذا انطلقت من حالة أمي فسأقول بالعكس، ولكن الإجابات المعقدة لا تنال إعجاب الآخرين، وتؤلبهم عليك لأنها تضاعف من الخلط الذي يعانون منه، ولذلك فضلت مليكة وسمير أن يتجاهلا رأيي، واستمرا في نقاشهما، في حين انصرف انتباهي إلى السحب التي تبدو قريبة أكثر فأكثر. وأخيرا قررا بأننا انطلقنا من سؤال بالغ التعقيد، وأن علينا أن نعيد الكرة ونطرح سؤالا بليدا: «هل يتوفر كل الرجال المتزوجين على حريم؟» كنا نعرف نحن الثلاثة بأن أحمد البواب متزوج، وهو يسكن قرب المدخل مع زوجته وأطفاله الخمسة في منزل صغير ذي غرفتين وباحة، ولكن بيته لم يكن حريما، وبالتالي لا علاقة للحريم بالزواج.

سألت بدوري: «هل يعني ذلك بأنه لا يكون لك حريم إلا إذا كنت غنيا؟» اعتقدت بأنني ذكية لطرحي هذا السؤال، ويبدو أنه كان ممتازا لأن سمير ومليكة لم يقدما إجابة عنه، وبعدها طرحت مليكة التي كانت تستغل الامتياز الذي يمنحها إياه السن سؤالا كبيرا ووقحا

فاجأنا وقعه: «قد يكون للرجل ذكر كبير تحت جلبابه ليتوفر على حريم، وقد يكون ذكر أحمد صغيرا جدا؟» وضع سمير حدا لهذا النوع من الأسئلة، وقال بأن لكل منا ملكين يسجلان حسناته وسيئاته، أحدهما على يمينه والآخر على شماله، ويوم القيامة يفتح السجل فنذهب إلى الجنة أو النار حسب أعمالنا. وحين سألناه عن مصدر معلوماته أجابنا بأنه من معلمتنا لللاالطم، فقررنا أن نتجنب كل مايناقض الحلال، ويؤدي إلى اقتراف الذنوب. ولذلك حاولت جاهدة من يومها أن أنسى إمكانية وجود علاقة سرية بين حجم ذكر الرجل وحقه في امتلاك حريم.

حين صعدنا إلى السطح في المرة الثانية، أحسسنا براحة أكبر لأن الارتفاع لم يرعبنا كما هو الشأن في البداية، كما أننا كنا نعرف بأن علينا الالتزام بما هو جائز وحلال في حديثنا، ومن ثُمّ كان سؤالنا هو: «هل يمكن أن توجد أكثر من عائلة في الحريم؟» كان السؤال صعبا فلبثنا صامتين غارقين في تفكيرنا خلال عدة دقائق. ثم قال سمير بأن ذلك ممكن في بعض الحالات وغير ممكن في بعضها الآخر، وقارن بين حريمنا وحريم عمّي كريم أب مليكة. في حالة عمي ليس هناك إلا رب عائلة واحد، أما في حالتنا نحن فهناك إثنان والدي وعمي، رغم أن سلطة هذا الأخير أكبر لأنه الأغنى والبكر، ولكنهما معا يتخذان القرارات ويقبلان أو يرفضان إعطاء الإذن.

تقول الياسمين بأنه من الأفضل وجود ربين للعائلة عوض واحد، إذا لم تحصلي على إذن أحدهما تكون لك إمكانية تجريب حظك مع الآخر. أما في بيت مليكة فإن هذا الحظ منعدم حين يُسأل عمي كريم منح إذن ما، إما أن يقبل أو يرفض، وكلا الموقفين قاطع لارجعة فيه. حين شاءت مليكة أن تقضي النهار معنا في البيت بعد خروجنا من الكتّاب، رجته طيلة أسابيع ولكنه رفض بشدة، قائلا بأنه يجب على الطفلة أن تعود إلى بيتها بعد المدرسة، وأخيرا حصلت مليكة

على مؤازرة لللامهاني ولللاراضية وعمتي حبيبة، اللواتي أقنعنه بأن دار أخويه كداره، ثم إن مليكة لاتجد أحدا في سنها لكي تشاطره اللعب، نظرا لأن جميع أخواتها وإخوتها أكبر منها سنا.

كلما كثر عدد أرباب العائلة كانت هناك حرية أكبر وفرص أكثر للتسلية، ذلك هو الوضع السائد في ضيعة الياسمين. لقد كان جدي التازي يملك السلطة العليا طبعا، ولكن ابنيه الحاج سالم والحاج جليل كانا هما الآخران يملكان سلطة القرار، وحين يغيب جدي ينوبان عنه، ويقومان بدور الخليفة. تحتج الياسمين وتعلن بأن جدي منحها الإذن بالنزول إلى النهر للصيد قبل ذهابه في الفجر، الشيء الذي لايستطيع الابناء رده لأنهما لايستيقظان قبل الثامنة صباحا، أما الياسمين فكانت تغادر فراشها في وقت باكر جداً، وتقول لي بأن عليّ الاستيقاظ قبل الطيور إذا شئت أن أكون سعيدة في الحياة: «وحينها تنساب حياتك كزربية حرير في بستان، تغريد الطيور يبعث فيك السعادة وأنت تجلسين بهدوء لتفكري في يومك. على المرأة أن تفكر خلال ساعات في صمت كما لو كانت تلعب الشطرنج إذا شاءت أن تكون سعيدة، عليها أن تضبط خطوتها المقبلة وأن تحدد منذ البداية من يملك سلطة عليها، إن هذه المعلومة أساسية، بعدها عليها أن تخلط الأوراق والأدوار، وذلك أمر مهم. إن الحياة لعبة، اعتبريها كذلك واضحكي منها». السلطة واللعب: لفظتان كثيرا ماترددان في أحاديثنا، وفكرت بأن الحريم ذاته قد يكون لعبة بين النساء والرجال الكبار الذين يخافون بعضهم البعض، ويحتاجون دائما إلى إثبات قوتهم كما نفعل نحن الأطفال، ولكنني لم أشأ الإدلاء بفكرتي هذه إلى مليكة وسمير تلك الظهيرة لأنها بدت لي خرقاء، ولأن ذلك يعني بأن الكبار كالأطفال.

حين غادرنا السطح كنا منصرفين إلى بحثنا، إلى حد لم نلاحظ معه السحب الوردية المتجهة نحو الغرب أي نحو المحيط الذي كنا

نجهله، ولم نجد إجابة على أسئلتنا، بل إن الخلط صار يطبع ذهننا أكثر من السابق، ولذلك هرعنا الى عمتي نطلب منها المساعدة، كانت منهمكة في الطرز ورأسها منحن على المرمة، والمرمة تشبه منوال النسج ولكنها أصغر وأخف، وهي آلة شخصية إذ أن المرأة تضبطها حسب قامتها حتى لا تكون مضطرة الى الانحناء عليها أكثر من اللازم. إن الطرز عمل فردي، ولكن النساء غالبا مايجتمعن لتبادل الحديث، أوعندما يحضرن مشروعا يتطلب عملا متواصلا.

كانت عمتي حبيبة تطرز طائرا أخضر ذا جناحين ذهبيين، وهذا الطائر الذي يفرد جناحيه لا يدخل في إطار النماذج التقليدية، ولو رأته لللامهاني لقالت بأنه بدعة فظيعة يدل على أن مبدعته لا تفكر إلا في الإفلات. طبعا كانت هناك طيور في النماذج التقليدية، ولكنها بالغة الصغر ومشلولة ومحاصرة بين الأشجار الكبيرة والورود المتفتحة. وكان الخوف من لللامهاني يدفع بعمتي حبيبة إلى تطريز النماذج التقليدية في وسط الدار، والاحتفاظ بطائرها المفرود الجناحين في غرفتها.

كنت أحب عمتي، كانت بالغة الصمت والاستعداد في الظاهر لتلبية كل ماينتظره منها عالم خارجي قاس، ولكنها أفلحت رغم كل ذلك في التشبث بجناحيها. كانت تمنحني رؤية مطمئنة عن المستقبل: بإمكان المرأة العاجزة تماما أن تمنح معنى لحياتها وهي تحلم بالتحليق. انتظرنا أنا وسمير ومليكة حتى ترفع عمتي رأسها، ثم شرحنا لها الأمر، وكيف أننا نقع في الخلط كلما شئنا توضيح مسألة الحريم. استمعت إلينا باهتمام وقالت بأننا وقعنا في تناقض، الشيء الذي يضاعف من حيرتنا: «وحين نكون حائرين كما تقول لا نحس بأننا أذكياء، ولكن إذا شئتم أن تصبحوا كبارا عليكم أن تتعودوا على استغلال كل تناقض». صحنا جميعا: كيف ذلك؟ المرحلة الأولى حسب قولها تتطلب الصبر، لأنه الوسيلة الوحيدة لتجاوز تناقض

ما. عليكم أن تقبلوا بواقع أنكم كلما حاولتم الإحاطة بسؤالكم، تختلط الأمور عليكم لأن الأجوبة تتشابك وتسير في كل الاتجاهات، ولكن ذلك لا يجب أن يؤدي بكم إلى التخلي عن أعظم ما وهب الله للإنسان وهو العقل، أضافت عمتي: «تذكروا بأن لا أحد يعثر على حل لمشكل إذا لم يطرح الأسئلة».

تحدثت عمتي أيضا عن الزمن والمكان وعن اختلاف الحريم حسب الأماكن والأزمنة، إذ أن الحريم في المغرب ليس هو حريم أندونيسيا، كما أن حريم الخليفة العباسي هارون الرشيد ببغداد في القرن التاسع، لا يشبه البتة حريمنا. لقد كانت جواريه شابات مثقفات، يدرسن كتب التاريخ وخطط الحرب والفقه حتى يجلبن له المتعة عن طريق المعرفة. ولم يكن الرجال في ذلك العصر يرغبون في مصاحبة نساء أميات، وماكان بإمكانك إثارة انتباه الخليفة إذا لم ينبهر بمعلوماتك في الجغرافيا والأنساب والشرع وعادات وتقاليد البلاد الأجنبية وعلوم أخرى! ومهما كان الأمر تضيف عمتي، لقد انقضى عصر الخلفاء العباسيين، وغدا الحريم الآن يعج بنساء أميات، الشيء الذي يبرز مدى تخلفنا عن التقاليد. أما بشأن القوة، فلم يعد القادة العرب فاتحين بل أصبحوا مهزومين تدوسهم الجيوش الاستعمارية. لقد كان العرب أسياد الدنيا حين كانت الجواري ذوات علم واسع. أما الآن فقد تقهقر الرجال والنساء، ولكن تعطشنا للمعرفة دليل على أننا بصدد الانبعاث والتخلص من الإهانات التي وجهها لنا الاستعمار.

كنت أنظر إلى سمير خلال حديث عمتي لأعرف ما إذا كان يفهم ماتقوله، كان يبدو حائرا هو الآخر، لا حظت عمتي حرجنا لأنها أدركت عجزنا عن تتبع ماتقوله، فأضافت بأن علينا ألا نقلق لأن المهم الآن هو أننا نتقدم في فهمنا للأمور رغم أننا لا نستشعر هذا التقدم، والشيء الوحيد الذي يجب أن نقوم به هو متابعة المهمة التي

حددناها لأنفسنا، والتي تتمثل في الإحاطة بمفهوم هذا الحريم الذي نحتار بشأنه.

بعد ذلك بأسبوع تطرقت مليكة خلال زياراتنا للسطح الممنوع الى مسألة العبيد، وتساءلت عما إذا كان وجود الحريم رهينًا بوجود عبيد. رد سمير بأن السؤال ينم عن الغباء لأنه لا وجود للعبيد عندنا، ولكن مليكة قاطعته متسائلة عن دور مينة التي تقيم معنا والتي كانت أمة حتى وقت قريب؟ رد سمير بأن حضورها تم بالصدفة وبأنها لا تملك زوجا أوطفلا ولا يعرف لها أهل، ولذلك أقامت معنا لكونها لا تعرف أحدا أو مكانا تقصده، إنها مجتثة الأصل أو مقطوعة كشجرة بدون جذر.

منذ زمن بعيد، قبل أن يولد آباؤنا، انتزعت مينة من السودان جنوب الصحراء بلدها الأم، وبيعت في سوق النخاسة بمراكش، وأعيد بيعها في عدة أسواق، حتى اليوم الذي جاءت فيه إلينا لتشتغل كطباخة، وبعدها بفترة طلبت من عمي علي أن يعفيها من الأعباء المنزلية حتى تعتزل في السطح وتنصرف إلى العبادة.

- 17 -

مينة، المقطوعة



كانت مينة تلازم السطح الأسفل وتجلس متجهة نحو القبلة على هيدورة (جلد خروف) بالية، تستند إلى الحائط الغربي، وتضع وراء ظهرها وسادة من الجلد بلون الزعفران صنعت في موريطانيا. منديل شعرها وخفاها من نفس اللون، وهما يضفيان على وجهها الأسود الهادىء نورا عجيبا، لقد كان محكوما عليها بارتداء اللون الأصفر لأنها مملوكة من طرف جن أجنبي، يمنع عليها ارتداء ألوان أخرى. إن الجن أرواح ذات سلطة خارقة تسيطر على الإنسان وتملي عليه رغباتها، كأن يرتدي ألوانا معينة، أو يرقص على نغمات موسيقى خاصة، حتى ولو تعلق الأمر ببلدان يعتبر رقص النساء فيها خروجا عن الحشمة.

جرت العادة أن يرتدي الكبار المحترمون ألوانا لا تلفت الانتباه، ولا يرقصون إلا نادرا، بل إنهم لا يفعلون ذلك أمام الملإ. ووحدهم النساء والرجال الخرقى يرقصون في الأمكنة العامة كما تقول للامهاني، الشيء الذي يكون له وقع الصاعقة على أمي، ويبعث بالياسمين على السخرية: نساء فاس اللائي يجهلن البلاد ومايحدث فيها لا يحركن عجيزتهن الضخمة أبدا، ولكن الناس في البادية المغربية التي أفخر بالانتماء إليها، يرقصون للاحتفال بالمواسم رجالا ونساءا وأطفالا، فتخف أرجلهم وتستيقظ أذهانهم». لم يكن الدفاع عن العالم

القروي أمرا سهلا بالنسبة لأمي المحاصرة في مدينة فاس، ورغم ذلك كانت تحاول وتكرر على مسامعي بأن على الإنسان أن يفخر دائما بأصوله. لقد كان جدي من سكان المدن، وكانت جدتي الياسمين من البادية، وكانت تعقب على لللامهاني بأن أغلب أهل البادية بالمغرب يرقصون في المناسبات الدينية، فيكونون مجموعات من الرجال والنساء والأطفال ويقفزون على ايقاع الأنغام حتى الصباح، وهؤلاء الناس هم الذين ينتجون مايأكله سكان البلاد: «كنت أظن بأن الناس الخرقى لا يؤدون عملهم كما يجب»، تقول أمي ذلك بنبرة ساخرة، فتجيبها لللامهاني للتو بأن الفلاحين قد يقدمون الطعام لأهل المدن، ولكن دخولهم الجنة ليس مؤكدا، لأنهم غير متفقهين في الشريعة: «وقد يغفر الله لهم، إنه سبحانه وتعالى غفور رحيم»، ذلك ماكانت تضيفه وهي ترى أمي وقد بلغ بها الاستنكار مداه. إن المشكل في الرقص حسب لللامهاني هو أن الإنسان يفقد الإحساس بالحدود حين يملكه الجن، وهي تشير بذلك إلى حفلات رقص الحضرة التي كانت تتردد عليها مينة: «النساء المملوكات يقفزن في الهواء على النغم، ويتلوين، ويفقدن حشمتهن في الحضرة وهن يحركن الأيدي والأرجل فوق رؤوسهن».

أما مينة فقد احتفظت من طفولتها بمقاطع من لغتها الأم في بلاد السودان من حيث أتت، ولكنها مجرد أغان غير ذات معنى سواء بالنسبة إليها أو بالنسبة للآخرين. كانت تؤكد أحيانا بأن دقات الطبول في الحضرة تذكرها بأنغام سمعتها في طفولتها، ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك دائما. كان بإمكانها وصف أشجار وفواكه وحيوانات لم يرها أحد في فاس، إلا أننا كنا أحيانا في حكايات عمتي حبيبة، ونحن نقطع الصحراء في قافلة ذاهبة نحو تومبوكتو، نجد مينة تطلب من عمتي تفاصيل أكبر، حينها تلجأ هذه الأخيرة التي لا تعرف القراءة إلى شامة، فتهرع إلى الطابق الأول لتأتي بكتب الجغرافيين العرب،

وتبحث عن تومبوكتو في الفهرس، وتقرأ لنا بصوت عال عدة صفحات عسى أن تعثر مينة على شيء من طفولتها، فتظل جالسة وكلها آذان صاغية، وتطلب أحيانا من شامة إعادة بعض المقاطع وخاصة منها تلك التي تتحدث عن سوق أو حي: «قد أعثر على أحد أعرفه - ذلك ماتقوله مينة ويدها تداري ابتسامة خجولة تراود شفتيها - قد ألتقي بأخي أو أختي، أو صديق طفولة يتعرف علي»، ثم تعتذر لأنها قاطعت الرواية.

كانت مينة مقطوعة أي بدون أهل، مسنة وفقيرة، ولكنها تملك نبعا فياضا من الحنان يغمر كل من يحيطون بها، إن الحنان موهبة إلهية ونبع لا ينقطع، وقليل هم الأفراد الذي يملكون كل هذه القدرة على إضفاء الحب والعطف على الآخرين دون طلب مقابل، ومنهم الأولياء وبعض الناس المحظوظين، ومينة تدخل ضمن هؤلاء. إنها نادرا ماتعبر عن الغضب، ولا تصرخ إلا إذا رأت أحدا يضرب طفلا.

كانت تشطح مرة في السنة بمناسبة المولد النبوي، فتشارك في حفلة گناوة التي تنظم بدار سيدي بلال، وهو أشهر من يخلص الإنسان من إصابات الجن في منطقة فاس. كان سيدي بلال كشأن مينة من أصل سوداني،وقد كان في البداية عبدا، ولكنه أظهر قدرات خارقة على صرع الجن وتنظيم حفلات الحضرة، إلى حد أن أسياده رأوا فيه مكسبا تجاريا، وحولوا الحضرة إلى مؤسسة مربحة، ولم يكن بالإمكان حضور تلك الحفلات دون دعوة.

قد يصيب الجن العبيد كما يصيبون الأسياد وسائر الناس، ولا شيء يقف في وجههم، إلا أنهم حسب مايبدو ينتقون زبناءهم من ضمن الضعفاء والمجردين من كل حماية، والفقراء هم أكثر أتباعهم حماسا: «إن الحضرة بالنسبة للأغنياء كما تشرح مينة مجرد تسلية، أما بالنسبة لامرأة مثلي، فهي تمثل الحظ الوحيد في الخروج، والإفلات من المصير والخروج عن المألوف، والسفر». وبالنسبة لرجل أعمال

كسيدي بلال طبعا كان حضور نساء من الطبقات العليا أمرا حيويا، إذا أنهن يأتين محملات بالهدايا الثمينة، حضورهن وكرمهن يعد في رأي الجميع تعبيرا عن التضامن النسوي، ومساعدتهن كانت ضرورية.

موقف الوطنيين ومعهم لللامهاني معاد لهذه الحفلات التي ينعتونها بالشعوذة المنافية للاسلام والشريعة، ويشاطرهم الرأي أرباب العائلات الكبرى، ولذلك تذهب النساء إلى حفلات گناوة في سرية تامة لأن أبي وعمي يعارضانها، بيد أن كل نساء وأطفال الدار كانوا على علم بتاريخ المولد الذي تحضره مينة، ويصرون جميعا على مصاحبتها، إذ أن حضور صديق ضروري في شطحات الحضرة، نظرا لأن الإنسان قد يصاب بالإغماء بعد إجهاد الرقص والغناء خلال ساعات، وبما أن مينة محبوبة جدا فالكل كان. . مستعدا لمصاحبتها والقيام بدور الصديق. ولكن الواقع هو أننا، بصرف النظر عن الصداقة، كنا منجذبين إلى هذه الحفلة التي تخرق العادات، حيث ترقص النساء خلالها وعيونهن مغمضة وشعورهن مسدلة تتطاير، ضاربات عرض الحائط بالوقار والحشمة.

نجحنا أنا وسمير في الذهاب إليها بانتظام تقريبا، وكنا نهدد بإفشاء الأسرار لوالدي وعمتي إذا رفضت النساء اصطحابنا، والواقع أن هذه المساومة كان تمنحنا سلطة خارقة وتضمن لنا حضور كل الحفلات المحرمة، كانت دار سيدي بلال كبيرة كدارنا، ولكنها لا تتوفر على بلاط رخامي أو خشب مزين. تبتدئ الحضرة بحضور مئات النساء مرتديات ملابسهن ومزينات بعناية كبرى، مصطفات على المضربات الموضوعة على طول حيطان وسط الدار المربعة. أذرعهن متشابكة وهن يحطن «بالمرياحة» أي التي لم تستطع مقاومة الريح وانسابت معه. كان سيدي بلال يقف وسط ساحة الدار مرتديا كسوة خضراء واسعة وعمامة صفراء وخفين من نفس اللون، يحيط به جوق

من دقاقي الطبول وعازف على «الگنبري» وآخر على الصنج. كانت الحجرات الأربع المحيطة بوسط الدار تعج بنساء العائلات الغنية اللائي حملن أغلى الهدايا، ولايرغبن في الرقص أمام الملإ. أما الفقيرات فكن جالسات في وسط الدار. كؤوس البلور تلمع في صواني الشاي الفضية والمقاريج النحاسية مليئة بالماء الساخن موزعة على جوانب وسط الدار وفي كل حجرة. وبعدها يفرض علينا السكوت التام.

كانت القاعدة السائدة في كل مناسبة بالنسبة لنا نحن الأطفال، سواء كانت دينية أو غير دينية، هي البحث عن مكان وملازمته، الجلوس بدون حركة هو الشرط الذي كان يجعل وجود الأطفال مقبولا رغم أن الجميع كان ضد حضورهم. وبما أن عددنا كان يربو على العشرة نحن أطفال العائلة الذين نود مرافقة مينة، فقد فرضت عمتي قانونا بسيطا ولكنه صارم: من تزحزح عن مكانه ثلاث مرات، وحاول أن يجري أو يكلم الأطفال الآخرين يطرد في الحال. لم أكن أجد صعوبة في الامتثال للأمر، لأنني كنت متلهفة على مشاهدة هذا العرض الممنوع، في حين كان سمير لا يستطيع الالتزام به حتى النهاية، وفي إحدى المرات صرخ وهو يلعن سيدي بلال قبل أن تقوده عمتي إلى الباب، وفي السنة التالية اضطرت إلى صنع عمامة صغيرة يخفي بها خصلات شعره حتى لا يتعرف عليه قائد الحفل.

كان الجوق يعزف بإيقاع هادىء في البداية إلى حد أن النساء كن يتابعن أحاديثهن وكأن شيئا لم يحدث، ثم تدق الطبول إيقاعا غريبا بشكل مفاجيء، وتقفز كل «المرياحات»، ويرمين بالمناديل والخفين، وينحنين إلى الأمام يحركن رؤوسهن يمينا وشمالا فيتطاير شعرهن. أحيانا كانت حركات الرقص العنيفة ترعب سيدي بلال الذي يخشى أن يلحق الراقصات ضرر، فيوميء إلى الجوق حتى يخفض الإيقاع، ولكن ذلك لم يكن يفيد غالب الأحيان، إذا أن النساء لا يأبهن

بالموسيقى، ويتابعن الرقص حسب إيقاعهن الخاص، وكأنهن يوحين بأن قائد الحفلة لم يعد يتحكم في الوضع. تبدو النساء كما لو أنهن يتحررن دفعة واحدة من كل الضغوط الخارجية، وكانت الابتسامة تعلو وجه الكثيرات منهن وعيونهن نصف مغمضة، وكأنهن خارجات لتوهن من حلم سعيد. وفي نهاية الحفلة كن يسقطن على الأرض مرهقات نصف واعيات، حينها تحملهن صديقاتهن ويهنئنهن ويرششن وجوههن بماء الورد. كانت الراقصات تستعدن قواهن شيئا فشيئا ويعدن إلى أمكنتهن كما لو أن شيئا لم يحدث.

ترقص مينة متمهلة مصاحبة حركتها بهزة خفيفة للرأس من اليمين إلى الشمال وجسمها مستقيم، كانت تتفاعل مع الإيقاع الهادىء، ولكنها تبدو كما لو أنها تتابع إيقاعا داخليا. كنت أعجب بها لسبب لم أفهمه لحد الآن، ربما لأني فضلت دائما الحركات البطيئة، وتخيلت (ولازلت) بأن الحياة رقصة موزونة هادئة ورقيقة، أو لأن مينة كانت تنجح في القيام بدورين متناقضين: الرقص مع مجموعة والاحتفاظ بإيقاعها الخاص، وكنت أود أن أرقص مثلها مع الآخرين، وأن أتبع نغمي الخاص النابع من مصدر داخلي غريب، أقوى من الطبول، ولكنه أرق وأبعث على التحرر. ذات يوم سألت مينة عن السر في كونها ترقص ببطء، في حين أن باقي النساء يؤدين حركات عنيفة خرقاء، فأجابتني بأن الكثيرات منهن يخلطن بين التحرر والعصبية «بعض النساء غير راضيات عن حياتهن ورقصتهن تعبير عن ذلك»، إنهن يصبحن رهينات لغضبهن الذاتي ولا يستطعن الإفلات أو التحرر منه، ياله من مصير سيء!. إن أفظع السجون هو ذلك الذي نحاصر فيه أنفسنا. شعرت بخوف مفاجيء، وأنا أسمعها: «ماذا أفعل يامينة لكي لا أصبح امرأة فريسة لغضبها؟ كيف يمكن أن نفلت من قوة تنبع من الداخل؟ بإمكاني أن أنتبه وأن أدافع عن نفسي ضد قوة خارجية، ولكن ما العمل تجاه إحساس داخلي

أهوج كالغضب؟ انظري حميد ابن جارنا الشاوي؟».

كان حميد هذا يقضي معظم نهاره في الصراخ والتنديد بمؤامرات سكان المدينة ضده، وقد أمرونا منذ الصغر بألا نجيبه وأن نتجنب الحديث معه لأنه خرج عن عقله. انشغلنا أنا وسمير أياما عدة بعقل حميد فشرحوا لنا في النهاية بأن مشكلته هي الغضب: إنه يصرخ عوض أن يفسر للناس مايريده، والنتيجة تكون دائما سلبية: لا أحد يريد التحدث إليه، وبما أن الصراخ يجهده، فهو ينام في وقت مبكر. كنت مرعوبة بفكرة استبداد الغضب بي من الداخل، انفجرت مينة ضاحكة وكانت نادرا ما تضحك: «ستكونين سعيدة لأنك تبسطين الأمور، إنك تتحدثين عن السعادة والغضب والحزن كعمليات ميكانيكية وكأشياء يسهل ضبطها والتغلب عليها، أو خلقها وتنميتها مثل أنبوب بإمكانك تشغيله أو إيقافه. لست أدري كيف يتخلص الإنسان من غضبه دون صراخ، ما أعرفه هو أن الرقص الهادئ، على نغمات ممتعة قد يساعد على التخفيف منه. وعلى كل حال فالغضب يختبيء في العضلات، وعلينا استعمال الجسد والقدمين والذراعين والعنق لتفريغه».

كان جوق كناوة حسب الأسطورة يتشكل من رجال سود قدموا من بلد ان بعيدة وغريبة في عمق الصحراء، لقد أتى هؤلاء العازفون من بلاد «غانا»التي تمتد أبعد من الصحراء والأنهار جنوبا حتى عمق السودان. وحين صعدوا نحو الشمال صحبوا معهم أمتعتهم وأغانيهم وإيقاعاتهم السحرية، كانت مدينتهم المفضلة هي مراكش المشرعة على الصحراء. لاتشبه مراكش الحمراء مدينة فاس في شيء، حيث السكان قلقون ومتحفزون ومصرّون على التخطيط لكل شيء، قصد تجنب المفاجآت. توجد فاس بالقرب من الحدود المسيحية والمتوسط، تهب عليها رياح الشتاء الباردة، أما مراكش فهي على العكس من ذلك منسجمة مع الروائح الإفريقية، بحيث تصلنا عنها دائما قصص

عجيبة. نادرون منا من زاروا مراكش ولكن كلا منا يعرف تفاصيل عجيبة عنها.

الحيطان في مراكش حمراء، وكذا الأرض التي نسير عليها، إنك تكون محظوظا في فاس إذا لم تَغرق قدماك في الوحل، أما مراكش فحارة كالجمر، ولكن الثلج قريب منها دائما يلمع في قمم جبال الأطلس التي تمتد عبر عدة بلدان. في العصور القديمة كان أطلس إلها إغريقيا يعيش مع الآلهة الأخرى في المتوسط، لقد كان جبارا يتصارع مع عمالقة آخرين، وذات يوم انهزم في معركة مهمة، وأتى للاختباء في الشواطيء الافريقية، واستلقى لينام فوضع رأسه بتونس وامتدت قدماه حتى مراكش. وجد فراشه مريحا إلى حد أنه لم يغادره وأصبح جبلا. تزور الثلوج أطلس كل سنة، وهو يبدو سعيدا بقدميه المشدودتين إلى الصحراء، وسجنه الذهبي، وبريق الثلج الذي يلمع في عيون معجبيه.

تلتقي في مراكش أساطير الشعوب البيضاء والسوداء. إنها المدينة التي تتعانق فيها اللغات وتمتزج فيها الديانات وتقيس قوتها أمام اختبار صمت الصحراء اللانهائي. في مراكش يكتشف أتباع كل الديانات فجأة بأن الجسد مقدس وأن الباقي بما في ذلك الروح والعقل خاصة، برهبانه العتاة وحراسه القساة، لا يصمد أمام دقات الطبول. يقول المسافرون بأن الناس يرقصون في مراكش حين لا تسعفهم لغتهم المختلفة على التواصل. كنت أحب فكرة هذه المدينة التي تدخل في الحضرة كلما غدت الكلمات حواجز تحول دون التفاهم، قلت لنفسي بأن ذلك يحدث في دار سيدي بلال، حين تستمد النساء قوة متجذرة من منبع الحضارات القديمة المنسية، ويعبرن بالرقص عن كل الرغبات المكبوتة.

كان الجن القادمون من أماكن بعيدة ومجهولة يملكون الاجساد ويحادثونها بلغة مألوفة. أحيانا يلاحَظ عازف أبيض في مجموعة سيدي

بلال، حينها تحتج النساء الموسرات اللائي مولن الحفل «كيف يمكن للإنسان أن يعزف موسيقى گناوة وأغانيهم إذا كان أبيض كحبة أسبرين؟» لقد كن يصرخن ضد هذا التجاوز، أما سيدي بلال فكان يحاول أن يشرح لهن بأنه بإمكان الإنسان الأبيض أن يتشرّب أحيانا ثقافة گناوة ويتعلم موسيقاهم وأغانيهم، ولكن النساء كن حاسمات: على عازفي الجوق أن يكونوا سودا ومن مصلحتهم أن يتكلموا العربية بلكنة، وإلا كيف سيتعرفون عليهم إذا كانوا مجرد مغاربة مبتذلين ذوي بشرة غامقة تعلموا عزف الطبول؟ والواقع أنه بعد قرون من التجارة والمبادلات عبر الصحراء كان هناك فاسيون ذوو لون أسود ينافس في سواده لون سكان السينغال، ولكن ما ان يتفوهوا بكلمة حتى تتعرف عليهم، فلثغتهم لا تدع مجالا للشك بحيث أن الجاذبية التي يخولها لهم وضعهم كأجانب تتطاير في الهواء. وعلى كل فالمغاربة السود غير ملائمين لأنهم إن خدعوا النساء غير قادرين على خداع الجن، ثم إن هدف الحضرة بالذات هو التواصل مع الجن في لغتهم الغريبة. أليست الحضرة قفزة نحو عالم مجهول؟ لقد كانت النساء في جميع الحالات يفضلن مجموعة گناوية أصيلة لأنهن لايقبلن بأن يكن عرضة لفرجة مواطنيهن من عامة المدينة وهن في غمرة الرقص، بل كن يفضلن أن يشاهدن من طرف الأجانب الذين لا يعرفون عادات المدينة وضوابطها. وبالتالي كان من مصلحة الجميع أن لا يتفوه عازفوا مجموعة سيدي بلال بكلمة حين يتوقفون عن العزف.

باستثناء الحفلة السنوية لدى سيدي بلال، كانت حياة مينة عادية دون شيء يذكر. إنها تقتسم غرفة صغيرة في الطابق الأخير مع ثلاث إماء أخريات تقدم بهن السن هن دادا سعادة ودادا رحمة وداد ا عيشتا، لقد كن جميعا يعشن في الدار قبل حضور أمي وأم سمير، وكشأن مينة لم تكن لهن صلة قرابة بالعائلة، ولكنهن كن في خدمتها حين قضت السلطات الفرنسية على العبودية: «لم تنته العبودية حسب قول

مينة، إلا بعد أن أتاح الفرنسيون للعبيد إمكانية الذهاب إلى المحاكم واستعادة حريتهم، وعاقبوا النخاسين بالسجن والغرامات، إن العنف لا يتوقف إلا إذا تدخلت العدالة»[-1-]. بعد استعادة حريتهن كانت كثيرات من الإماء كمينة، أضعف من أن يقاومن أو يبدين احتجاجا، كما أن فقرهن الشديد حال دون عودتهن إلى بلدانهن الأصلية، أو أنهن لم يكن متأكدات من حسن استقبال الأهل لهن. وما كن يرغبن فيه في الواقع هو حجرة هادئة يرتحن فيها من عبء السنين، ويحلمن بعالم أفضل تتخلص فيه النساء من العنف.

لم تكن هؤلاء النساء وكذا الأخريات اللائي يقمن في الطابق الأعلى يغادرن غرفتهن إلا نادرا، باستثناء مينة التي كانت لا تجد سعادتها إلا على السطح، وبما أنها لا تكلم أحدا غيرنا نحن الأطفال ولا تفشي سرا، فإن حضورها لم يكن ليزعج القادمين إلى السطح سواء تعلق الأمر بالشبان الذين يتسللون سرا ليلقوا نظرة على بنات الجيران، أو بالنساء اللائي كن يشعلن الشموع لممارسات سحرية، أو يقمن بما هو أفظع حين يدخنّ السجائر الأمريكية الفخمة والنادرة، التي يسرقنها من زين أو جواد، أو تعلق الأمر بالأطفال الذين يمارسون لعبة غميضة في جرات الزيتون.

كان الاختفاء في هذه الجرات يجعلني أشعر بلذة، وكان انجذابي لهذه اللعبة يحير الجميع، الشيء الذي أدى بي إلى المثول أمام مجلس العائلة. حرصت على أن لا أعترف بأن هناك علاقة للأمر باختطاف مينة، وحين سألتني رئيسة المجلس جدتي للامهاني عن السبب الذي يدعوني إلى أن أحشر نفسي في تلك الأواني الضخمة الفارغة، لم أنبس ببنت شفة عن علاقة انجذابي هذا باختطاف مينة، حتى لا أجلب لها متاعب وهي التي عانت كثيرا في طفولتها.

اختطفت مينة ذات يوم ابتعدت فيه عن بيت أهلها، ما أحست إلا ويدا غليظة تقبض عليها، ووجدت نفسها مسافرة مع أطفال

آخرين، تحت تهديد السكين التي يشهرها الرجال المتوحشون. لازالت مينة تذكر تفاصيل الأحداث، لقد كان المختطفون يخفونهم هي والأطفال الآخرين خلال النهار، ليستأنفوا السفر بعد غروب الشمس، وبعد أن اجتازوا الغابة التي تحبها اتجهوا نحو الشمال، فاختفت الأشجار لتحل محلها كثبان الرمال: «لايمكنك تخيل الصحراء إذا لم تريها، تقول مينة، أمامها تشعرين بعظمته سبحانه وتعالى، من الواضح أنه في غير حاجة إلينا. إن الحياة الإنسانية لا تساوي شيئا في الصحراء. أدركت بأن في داخلي طفلة أخرى، مصممة على البقاء. غدوت مينة أخرى وفهمت بأن العالم بأسره ضدي، وأن عليّ أن أعول على نفسي فحسب». بعدها اختفى المختطفون السود الذين كانوا يتكلمون لغتها، ليعوضهم آخرون ذوو بشرة فاتحة، يتحدثون لغة لا تفهمها[-2-]: «كنت أعتقد بأن العالم كله يتحدث بلهجة قومي» كما تقول مينة.

كانت الجماعة تسافر في صمت، وفي أماكن محددة ومتفق عليها حسب مايبدو، يلتقي المختطفون بأصدقاء لهم يزودونهم بالطعام، ويخفونهم حتى نهاية النهار، ليستأنفوا سيرهم عندما تنتشر الظلمة، بحيث لا يصادفون أحدا إلا نادرا. وكان عليهم تجنب مراكز الحراسة الفرنسية المنتشرة هنا وهناك، لأن تجارة العبيد غدت ممنوعة بشكل رسمي. ذات يوم اجتازوا نهرا، ولسبب لا تعرفه اعتقدت مينة بأنها ترى غابتها المحبوبة في الأفق، طلبت من طفلة معها تنتمي إلى قريتها إذا ماكانت ترى الغابة فأومأت برأسها بالإيجاب. ظننا بأن المختطفين عادوا نحو القرية أو أن القرية قادمة نحوهم. لا يهم! لم تكونا آنذاك تدريان شيئا عن السراب. وفي تلك الليلة حاولت الطفلتان الهرب، فطاردهما المختطفون، وألقوا عليهما القبض، ولذلك كانت مينة تقول: «على الإنسان أن يكون حذرا ولا يخلط بين رغباته والواقع، وبين أمانيه والسراب، ذلك مافعلناه وأدينا ثمنه غاليا». حين كانت

تصل إلى هذا الجزء من حكايتها كان صوتها يرتعش ويغمر الأسى محيطها، ويشرع البعض في البكاء، وخاصة حين تبدأ في سرد التفاصيل: «فكوا عقدة الحبل الذي يعلق فيه السطل، وقالوا لي بأن علي أن أشد بكل قوتي على هذا الحبل في صمت إذا شئت البقاء حية، وأنزلوني في قعر بئر عميق مظلم، ماكان بمقدوري أن أرتعش خوفا من أن ينفلت الحبل من بين يدي وأموت»، تتوقف مينة وتنتحب بهدوء، ثم تجفف دموعها وتتابع في حين يبكي المستمعون في صمت: «إنني أبكي الآن من الغضب لأنهم حرموني حتى فرصة الخوف. كنت أعرف بأنني سأصل عمق البئر المظلم ولكن كان علي أن ألغي رعبي. كان ذلك ضروريا وإلا استسلمت. ولذلك كنت أفكر في الحبل وفي أصابعي، وبجانبي طفلة أخرى تعاني من رعب فظيع، في اللحظة التي سيغمرها الماء البارد المليء بالثعابين والحيوانات اللزجة، ولكن كان عليّ أن أنفصل عنها بأي ثمن وأركز على الحبل. حين جذبوني خارج البئر، ظللت عمياء لأيام، لا لأن عيني لا تبصران ولكن لأني لم أعد أرغب في رؤية العالم المحيط بي».

كثيرة هي حكايات السبي في قصص ألف ليلة وليلة، حيث كانت الأميرات يبعن في سوق النخاسة بعد تعرض القافلة الملكية الذاهبة إلى مكة من أجل الحج للنهب[-3-]، إلا أنها لم تكن لتؤثر بي مثل حكاية مينة وإنزالها في البئر. حين سمعتها أول مرة أصبت بالكوابيس، ولكنني لم أقل لأمي السبب الذي روعني حين هرعت إليّ وعانقتني لكي تطمئنني وتحملني إلى فراشها، كان أبي وأمي يضماني إليهما ويحاولان فهم السبب الذي يمنعني من النوم، ولكنني لم أذكر لهما شيئا عن قضية البئر مخافة أن يمنعاني من سماع الحكاية، والواقع أنني كنت في حاجة إلى سماعها مرات ومرات، حتى أصبح أنا الأخرى قادرة على اجتياز الصحراء والوصول الى السطح. كان الاستماع إلى مينة ضروريا بالنسبة لي، حتى أعرف كل التفاصيل

وخاصة طريقة الخروج من البئر.

لم يكن جميع من في البيت متفقا بشأن مايقال أمام الأطفال، والقليل من أفراد العائلة كجدتي للالامهاني يعتقد بأنه لا يجب التحدث عن العنف إلى الأطفال، في حين أن آخرين كانوا يرون العكس، ويجدون أنه من الأفضل تنبيه الطفل للعنف في سن مبكر حتى يغدو قادرا على حماية نفسه والنجاة من الخطر وتفادي الخوف. وكانت مينة تشاطر هذا الرأي: « علمني النزول إلى البئر بأن عليك أن تعبئ كل طاقتك لمواجهة المصاعب، وحينها يتحول قعر البئر ، تلك الحفرة القاتمة إلى لوحة قفز ترمي بك حتى السحاب، أتفهمون ما أعني؟» نعم يامينة أفهم وأدرك ماتودين قوله. سأتعلم ذلك وأنا أزلق في جرات الزيتون، سأتدرب لكي أواجه الرعب القادم، سأتعلم كيف ألمع مثلك رغم كل شيء، وأنت متجهة نحو القبلة، وظهرك مسند على الحائط الغربي، وحنانك يغمر العالم من حولك. قلت لها ذات يوم: «أنا متأكدة بأن مكة تعرف قصة البئر والمختطفين، لاشك أن الله عاقب الذين أساؤوا إليك، قولي يامينة، أليس الأمر كذلك؟» كانت جد متفائلة فأجابتني بأن عليّ ألا أخاف الآن: «ستكون حياة النساء أفضل، ألا ترين الوطنيين يطالبون بتعليم النساء وسفورهن؟ أتفهمين! كان مشكل النساء يتجسد في عجزهن، والعجز يأتي من الجهل وانعدام التعليم. ستكونين قوية وأنا متأكدة من ذلك، لأني سأصاب بخيبة أمل إذا حدث العكس. ماعليك إلا أن تركزي بصرك على الدائرة السماوية التي تعلو البئر، هناك دائما قطعة من السماء بوسعك النظر إليها. ولذلك لا تخفضي بصرك أبدا، ارفعيه عاليا وانطلقي لان لك أجنحة!»، نسيت خوفي بعد أن سمعت حكاية مينة وتسللت إلى جرات الزيتون مرات كثيرة، وانتهت كوابيسي. اكتشفت بأنني أتوفر على سلطة سحرية، وما علي إلا أن أركز النظر في السماء على أعلى نقطة ممكنة وستسير الأمور على مايرام. بإمكان الطفلات أن

يفاجئن الوحوش، والواقع أن ماكان يبهرني في قصة مينة هو وقع المفاجأة التي استحدثتها لدى مختطفيها: كانوا يتوقعون أن تصرخ فلم تنبس ببنت شفة، وجدت بأن ذلك ينم عن ذكاء وقلت لمينة بأنني سأعرف كيف أواجه الوحش أنا الأخرى، إذا ماحصل لي ذلك. وافقتني على الرأي ولكنها أضافت بأن ذلك يتطلب معرفة جيدة به. لقد راقبت مختطفيها خلال أيام كاملة لأن سفرهم دام عدة أسابيع، قالت لي مينة بأن بإمكاننا الاختيار حين نقع في الشرك: إما أن نصرخ وننظر إلى الأسفل، الشيء الذي يبهج الوحش، أو أن نفاجئه ونحن ننظر إلى الأعلى، نركز البصر على النقطة الصغيرة في السماء، نحبس الأنفاس وحين يرى سجّانك الذي يبصرك من فوق عيناك، يصيبه الرعب: «إنه يعتقد بأنك جن أو أنّ عينيك نجمان تلمعان في الظلمة».

لن أنسى مينة ماحييت، تلك المخلوقة الصغيرة المرعوبة، الضائعة في الرمال تحت رحمة أعداء غرباء، تتحول إلى نجمتين لامعتين، إنها رؤية تقض مضجعي حتى اليوم، وكلما ساد الصمت الباعث على التأمل من حولي، استحضرت هذه الصورة التي تبعث في الأمل والقوة إلا أن كان علي أن أتدرب أولا على الخروج من البئر، ولذلك ظلت لعبتي المفضلة خلال مدة هي القفز إلى داخل جرة زيتون فارغة، ولم يكن بإمكاني القيام بذلك دون أن يوجد شخص كبير بالقرب مني، لأن سمير كان يرى بأنها لعبة بالغة الخطورة، ويالسعادتي حين كانت مينة تعينني على الخروج من البئر، إلى حد أنني غدوت مهووسة باللعبة.

كنا نستعمل هذه الجرات في لعبة الاختفاء، حيث نختبئ وراءها ولكننا كنا نتسرب إلى داخلها إذا مارسنا لعبة الخوف، قد يحدث أن نظل محاصرين فيها حتى يساعدنا أحد الكبار على الخروج منها. كانت مينة التي تمضي معظم وقتها على السطح تنظر إلينا صامتة وهي تنتظر

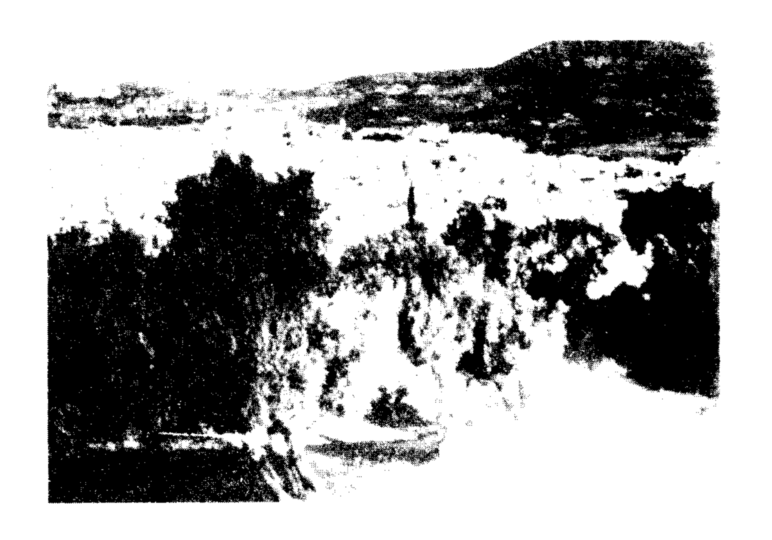
الكارثة، وحين تسمع صراخنا طالبين النجدة تقف وتلقي نظرة على عمق الجرة: «أليس بإمكانك انتظار الخوف؟ كان يجب أن تطارديه! اهدئي الآن، سأخرجك من هنا». بعدها كان علينا أن نسترخي ونحاول التنفس بشكل عادي وعيوننا مركزة على دائرة الضوء الزرقاء هناك. ثم نسمع صدى خطوات على السطح، وصوت مينة وهي تهمس بأوامرها لدادا سعادة ودادا رحمة ودادا عيشتا. نشعر بعدها وكأن زلزالا خفيفا يحدث، قبل أن تنقلب الجرة على الأرض أفقيا، ولا يبقى علينا إلا أن نزحف علي الأيدي والأرجل للخروج منها.

كلما أنقذتني مينة أرتمي عليها لأقبلها بحرارة فتقول لي: «لا تضميني بقوة، ستفسدين "روميتي"(منديل الرأس)، وماذا يحدث لو كنت في الحمام أو الصلاة؟ ها!» فأخفي رأسي في جيدها وأقسم الا أعود إلى ذلك وبعد أن أستميلها وتدعني ألعب بأطراف منديلها أجسر على طلبي: «هل بإمكاني أن أجلس في حجرك يا مينة وأسمع كيف خرجت من البئر؟».

- ولكنني حكيت لك ذلك مئات المرات! ماذا بك؟ إنك تعرفين الأساسي: إن الطفلة الصغيرة تملك القوة الكافية لمواجهة سجّانيها لكي تكون صبورة وشجاعة، ولا تضيع وقتها في الارتعاش والبكاء. لقد أخبرتك بأن المختطف كان ينتظر مني أن أبكي وأصرخ، ولكنه عند ما لم يسمع شيئا ورأى نجمتين لامعتين تحدقان فيه، جذبني في الحين، ولكن تعرفين كل ذلك!». أقسمت لها بأنها المرة الأخيرة التي أطلب فيها سماع الحكاية، وأنني لن أعود إلى اللعب في الجرات حتى المرة المقبلة.

- 18 -

السجائر الأميركية



لم تكن لعبة الاختفاء في جرات الزيتون النشاط المحرّم الوحيد على السطح، بل إن الكفار كانوا يقترفون أخطاءا أشد كمضغ الشوينگوم (Shwingum) أو وضع طلاء الأظافر وتدخين السجائر، بيد أن هذه الأخطاء كانت نادرة نسبيا نظرا لصعوبة الحصول على تلك المواد الأجنبية. وهناك أخطاء أخرى معتادة على السطح كإحراق الشمعات في ممارسات سحرية بهدف تنمية القدرة على الإغراء أو مايسمى بالقبول، أو اعتماد تسريحة شعر ذات قصة تشبها بالممثلة الفرنسية «كلوديت كولبي»، أو التواطؤ على الخروج سرا لحضور التجمعات الوطنية في دار مكوار المجاورة لنا أو بجامع القرويين. ونظرا لأن بإمكاننا نحن الأطفال خلق مشاكل لكل المذنبات إذا ماتحدثنا عن ذلك لعمّي أو والدي، أو لللامهاني، فقد كنا نعامل بعناية خاصة على السطح. وما إن يسمح أحد الكبار لنفسه بمضايقتنا حتى نهدده بإخبار السلطات، وطبعا كانت السلطات تعتمد علينا حين تشك في أمر مريب تبعا للمبدإ القائل «خذوا أسرارهم من أفواه صغارهم». وبالتالي كان لنا الحق في معاملة خاصة من طرف الكبار ذوي الضمائر غير المرتاحة، فيمطروننا بالحلويات والملبس والإسفنج، دون أن يغفل الشاي. كانت مينة تلاحظ ذلك في صمت، وتضاعف من صلاتها حتى يهدي الله العائلة بأكلمها. كانت تصدم على الأخص

حين يرقى الشبان إلى السطح لرؤية بنات بنيس، وذلك يعد ذنبا في رأيها، لقد كان شباب كل عائلة يلازم سطحه، ولكنهم غالبا مايغنون أغاني عبد الوهاب وفريد الأطرش العاطفية وكذا اسمهان بصوت مرتفع يصل إلى الجيران. شامة كانت ترقص وكذا بنات بنيس، فيخلقون بذلك لحظات خاطفة من السعادة، تزهر خلالها عواطف المراهقة يلوّنها وهج الأصائل الرومانسي والقرمزي. والأفظع من ذلك بالنسبة لمينة هو أن الشباب من الجنسين لم يكونوا يكتفون برؤية بعضهم البعض، ولكنهم كانوا يتبادلون نظرات الحب.

نظرة حب تعني أن تنظر المرأة الى الرجل وعيناها نصف مغمضيتن كما لو أنها ستغفو. كانت شامة اختصاصية في المسألة، وقد تقاطرت عليها عروض الزواج من أبناء العائلات الوطنية ذوي المستقبل الزاهر، الذين أثارت انتباههم حين كانت تغني «مغربنا وطننا» خلال المظاهرات أو في الحفل الذي نظم بجامع القرويين، حين أطلقت السلطات الفرنسية سراح المعتقلين السياسيين. وافقت مليكة على أن تستجيب لطلبي وتعلمني تقنية نظرات الحب مقابل التنازل لها عن نصيبي من الحلوى والإسفنج، والواقع أنها بدأت تثير انتباه أطفال الكتّاب، وكنت متلهفة على معرفة سرها. وقد انتهت إلى إجابة غامضة على أسئلتي الملحة، بأنها تمارس خليطا من نظرات الحب ترفقها بتلاوة ذهنية لإحدى أشكال القبول التي استقتها من كتاب الحكمة-1- الذي يشمل وصفات سحرية قديمة، تمكن المرأة من إغراء فتى أحلامها إغراء لا رجعة فيه. أثارت هذه الأمور لدي اهتماما كبيرا، حاولت أن أنقل حماسي إلى سمير فاقترضت أحد كتب شامة، ولكنه سرعان ماغدا يشكو، من الوقت الذي أضيعه في حكايات الجمال والإغراء إلى حد أهملت معه كل ألعابنا، ومن تم أدركت بأن مليكة تمثل فرصتي الوحيدة في الحصول على المعلومات الضرورية.

كان الكبار يعاملوننا على السطح أنا وسمير كما لو كنا نجهل

كل شيء عن الحب والأطفال، ولعلهم كانوا يعتقدون بأننا لاندري شيئا عن أهمية الجمال لنيل حب الجنس الآخر. أخبرتني مليكة مرارا بأن الحب ليس بالمسألة السهلة، وكنت أستمع إليها بانتباه وهي تحدثني عن الصعوبات المحتملة، وأنا أتساءل في سري عما إذا كانت تهدف التأثير علي للرفع من قيمة المزاد في السوق الذي يجمعنا، وهو تنازلي عن حقي في الحلوى، إنها تدعي بأن الأصعب في الحب لا يتمثل في حب الشخص لك، وانما في الاحتفاظ بهذا الحب، لأنه على مايبدو ذا جناحين يأتي ويطير. ولذلك قررت في تلك الفترة التركيز على الإغراء الأولي لتبسيط المسألة، وسأتوفر بعدها على الوقت الكافي للاهتمام بمسألة دوام الحب.

للمرأة طريقتان لإغراء الرجل، ترتبط أولاهما بالسحر وتتمثل في إحراق شمعة خلال ليالي اكتمال القمر، وترتيل تعاويذ تعرفها كل البنات، أما الطريقة الثانية فهي عملية معقدة تستغرق وقتا طويلا: عليها أن تغدو جميلة، فتعتني بشعرها وجلدها ويديها وقدميها و.و. آه! أنا متأكدة من أنني نسيت شيئا، لا داعي للاستعجال، سأتوفر على الوقت الكافي لتعلّم كل تقنيات الجمال. كنت أعرف حينها طريقة الحصول على شعر جميل لأن أمي ارتأت بأن شعري رديء لكونه أكرت، ولأنه يشكل كتلة كبيرة لا تلائم طفلة جميلة، إلى حد أنها كانت تأخذ فنجانا من زيت الزيون وتغلى فيه ورقات تبغ طري، وتقسم شعري إلى خصلات عديدة، تطلي كلا منها ثم تظفرها وتحزمها في قمة رأسي حتى لاتتسخ ثيابي، وكنت مجبرة على أن أحترس من الاقتراب من الآخرين قبل حلول ساعة الحمام، حيث كانت أمي تخلط الحناء بالماء الساخن وتبلل بها شعري قبل أن تغسله. لقد كانت تقول لا يمكن أن نرجو خيرا من امرأة لا تبذل جهدا في الاعتناء بشعرها وكنت أود أن أحقق الكثير. كانت المرحلة المفضلة لديّ في الحمام هي مرحلة غسل الشعر لأن الذهاب إليه كان يعني

لدي اختراق كرة بخارية دافئة، كنت اخذ من أمي الطست التركي وأجلس على المعقد الخشبي السوري، الذي تقترضه أمي من للالامهاني حتى تلفت انتباه من في الحمام، وأشرع في غسل شعري وأنا أقلد حركتها. أجمع رجلي وأحاول صب الماء على شعري كما تفعل النساء الحاذقات، إلا أن صراخ الجالسات حولي سرعان مايتعالى: «بنت من هذه الأعجوبة؟» ويشتكين رشي لهن بالحناء التي أعمت عيونهن، حينها أغادر مكاني بنظرة متعالية، وأنا متأكدة بأن جمالي يعادل جمال الأميرة بدور.

كان الذهاب الى حمام حينا يغمرني بالمتعة، أحببت بلاطه الرخامي الأبيض وسقفه الزجاجي، إلى حد أنني قررت يوما في غمرة تلك المتعة، أن أجد وسيلة عندما أكبر لكي يكون الحمام قريبا مني، وأن يكون لي سطح، لقد كانت أمي تقول بأن الحمام والسطح من أجمل الأشياء في حياة الحريم، وعلينا الاحتفاظ بهما. كانت ترغب في أن أدرس وأحصل على شهادات لكي أصبح إنسانة مهمة، وأن يكون لي بيت به حمام في الطابق الأول وسطح في الطابق الثاني. حين سألتها وأين سأعيش وأنام؟ أجابتني: «على السطح ياحبيبتي! سيكون لك سقف زجاجي متحرك تغلقينه ساعة النوم أو عندما يشتد البرد. هذه الوتيرة التي يسير عليها النصارى في اختراعاتهم، تدل بالتأكيد على أنهم سيكتشفون طريقة لبناء دور بسقوف متحركة عندما تكبرين!». كان كل شيء يبدو ممكنا في الحريم، سنهدم الأسوار ونبني منازل ذات سقوف زجاجية، لقد كانت الحياة تقدم أشكال تحول لانهائية، وأكثر الأحلام استحالة تتجسد، وكنا نحن الأطفال سعداء وقلقين في نفس الوقت لأننا سنشهد ذلك العالم الجديد بدون حدود، أما في تلك اللحظة فقد كنا نحلم بأشياء جد عادية، كان مذاق «الشوينگوم» اللذيذ يثيرنا، ولم نكن نذوقه إلا نادرا، لأن الكبار يحتفظون به لأنفسهم، والطريقة الوحيدة للحصول عليه هي المشاركة

في عملية محرمة، كما يحدث حين تحتاجنا شامة مثلا لكي نأتيها برسالة من صديقتها وسيلة بنيس، وكنا نعرف أنا وسمير بأن الرسائل مكتوبة في الواقع من طرف الشاذلي أخ وسيلة، لقد كان مغرما بشامة، وكنا نعرف ذلك ونتجاهله، وعلى كل لم يكن أبي وعمي يحبان هذه العلاقات بين الدارين، لأن لعائلة بنيس عدة أبناء من جهة ولأن السيدة بنيس تونسية من أصل تركي وبالتالي بالغة الخطورة من جهة أخرى. لقد كانت تجسد أفكار كمال أتاتورك-2- الثورية، فتتجول سافرة حاسرة الرأس في سيارة زوجها السوداء الفارهة. كانت ذات شعر مصبوغ باللون الذهبي، وقد قصته على طريقة «گريتاگاربو».
الكل يقول بأنها لا تنتمي بحق إلى مدينة فاس، ولكنها حين كانت تجوب المدينة القديمة ترتدي زيا تقليديا أي الجلباب واللثام. يمكن القول بأن السيدة بنيس كانت في الواقع تعيش نمطين مختلفين من الحياة: احدهما في المدينة الجديدة أي الحي الأوروبي حيث تتجول سافرة، والثانية في المدينة القديمة. وكانت هذه الفكرة بشأن حياتها المزدوجة هي التي تثير فضول الجميع وتجعل منها امرأة ذات شهرة، وكان يبدو بأن الحياة في عالمين أفضل منها في عالم واحد. كيف يصمد الواحد منا أمام إغراء الانتقال من ثقافة إلى أخرى، من شخصية وقانون ولغة إلى أخرى؟ كانت أمي ترغب في أن أصبح كالأميرة عائشة ابنة ملكنا محمد الخامس، التي تلقي خطبها بالعربية والفرنسية، وترتدي القفطان الطويل، أو الفساتين الفرنسية القصيرة.
والواقع أن فكرة السفر بين حضارتين ولغتين، كانت تبعث فينا نحن الأطفال آنذاك الانبهار، كما لو أنها تفتح في وجوهنا أبوابا سحرية.
نفس الإحساس كان يراود النساء على عكس الرجال الذين كانوا معارضين لكل ذلك، ويجدونه خطيرا، لم يكن والدي على الأخص يحب السيدة بنيس، وكان يقول بأنها تنتقل بسهولة كبيرة من ثقافة إلى أخرى دون أن تحترم الحدود. فتسأله شامة «وهل في ذلك بأس؟»

فيجيب أبي بأن الحدود تحمي الهوية الثقافية، وأن النساء العربيات لوشرعن في تقليد الفرنسيات، وارتدين الثياب المنافية للحشمة، ودخّنّ السجائر، وتجولن حاسرات الرؤوس، لن تبقى هناك إلا ثقافة واحدة، أما ثقافتنا نحن فستموت. تعقب شامة مبررة موقفها: «إذا كان ذلك صحيحا، لماذا يتجول إخوتي وأبناء أعمامي في المدينة مع كثيرين مثلهم يقلدون «رودولف ڤالنتنو»و شعرهم قصير كالعساكر الفرنسيين، ولا أحد يذكرهم بأن ثقافتنا على شفا الانقراض؟» لم يكن أبي يقدم جوابا لهذا النوع من التساؤلات.

والدي الذي كان جد عملي مقتنع بأن الخطر الذي يتهددنا لا يأتي من الجنود الفرنسيين بل من إشهارهم المغري الذي يعلن عن حسنات منتوجات تبدو غير مؤذية، ولذلك قام بحملة حقيقية ضد الشوينگوم والسجائر الأميركية، ذلك أن تدخين واحدة من هذه السجائر البيضاء في رأيه يلغي قرونا من الحضارة العربية: «يود النصارى أن يحولوا دورنا الإسلامية الموقرة إلى أسواق كما يقول. إنهم يريدون منا شراء موادهم الضارة وعوض الصلاة، يملأ الناس أفواههم من الصباح حتى المساء بأشياء وسخة مثل السجائر والشوينگوم، إنهم يعودون إلى الطفولة كالرضع الذين يحتاجون دائما إلى ملء فمهم». يلح أبي دائما على أن خطر السجائر -أفظع من طلقات البنادق الاسبانية أو الفرنسية حسب قوله-، إلى حد أنني كنت أستشعر القلق لعدم إخباره بما يجري على السطح. لم أكن أريد خيانة ثقته بي، لقد كان يحبني بالغ الحب، ويفرض علي التحلي بالأمانة. والواقع أن السجائر لم تكن متوفرة بالبيت غالب الأحيان لأنه من الصعب الحصول عليها، ثم لأن النساء كالشباب لم يكونوا يتوفرون على المال، وكل مشتريات البيت كانت مراقبة من طرف الرجال. كنا نكتفي بالاستهلاك دون أن تكون لنا سلطة الاختيار أو التقرير أو شراء أي شيء، إلى حد أن شراء أي شيء من طرفنا حتى ولو تعلق

الأمر بالسجائر يدل على استعمال غير شرعي للمال، ولذلك كان أبي يحاول ملاحقة المجرمين الذين يتاجرون في السوق السوداء، وبما أن المال نادر فإن امتلاك علبة سجائر بكاملها أمر غير معتاد، وكان الكبار لا يملكون أكثر من سيجارة أو اثنتين غالب الأحيان، بحيث يتقاسمها خمسة أو ستة منهم. ذلك أن الكم لم يكن ذا أهمية في الواقع، ولكن المهم هوطقس التدخين في حد ذاته.

كان الكبار يضعون السيجارة في حامل سجائر طويل، يأخذونه بين الأصبعين، ثم يستنشقون نفسا وهم يغمضون أعينهم. وحين يفتحونها ينظرون إلى السيجارة كما لو كانت كائنا سحريا. بعدها يعطيها حاملها إلى جاره حتى يأخذ كل الحاضرين نفسا. آه! كدت أنسى الصمت. كان من الضروري أن تمر العملية في صمت شامل، كما لو أن اللذة تشل قدرة الإنسان على النطق. أحيانا كنت ألهو أنا وسمير بتقليد الكبار فنعوض السيجارة بعود صغير، ولكننا إن استطعنا نقل حركاتهم ماكان في وسعنا تقليد صمتهم. وتلك كانت أصعب مرحلة في الطقوس حسب رأينا. تعرفنا على «الشوينگوم» والسجائر بعد وصول الأميركان إلى ميناء الدار البيضاء خلال نونبر 1942، وقد ظل الناس يتحدثون عنهم بعد سنين من ذهابهم لأن كل مايعنيهم كان محاطا بالسرية التامة. أتوا من حيث لا نعرف ودون أن ينتظرهم أحد، وقد فاجأوا الجميع خلال مقامهم، من كان هؤلاء الجنود الأميريكيون الغريبوا الأطوار؟ لم قدموا؟ لم تكن لي أو لسمير أو حتى لمليكة إجابة على هذا السر. والشيء الوحيد الذي كنا متأكدين منه هو أنهم نصارى ولكنهم مختلفين عن أولئك الذين يقدمون من الشمال بانتظام ليحاربوننا. لا يقيم الأميريكيون في الشمال، ولكنهم يسكنون جزيرة بعيدة في الغرب تدعى أميريكا، ولذلك قدموا عن طريق البحر. اختلفت الآراء بشأن الطريقة التي وصلوا بها إلى جزيرتهم في البداية، يقول سمير بأنهم كانوا ذات يوم على ظهر

سفينتهم في الشاطئ الإسباني حين جرفهم التيار نحو الجهة الأخرى، أما مليكة فتزعم بأنهم ذهبوا إلى هناك بحثا عن الذهب، وأنهم تاهوا فاستحال عليهم الرجوع، فقرروا الإقامة بذلك المكان. وعلى كل، لم يكن في وسع الأميريكيين التنقل مشيا كباقي الناس، بل إنهم مجبرون على ركوب الطائرة أو السفينة كلما حل بهم الملل، أو اشتاقوا لزيارة أبناء عمومتهم النصارى الاسبان والفرنسيين القاطنين شمال بلادنا. لاشك أن علاقة القرابة بينهم كانت بعيدة شيئا ما، إذ أن الفرنسيين والإسبان قصيرو القامة، ذوو شوارب، في حين أن الأميريكيين فارعوا الطول ذوو عيون زرقاء عجيبة كما وصفهم المطرب الشعبي الحسين السلاوي في أغنيته المشهورة: «العين الزرگا جانا بكل خير». لقد أرعبوا رجال الدار البيضاء ببذلاتهم الحربية وقاماتهم الفارعة التي كانت تفوق بكثير قامات الجنود الفرنسيين وكذا أجسامهم الهائلة، ولأنهم شرعوا مباشرة في معاكسة النساء. وقد شرحت لنا عمتي حبيبة بأن الحسين السلاوي يقصد إلى السخرية لأن الأميريكيين لم يأتوا بخير ولأن أناس الدار البيضاء قد انزعجوا لقدومهم، فهم لايعاكسون النساء فحسب، ولكن يقدمون إليهن هدايا مسمومة كالشوينگوم والحقائب اليدوية والمناديل والسجائر وأحمر الشفاه.

الكل يقول بأن الأميريكيين قدموا الى المغرب لمحاربة الأعداء، ولكننا أنا وسمير لم نكن نعرف هؤلاء الأعداء، البعض يقول بأنهم الألمان، هؤلاء المحاربون الذين يعادون الفرنسيين الذين طلبوا من الأميريكيين مساعدتهم على هزم الألمان. المشكل هو أنه لم يكن هناك ألمان في المغرب! وقد أقسم لي سمير الذي كان يرافق أبي وعمي أحيانا كثيرة في أسفارهما بأنه لم يصادف واحدا منهم في البلاد بأكملها. وعلى كل حال، كان الجميع مبتهجا لأن الأميريكيين لم يقدموا لمحاربتنا، بل هناك من يقول بأنهم على قدر كبير من اللطف، وأنهم يقضون وقتهم في ممارسة الرياضة والسباحة ومضغ الشوينگوم،

والصياح ب! OK كلما رأوا أحدا.

و OK هذه كانت طريقتهم للسلام تقابل تحيتنا نحن: السلام عليكم. والواقع أن الحرفين كانا يشيران بدون شك إلى كلمات، إلا أن عادة الأميريكيين كانت هي اختزال كل الكلمات حتى لا يضيعوا الوقت في الكلام، وينصرفوا إلى مضغ الشوينگوم، كما لو أننا اختزلنا عبارة «السلام عليك» في حرفي السين والعين.

أمر آخر يبعث على الدهشة لدى الأميريكيين: كان هناك أميريكيون سود. هناك أميريكيون ذوو عيون زرق وأميريكيون آخرون سود. أميريكا بعيدة عن السودان أي عن قلب إفريقيا المكان الوحيد الذي نجد فيه السود. مينة قاطعة في المسألة والكل متفق معها، لقد منح الله السود بلادا واحدة شاسعة، بغابات كثيفة وأنهار عريضة وبحيرات رائعة جنوب الصحراء، إذن من أين أتى الأميريكيون السود؟ هل كان للأمريكيين عبيد شأن العرب في الماضي؟ حين سألنا أبي أجابنا بنعم،كان هناك عبيد في أميريكا ولاشك أن هؤلاء السود أقرباء لمينة، سبي أسلافهم منذ زمن بعيد، وحملوا على البواخر إلى أميريكا ليعملوا في المزارع الشاسعة. إلا أن الأشياء قد تغيرت في الحاضر كما قال أبي، فالأميريكيون غدوا يستعملون الآلات والعبودية انقرضت، ورغم ذلك لم نفهم السبب في كون الأميريكيين البيض والسود لم يتزاوجوا لكي ينجبوا أناسا ذوي بشرة بنية، الشيء الذي يحدث عادة عندما يمتزج البيض بالسود كما هو الشأن عند العرب، سألت مينة «لم ظل الأميريكيون البيض بيضا والسود سودا؟ ألا يتزوجون فيما بينهم؟». حين حصل ابن عمي زين على المعلومات الضرورية تبين لنا بأن الأميريكيين السود والبيض لا يتزوجون فيما بينهم، وهم على العكس من ذلك يعيشون منفصلين، وكل مدينة من مدنهم تنقسم في الواقع إلى مدينتين: واحدة للسود والأخرى للبيض، كما هو الشأن عندنا في فاس بالنسبة للمسلمين واليهود.

ضحكنا كثيرا للأمر على السطح، لأن من شاء الفصل بين الناس على أساس اللون في المغرب سيصادف صعوبات جمة. فالناس اختلطوا إلى حد أن كل الألوان موجودة: العسلي، ولون اللوز، والقهوة بالحليب، وكل مستويات لون الشوكلاطة. وغالبا ماكان هناك أطفال شقر وآخرون سمر في نفس العائلة. روعت فكرة تقسيم مدينة حسب لون سكانها مينة: «إننا نعرف بأن الله فصل بين الرجال والنساء لضبط النظام، ونعرف بأنه سبحانه وتعالى فصل بين الأديان لكي تعبد كل طائفة بطريقتها وتدعو لنبيّها، ولكن لم الفصل بين البيض والسود؟» لا أحد بإمكانه أن يجيب، إنه سر آخر ينضاف إلى بقية الأسرار، وأكثرها غموضا هو السبب الذي حدا بالأمريكيين للنزول في الدار البيضاء. قررت ذات يوم أن أساهم في إضاءة المسألة، فقلت لسمير بأنهم ربما قدموا لمجرد النزهة والتجول، اعتقدوا بأن الدار البيضاء جزيرة خالية. اغتاظ سمير فحاولت استمالته فقلت بأنني متأكدة من أن «هناك سببا سياسيا خاصا» كما يقول أبي لشرح تواجد الأميريكيين بالدار البيضاء.

غدوت أعاني من صعوبات متزايدة مع سمير. لقد أصبح بالغ الجدية فجأة، يبحث عن تفسير سياسي لكل شيء، وإذا حدث ولم أتفق معه يشتكي من كوني لا أحترمه إلى حد أنني وجدت نفسي أمام حلّين لا ثالث لهما: إما الخضوع له والإقلاع عن هذياني الشخصي، أو إنهاء صداقتنا، طبعا لم أفكر مطلقا في الحل الأخير لأن الشجاعة تنقصني لمواجهة الكبار بدونه. وكلما رغبت في شيء يكفيني الايحاء بالفكرة لسمير، فيتكلف بالأمر، وماعلي إلا أن أظل قريبة منه لتشجيعه إذا احتاج لذلك، أو لتهنئته إذا فاز. لنأخذ مثلا بالسر الأميركي، لقد اعتقدت بأن فكرة المحاربين القادمين من أجل نزهة ستبهجه، ولكن ماحصل هو العكس تماما، إذ أنه عقب غاضبا: «أنت تخلطين بين الأشياء، فالحرب حرب والنزهة نزهة. إنك تتجنبين

مواجهة الأشياء لأنك تخافين، وذلك خطير لأنك قد تذهبين للنوم وأنت تتخيلين بأن الجنود أتوا الدار البيضاء لرؤية الورود والاستماع إلى زقزقة الطيور، في حين أنهم ربما سيزحفون على فاس ويأتون لقطع رقبتك. مليكة الأكبر مني سنا تقول تفاهات من هذا النوع هي الأخرى. وأعتقد أن الأمر يعود إلى أنكن نساء». لم أجد ما أعقب به على هذه الكلمات التي بدت لي غريبة ولكنها صحيحة.

لقد حضر الأميريكيون للتعرف على أعدائهم، وبعد نقاشات عدة، وجد سمير في النهاية حلا يبدو منطقيا. إذا كانت الحرب لعبة اختفاء، فقد أتى الأميريكيون إلى الدار البيضاء لمجرد خداع الألمان، كما يحصل حين نختفي في جرات الزيتون لنتحايل على بعضنا. إن المغرب هو جرّة زيتون الأميريكيين، وهم مختبئون فيه الآن، وبعدها سيتسربون نحو الشمال للهجوم على الألمان. قلت في نفسي بأن سمير خارق الذكاء وأن أسفاره الكثيرة مع عمّي وأبي قد غيّرته. حين نسافر نفكر بطريقة أسرع لأننا نرى أشياء جديدة باستمرار وعلينا أن نتلاءم معها، ولذلك نغدو أكثر ذكاءا مما لو بقينا حبيسي الحريم، وقد شاطرتني أمي الرأي: «إن الذهن يتعود على التفكير حين نجول في أرض الله الواسعة، وهم يحبسوننا وراء الأسوار لكي يتبلّد ذهننا». كانت تضيف بأن هذه الحملة ضد الشوينگوم والسجائر الأميركية موجهة في الواقع ضد حقوق النساء، وحين طلبت منها تفسيرا قالت بأن تدخين السجائر أو مضغ الشوينگوم لايدلان على ذكاء من يمارسهما، ولكن الرجال يعارضونهما لأنهما يمنحان النساء فرصة إتيان أشياء لا تقرها التقاليد أو ا لسلطة: «أتفهمين، إن امرأة تمضغ الشوينگوم تقوم بفعل ثوري لمجرد كونه غير وارد في التقاليد، ولأنها لا تكرر ماخطه السلف، فهي تبتكر جديدا وبالتالي تأتي بدعة.

- 19 -

المـرأة الفاتـنة



كان السطح مكانا خاصا بالنساء لا يسمح للرجال بالصعود إليه، لأنه كان بالإمكان الاتصال بالبيوت المجاورة عن طريق السطوح، ويكفي لذلك أن يعرف الإنسان القفز والتسلق، ولكن ما هو الشكل الذي سيكون عليه الحريم لو سمح للرجال بالقفز من سطح لآخر؟ ستغدو العلاقات بين الجنسين بالغة السهولة. طبعا كان أبناء أعمامي يتبادلون النظرات مع بنات الجيران وخاصة في فصلي الربيع والصيف حين تغدو الأصايل رائعة. كان الشباب من الجنسين يظلون في السطح حتى وقت متأخر وسط سحب تتراوح ألوانها بين القرمزي والأحمر، وكانت الخطاطيف تؤدّي رقصاتها الجوية وكأنها أصيبت بالهيجان. كانت شامة تصعد إلى السطح مع أختيها الكبيرتين سليمة وزبيدة وإخوتها الثلاثة زين وجواد وشكيب، لم يكن لهؤلاء الحق في اجتياز باب السطح لأنهم سيطلّون على دار بنيس التي توجد بها عدّة فتيات وكذلك عدّة شبان في سن الزواج، ولكن شباب عائلتي بنيس والمرنيسي لم يكونوا يأبهون بالقاعدة، ومن تمّ كانوا يلتقون جميعا في أمسيات الصيف على السطوح البيضاء، التي تضفي عليها السحب القريبة طابعا أكثر رومانسية. تظل كل عائلة في معسكرها، إلا أن ذلك لا يمنع من تبادل النظرات والابتسامات والرغبات غير البريئة، كان ذوو الموهبة يغنون أغاني اسمهان أو عبد

الوهاب أو فريد الأطرش في حين يحبس الآخرون أنفاسهم. ذات يوم ونحن نتلقى درسا، شرحت لنا لللاطام الإنسان وإبداع الله في خلقه وكيف سنغدو نحن الأطفال والطفلات رجالاً ونساءا قادرين على إنجاب أطفال، وقالت بأن صوت الأطفال الذكور سيغلظ في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أو قبلها أحيانا كما سينمو لهم شارب ويصبحون رجالا. تحمّس سمير لهذه المعلومات وغدا يرسم لنفسه شاربا جميلا أسود بكحل أمّي الذي سرقته منها، إلى جانب أشياء أخرى من الطاولة التي تضع عليها أدوات الزينة. أما نحن الطفلات فسينمو لنا ثديان حسب تنبّؤات لللا الطام، وسنحيض مرّة في الشهر، «حق الشهر» هذه عبارة عن إسهال دموي عادي لا يسبب ألما ولاداعي للخوف منه، خلال فترة الحيض علينا أن نضع فوطة بين الفخذين حتى لا يلاحظ أحد شيئا.

حين عدت إلى البيت طلبت من أمّي تفاصيل إضافية بشأن هاته الفوطة التي نضعها بين الفخذين أو «الگدوار» حسب تعبير لللا الطام، سألتني وكأنها أصيبت بصاعقة: «من حدّثك عن «الگدوار»؟» كان صوتها المبهم الذي يبدو هادئا ينذر بالانفجار، ولكنها حين أحسّت بأنّني لن أنبس ببنت شفة إذا ما عنّفتني غيّرت طريقتها وغدت تسألني برقة كما لو كانت تحادث امرأة مساوية لها. ويبدو أنها كانت مهتمة بمعرفة هوية الوحش الذي قدم إلي هذه المعلومات المبكّرة. دهشت حين عرفت بأنها الفقيهة لللاالطام، شرحت لها «بأن بّا لفقيه أي زوج لللا الطام الوطني الغيور الذي يقضي وقته في القرويين، قال بأن على المسلمين أن يتقنوا العلوم ليهزموا الفرنسيين، علينا أن نعرف جسم الإنسان ونطلع على خلق الله الرائع، على المؤمن الصالح أن يعرف كل شيء عن العلوم والبيولوجيا والكواكب والنجوم».

اضطربت أمّي حين أدركت بأنني لم أعد طفلة، لا لأن مظهري تغير، ولكن لأنّني غدوت أعرف حسب رأيها سرّا لا يجوز للأطفال

معرفته. لأوّل مرّة أصبح لي نوع من السلطة على أمّي، بفضل المعلومات التي تلقيتها. لقد كان هذا النقاش منعطفا في علاقتي بها، إذ أنها فهمت بأنّني غدوت مستقلة.

لاشك أنها انتبهت إلى انفلات الزمن، وإذا كنت سأغدو فتاة في وقت قريب فذلك يعني أنها تقدّمت في السن. سألتني وهي تنظر إليّ كما لو كنت قادمة من كوكب آخر: «هل قالت لك لللاالطام أشياء أخرى؟ هل حدثتك عن إنجاب الأطفال الصغار؟» يا لأمّي المسكينة التي لم تقبل التصديق بأن ابنتها على علم بهذه المعلومات المحرّمة! أخبرتها بأن بإمكاني وضع طفل في الثانية أو الثالثة عشرة، لأنّني سأحيض في ذلك السن، وسيكون لي ثديان «ضروريان لتغذية الطفل لأسكت المسكين حين يجوع». ذهلت لحظة ثمّ قالت: «يا إلهي! كنت أفضل الانتظار سنة أو اثنتين قبل أن أحدّثك عن هذه الأمور، ولكن بما أنها جزء من تعليمك...»، شرحت بأن لاداعي لكي تقلق بسببي لأنّني أعرف هذه الأشياء منذ وقت طويل عن طريق الحكايات وأحاديث النساء. أمّا الآن فإنني اطلعت عليها رسميا وذلك هو الفرق الوحيد. ولكي أشجعها معنويا قلت ضاحكة بأن صوت سمير سيشبه في القريب صوت الفقيه الناصري، إمام مسجد سيدي الخياط المجاور للدّار.

ما حرصت على إخفائه عنها هو أنّني قرّرت أن أصبح غزالة لا تقاوم، امرأة قاهرة فاتنة كالغزال، وأنّني لجأت إلى ممارسات سحرية مريبة بفضل نعمة اللامبالاة لدى شامة، التي تدع كتبها عن السحر في أي مكان. كانت تملك مجموعة من هذه الكتب في غرفتها، وبما أنها لم تكن تبالي بإخفائها، اكتسبت في ظرف وجيز مهارة خارقة في حفظ التراكيب السحرية ونقل جداول التعاويذ، وتعلّم التفاصيل المعقدة بشأن الحروف والأرقام، وذلك خلال اللحظات القصيرة التي

كانت تغادر فيها غرفتها. إذا شئتُ ممارسة السحر علي اكتساب معلومات في التنجيم. ولذلك كنت أمضي الساعات حين يسود الظلام وأنا أراقب السماء وأطلب من الجميع أن يخبرني بأسماء النجوم عندما تظهر.

لقد كانت ممارسة طقوس السحر على السطح أروع انتهاك للحياة الاعتيادية في رأيي، إحراق شمعات صغيرة بيضاء عندما يكون البدر هلالا، وأخرى كبيرة فاقعة الألوان خلال مرحلة اكتماله، أو ترتيل تعاويذ سرية لدى مرور كوكب الزهرة أو المشتري.

كنا نشارك في هذه العمليات جميعا لأن النساء كن بحاجة إلى مساعدة الأطفال غير البالغين، لحمل الشموع وترتيل التعاويذ والقيام بحركات من كل نوع. لأن الذكور والإناث البالغين منهم يشبهون الكبار كثيرا، وفقدوا براءتهم التي تخولهم الاتصال بالنجوم أو الجن.

كانت فكرة التوفر على سلطة لم تعد للأطفال الأكبر منّي سنا تبهجني، المجرّة تلمع قريبة إلى حدّ يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها تبعث نورها من أجلنا نحن دون الآخرين. ولحسن حظي كانت شامة تنسى دائما سنّي حين تقرأ بصوت عال «طلسم القمر»، وهو الفصل الأوّل من كتاب الأوفاق للإمام الغزالي[-1-]، حيث يدل على طريقة ترتيل التعاويذ حسب الأيام والساعات والأشكال الفلكية الخاصة. لم تكن الأدبيات المتعلقة بعمل التنجيم مريبة، وقد اهتمّ مؤرّخون أكفاء كالمسعودي بتأثير البدر في تمامه على الكون بما في ذلك الأعشاب والكائنات الإنسانية، وكانت شامة تقرأ كتبهم أحيانا كثيرة[-2-].

كنت أستمع باهتمام إلى ما يقوله المسعودي عن القمر: «ذهب الحكماء جميعا من اليونانيين وغيرهم إلى أن أفعال القمر في الجواهر التي قلنا عظيمة... وأفعاله ترى أعظم وأبين في حيوان البحر خاصة، وهو ينمّي النبات وغيره، ويعظم البحار ويسمن الحيوان،

ويلزم النساء الطمث أزمانا محدودة»[-3-] .

كنت أقول في نفسي بعده: يا إلهي! إذا كان بإمكان القمر أن يفعل كل ذلك، فبإمكانه أيضا أن يطيل شعري ويبرز ثديي اللذين لازالا ضامرين. لقد لاحظت بأن مليكة غدت منذ فترة وجيزة تحرّك كتفيها بطريقة جميلة، وتخطو كالأميرة فريدة قبل طلاقها. لا يمكن أن نطلق على ذلك اسم ثديين، ولكن ليمونتين صغيرتين بارزتين شرعتا في النضج تحت قميصها. أمّا أنا فما كنت أملك إلا الأمل بأن تتغير الأشياء بالنسبة لي في وقت قريب. ما كان يبهرني في الممارسات السحرية أكثر من غيره على السطح، هو أن طفلة لا تلفت اهتماما مثلي تملك القدرة على نسج روابط سحرية مع تلك النجوم الرائعة التي تسبح في الأعالي، والحصول على قليل من وهجها. عرفت في مدّة وجيزة كل الأسماء التي نعت بها العرب القمر، وعندما أخبرتني شامة بأن برجي هو الزهرة غدوت أمشي ببطء كما لو أني خلقت من مادّة سماوية رقيقة، كنت أحسّ بأنه بإمكاني التوفر على أجنحة فضية.

أحببت السحر المرتبط بعلم النجوم للإمكانيات المتعدّدة التي يتيحها، بحيث أنك إذا تلوت التعاويذ بطريقة جيدة، أمكنك التأثير في شخصيات مهمة، كالجدّة أو الملك، أو بقال الدرب الذي سيخطئ في الحساب لصالحك حين تدفع له قدرا مهما من المال. أمّا أنا فكنت أتوخى من ورائه أمرين أساسيين: التأثير على أساتذتي حتى يمنحوني نقطا جيدة، وتنمية قدرتي على الإغراء. وطبعا إغراء سمير هو مبتغاي رغم أن الواقع كان يبدو عكس ذلك، إذ أن علاقتنا ساءت أكثر فأكثر، لأنه يكن للسحر احتقارا شديدا شأنه في ذلك شأن والدي وعمّي، وينعته بالبلادة، الشيء الذي كان يجبرني على إحاطة نشاطي السحري بالسرّية التامة خلال ساعات من كل ليلة، أو الاختفاء طيلة الليالي القمرية بكاملها. كنت مجبرة كذلك على استعمال تعاويذي لجذب أمراء عرب أتخيلهم دون أن أعرفهم، وكنت محترسة

إلى حدّ ما، لأنني لا أودّ تبديد طاقاتي السحرية أبعد من فاس والرباط أو الدار البيضاء. كانت مرّاكش تبدو لي بعيدة، ولكن شامة تقول إن بإمكان فتاة مغربية أن تتزوّج رجلا من لاهور أو كوالا لمبور، أو حتى من بلاد الصين: «فالله جعل العالم الإسلامي شاسعا ورائع التنوع».

اكتشفت بعد ذلك بوقت طويل أن الإغراء السحري لا يفعل مفعوله إلا إذا كانت المرأة تعرف فتى أحلامها وتتخيله خلال الطقوس السحرية، الشيء الذي يعني بأنني كنت أعاني من نقص، لأنني إذا ما ألغيت سمير من حسابي كما طلب مني، لن يكون في مقدوري تخيل إنسان آخر. لن أدخل زين في حساباتي لأنه لا يأبه لي، إنه ينظر إلي دون أن يراني، رغم الحلويات التي أمارس عليها طقوسي فأتلو تعاويذ «القبول» وأنا أحملهافي ليلة اكتمال البدر، قبل أن أقدّمها إليه على السطح. أمّا أغلب الأطفال الذين كنت أقاسمهم اللعب في المدرسة فكانوا أقصر مني وأصغر سنا، وكنت أودّ أن يكبرني فتى أحلامي بعدّة سنتمترات أو شهور حسب المثل المشهور: «من فاتك بليلة فاتك بحيلة».

اكتسبت على الأقلّ معلومات في السحر، وكذا الثقة في النفس. إذا شئت أن توقعي رجلا في شباكك عليك أن تفكري فيه بقوّة ليلة الجمعة في اللحظة التي يبدو فيها كوكب الزهرة، وأن تردّدي التعاويذ التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لفع لفع لفع دفع دفع يبش ديبش غلبش غلبش داعوج داعوج أرق سد روح حح حح»-4-.

وطبعا لكي يكون للتعاويذ مفعولها من الضروري تلاوة الكلمات السحرية بصوت واثق ومنغوم دون خطإ في النطق، الشيء الذي كان يستحيل علينا نظرا لما تتسم به هذه الكلمات من غرابة.

إنها ليست ألفاظا عربية بل هي في الأصل مقاطع من لغة الجن وهم كائنات غير طبيعية، لقد جمعت وفكت رموزها من طرف مختصين سجلوها حتى يغدو بإمكان الإنسان استعمالها. كنت أقول في نفسي بأن انعدام مفعول تعاويذي يعود إلى لثغتي، وذلك هو السبب الذي منع أي أمير من طلب يدي حتى ذلك الحين. كان من الخطر بمكان الخطأ في النطق بالكلمات السحرية لأن الجن قد ينقلبون ضدّك فتصاب بجروح على الوجه أو باعوجاج في الرجلين إذا ما أغضبتهم. لو كان سمير الذي يوفر لي الحماية عادة معي لخلصني من خطر غضب الجن، ولكنه لا يهتمّ البتة بهوسي الراهن لكي أصبح امرأة فاتنة.

كانت مينة تتفق مع سمير بشأن السحر رغم أنها تبين عن تسامح بشأن الطقوس الممارسة على السطح. إلا أنها تندّد بها وتقول بأن الرسول «ص» عارضها، بيد أن الجميع كان يردّد بأن الرّسول رفض السحر الأسود الذي يسيء إلى الناس، وأن لا ضرر في إحراق الرقيا أو المسك أو الزعفران أو تلاوة التعاويذ السحرية خلال ليلة تمام القمر، لاكتساب مزيد من القدرة على الإغراء، أو لتنمية الشعر والثديين. إن الله سبحانه وتعالى لطيف ورحيم بمخلوقاته الضعيفة البعيدة عن الكمال، وهو يدرك بقدرته حاجاتهم. إلا أن مينة تدعي بأن الرسول «ص» لم يضع تمييزا من هذا النوع، وأن النساء اللائي يمارسن السحر بصفة عامة سيلقين مفاجآت سيئة يوم القيامة.

بيد أن السحر لم يكن أخطر على الحريم من قرار الوطنيين بتشجيع تعليم النساء، انقلبت المدينة رأسا على عقب حين طالبت السلطات الدينية في مسجد القرويين، بما في ذلك الفقيه محمد الفاسي والفقيه مولاي بلعربي العلوي، بحق النساء في التعليم، وشجعت بمؤازرة الملك محمد الخامس الوطنيين على إنشاء مدارس

لتعليم البنات. ما إن علمت أمّي بالخبر حتى طلبت من والدي نقلي من كتاب «لللا الطام» إلى مدرسة حقيقية حسب تعبيرها، فاستدعى والدي في الحال مجلس العائلة الذي كان ينعقد عموما حين يوا جه أحد أعضائها مشكلا، أو قرارا حاسما يحتار في اتخاذه. وفي حالة تغيير المدرسة بالنسبة لي كان القرار على قدر كبير من الأهمية، وما كان لأبي أن يحسم فيه وحده. الفرق شاسع بين الكتاب التقليدي الذي كان الفرصة الوحيدة لتعليم البنات، والمدرسة الابتدائية الحرّة كتلك التي أنشأها بفاس الفقيه ابن عبد الله أو مولاي ابراهيم الكتاني . . . إنها مدرسة حديثة كالمدارس الفرنسية، حيث يتعلم الأطفال من الجنسين الرياضيات واللغات الأجنبية والجغرافيا، ويتلقون تعليمهم على يد أساتذة ذكور، ويمارسون الرياضة بالسراويل القصيرة. انعقد المجلس إذن، وحضره عمّي وجدّتي لللامهاني وكذا أبناء أعمامي الشباب الذين كانوا على علم بالتغير الحادث في مجال التعليم بواسطة الصحافة الوطنية والدولية. إلا أن انعقاد مجلس عادل كان يستلزم حضور أحد يدافع عن وجهة نظر أمّي التي أثارت المشكل، وقد جرت العادة بأن يحضر والدها، وبما أنه بعيد في الضيعة، فقد بعث بمن يمثله في شخص خالي التازي أخ أمّي الذي كان يسكن بجوارنا، ويتم استدعاؤه إلى مجلس العائلة حين تكون أمّي معنية، حتى تتلافى تحالف عائلة المرنيسي ضدّ مصالحها.

استُدْعيَ خالي إذن وانعقد المجلس، وكادت أمّي تطير فرحا حين تمّ الإعلان عن قبولهم تغيير مدرستي. لم أكن الوحيدة المعنية بذلك لأن أبناء وبنات أعمامي سيلحقون بي، ولذلك ودّعنا لللاالطام بابتهاج، وهرعنا نحو مدرسة مولاي ابراهيم الكتاني الموجودة على بعد أمتار من بوّابتنا. كنت سعيدة! لقد كنا مجبرين في الكتاب على الجلوس طيلة النهار، بحيث لا نتوقف إلا مرّة واحدة في اليوم لأكل الغذاء الذي نحمله معنا، كان النظام صارما، وكانت لللا الطام

تضربنا بالسوط إذا لم تكن راضية عن طريقتنا في الجلوس أو الكلام أو استظهار الآيات، وكانت الساعات تمرّ ثقيلة ونحن نحفظ عن ظهر قلب ونستظهر. وعلى العكس من ذلك، كان كل شيء في مدرسة مولاي ابراهيم الكتاني حديثا، كنا نجلس على الكراسي حول طاولة نتقاسمها مع اثنين من الذكور أو البنات، كان هناك من يتدخل دائما ولم نكن نحسّ الملل. لم نكن ننتقل من مادّة لأخرى فحسب كشأننا من العربية إلى الفرنسية أو الرياضيات أو الجغرافيا، بل كنا إضافة لذلك ننتقل من قسم لآخر، وفي الفترات التي تفصل بينهما بإمكاننا أن نمشي في الساحة، أو نأكل الحمّص، أو نأخذ الإذن بالذهاب إلى المرحاض الذي يوجد في الطرف الآخر من المبنى. كانت لنا أيضا فترة راحة إضافية تستغرق حوالي عشرة دقائق، وإذا ما حصل لنا تأخير ما علينا إلا أن ندق باب القسم دقتين خفيفتين قبل الدخول. كانت هذه الدقات تنال إعجابي بشكل خاص، لأننا لم نكن متعوّدين على دق الأبواب في دارنا، فهي إما مشرعة أو مغلقة، وذلك نظرا لفخامتهاواستحالة دفعها، ولأنه غير مسموح للطفل بفتح أو إغلاق الباب.

في المدرسة كانت لنا أيضا فترتا استراحة في حصة الصباح والزوال حتى نلعب في الساحة، كما كنا نتوقف عن الدروس مرّتين لتأدية الصّلاة في الظهر والعصر في مسجد المدرسة، بعد التوضؤ في النافورة المجاورة. إضافة إلى ذلك كنا نعود إلى البيت وقت الغذاء. حينها كنت ترى أطفال عائلة المرنيسي يتلاعبون في المسافة القصيرة الفاصلة بين المدرسة والبيت. كنا نثب حول الحمير التي نصادفها وهي محمّلة بالخضار، وأحيانا كان الأطفال يقفزون على ظهر أحد الحمير التي لا تحمل شيئا.

كنت سعيدة لوجودي في الشارع خلال واضحة النهار، وكنت أحيانا أقبّل الحمير الصغيرة ذات العيون الرقيقة المبتلة، وأحادثها حتى

ينتبه صاحبها ويأمرني بالانصراف مهدّدا بسوطه «بلاك!» كنا نهرع لدى ميمون بائع الحمص المقلي، وكانت النتيجة دائما غير مرضية، لأن مقدار الحمّص الذي يعطينا لا يتلاءم مع الدراهم التي يتلقاها، ولذلك كان يصاحبنا حتى البوّابة وهو يقسم بمولاي ادريس بأنه لن يتعامل معنا قطّ، ويصرخ بأن بعضنا سيدخل النار لأنه يأكل بدون خشية دون أن يدفع الحساب. وأخيرا اقترح أحمد البوّاب ذات يوم حلاً مشرّفا: علينا أن نأتمنه على مصروف جيبنا، وسيدفع منه الثمن لميمون في نهاية كل أسبوع. وإذاما تجاوز أحد حدّه سيخبرناويخبر ميمون هو الآخر.

كانت المدرسة الحديثة ممتعة إلى حدّ جعلني أحصل على نقطة جيدة، وأصبحت ذكية رغم بطئي الشديد، فاكتشفت طريقة أخرى للفت الانتباه. لقد حفظت عدّة أناشيد وطنية تعلّمناها في المدرسة عن ظهر قلب، وكان أبي فخورا إلى حدّ أنه كان يطلب منّي إنشادها لجدّتي لللامهاني مرّة في الأسبوع على الأقل. كنت في البداية أنشد نشيد «يا مليك المغرب» واقفة، وعندما لمست تأثير أناشيدي طلبت الإذن بالصعود على مقعد، وأخيرا رجوت أبي أن يلحّ على أمّي لكي تسمح لي بارتداء فستان الأميرة عائشة.

هذا الفستان ذو الصدارة من الساتان المزين بأشرطة مطرّزة كان نقلا حرفيا عن الفستان الذي ترتديه الأميرة عائشة أحيانا حين ترافق أباها الملك محمد الخامس. كانت هذه الأميرة تجوب البلاد وتدلي بتصريحات عن تحرّر المرأة، وكانت أمّي معجبة بها. لقد جرت العادة بألا أرتدي هذا الفستان إلا في المناسبات الخاصّة لأنه أبيض ويتسخ بسهولة، ولكن أبي دافع عنّي: «هذه الطفلة المسكينة تكبر بسرعة، ولن يسعها هذا الفستان في نهاية السنة». ولاستكمال العرض في النهاية رجوت أبي أن يعطيني راية مغربية صغيرة حتى ألوّح بهاوأنا

أنشد، ولكنه استبعد الفكرة في الحين: «هناك حدود بين المسرح والسيرك، ولا يمكن للفن أن يوجد إلا إذا روعي هذا الاختلاف».

إذا كانت أموري تسير على أحسن ما يرام بفضل أساتذتي الجدد، فإن ظروف أمّي كانت على العكس من ذلك، إذ أن حياتها في الحريم غدت مستحيلة أكثر من أي وقت مضى. أدْرَكْتُ ذلك عندما تناهت إليها أخبار المصريات المدافعات عن حقوق النساء وهنّ يتظاهرن ويعيّنّ وزيرات، وكذا النساء التركيات اللائي تقلدن مناصب رسمية، دون أن نغفل أميرتنا للّلاعائشة، وهي تحث النساء باللغتين العربية والفرنسية على اعتناق العادات الحديثة. كانت أمّي تشكو من العبث الذي يطبع حياتها، فالعالم يتغير والأسوار ستسقط، ورغم ذلك تظل هي سجينة. طلبت أن تحضر دروس محاربة الأمية لدى الكبار، ولكن طلبها رفض من طرف مجلس العائلة: «جعلت المدرسة للبنات لا للأمّهات، ذلك ما أعلنته لللامهاني قبل أن تضيف، إن ذلك لا يشكل جزءا من تقاليدنا».

ردّت أمّي: «وإذن؟ من يستفيد من الحريم؟ ماذا يمكن أن نقدّم للوطن ونحن محاصرات في ساحة؟ لماذا نحرم من التعليم؟ من الذي اخترع الحريم؟ وبأي هدف؟ من يشرح لي؟». كانت هذه الأسئلة تظل بدون إجابة غالب الأحيان، وتتطاير في الهواء كالفراشات التائهة.

تخفض لللامهاني بصرها حتى تتفادى نظرات أمّي وتحاول عمّتي حبيبة وشامة تغيير دفة الحديث. تصمت أمّي لحظة ثمّ تطمئن وهي تتحدث عن مستقبل أطفالها «على الأقل ستحيا بناتي حياة أفضل، سيكتشفن العالم ويفهمنه ويساهمن في تغييره. إن هذا العالم فاسد، بالنسبة لي على كل حال. أمّا أنتن يا سيّداتي فربّما قد عثرتنّ على السرّ الذي يمكنكن من السعادة في وسط الحريم». ثمّ تلتفت إليّ: «أنت ستغيّرين العالم، أليس كذلك؟ ستقودين السيارة أو الطائرة كثُريّة

الشاوي، ستخلقَين عالما دون أسوار ولا حدود، حيث يكون الحراس في عطلة دائمة».

كان الصمت يسود فترة طويلة بعد كلماتها، ولكن جمال الصور التي ذكرتها يبقى سابحا في ساحة الحريم كعطر، كحلم خفي ولكنه بالغ القوّة.

- 20 -

الأجنحة الخفية



كان وسط الدار تلك الظهيرة أكثر صمتا وهدوءا من المعتاد، كنت أسمع خرير الماء في النافورة، والصمت شامل كأن الناس يحبسون أنفاسهم في انتظار شيء ما، أو أن أحدا ما كان يحاول خلق سراب. لقد عرفت من خلال كتب شامة وأحاديثي معها أن بإمكان الإنسان أن يبعث بالصور إلى جاره إذا طور قدرته على التركيز. كانت لللاالطام تلح دائما على ضرورة التركيز عندما نقبل على الصلاة «الصلاة هي خلق الفراغ ونسيان العالم خلال دقائق حتى نتمكن من التفكير في الله وحده. لايمكننا أن نفكر فيه سبحانه وتعالى ونحن مشغولون بمشاكلنا اليومية، كما أننا لا يمكن أن نسير في اتجاهين في نفس الوقت، وإلا لن نصل إلى أي مكان، أولن نصل إلى المكان الذي كنا نود الذهاب إليه على كل حال». تقول عمتي حبيبة بأننا نحتاج التركيز لأسباب عملية: «كيف نمشي أو بالأحرى نطرز أو نطبخ إذا لم نركز؟ أتريدين أن تكوني مثل سطيلة الأزرق؟».
لا لست راغبة في أن أكون مثلها، إنها إحدى بنات جيراننا، وهي لاتتذكر أبدا أسماء الآخرين، وقد أطلق عليها لقب سطيلة تشبيها بالسطل الصغير لأن المعلومات تتسرب من ذهنها كما يتسرب الماء منه. ارتكز جزء من تربيتي على تعليمي التركيز، ولكنني لم أبال بالأمر إلا عندما أخبرتني شامة بأنه بإمكاني، إذا ركزت أن أبعث

بصور إلى الناس المحيطين بي. ذكرتني هذه الفكرة السحرية بأنني سمعت شامة وعمتي حبيبة أو أمي يتحدثن عن حث كل نساء الساحة على أن يدعن الأجنحة تنبت لهن، وكانت عمتي تزعم بأن في مقدور الكل التوفر على أجنحة، والمسألة مسألة تركيز فقط. إن الأجنحة المعنية ليست ظاهرة كأجنحة الطيور، ولكنها تؤدي دورها على أحسن مايرام، وكلّما تعودنا على التركيز ونحن صغار كلما كان الأمر أفضل. وعندما ألحَيتُ عليها لكي تشرح أكثر تضايقت وأخبرتني أن بعض الأشياء العجيبة لا تلقّن: «ماعليك إلا أن تكوني يقظة وتلتقطي الحفيف الحريري للحلم المجنّح»، ولكنها رغم ذلك أوضحت لي بأن هناك شرطين ضروريين للتوفر على أجنحة: «أولهما أن تحسي نفسك محاصرة في دائرة، وثانيهما أن تؤمني بأنك قادرة على فك حصارها»، وبعد صمت وجيز، أضافت عمتي، وهي محرجة لاتفتأ تعدل من لفة المنديل حول شعرها دونما سبب بطريقة توحي بأنها ستقول أشياء تبعث على الضيق: «أما الشرط الثالث بالنسبة إليك ياصغيرتي، فهو أن تكفي عن أسئلتك التي تمطرين بها البشر. إن الملاحظة طريقة مثلى للتعلم. أتعرفين! إذا استمعت وفمك مغلق، وعينك يقظة، وأذنك متحفزة، ستكتشفين سحر الحياة بشكل أفضل مما لو كنت تتسكعين في هذا السطح لتتجسسي على الكواكب أو تراقبين الهلال!». فجرت هذه الكلمات فيّ مزيجا من القلق والكبرياء، قلق لأن إقبالي السري على السحر والتعاويذ لم يعد سرا على مايبدو، وكبرياء لأننا إذا اعتبرنا ذلك سرا فهو ينتمي إلى عالم الكبار أكثر من انتمائه إلى عالم الأطفال.
لقد كان السحر سرا يكتسي جدية أكبر من اختلاس الفواكه قبل أن يأتي دورها على المائدة، أو الهروب من دفع الثمن إلى ميمون بائع الحمص. كنت أيضا فخورة لأنني أدركت بأن للسحر نكهات متعددة كالقشدة المثلجة، بحيث كنت أتذوق إحداها حين أنسج روابط مع النجوم، وأتذوق نكهة أخرى منها حين أركز على الأحلام الخفية

وأطور أجنحتي الداخلية. لم أكن أصادف في الظاهر أحدا ليساعدني على أخذ فكرة عن هذه الطريقة الثانية، وإذا ماكانت مذكورة في كتب شامة فإنني لم أعثر عليها حتى الآن.

في تلك الظهيرة التي لا تُنسى، أحسست إحساسا غريبا بأن أحدا يهيئ انطلاقة أجنحة أو يرمي بصور هوائية في وسط الدار البادية الهدوء في الظاهر، ولكن من هو الساحر؟ زممت شفتي وفتحت عيني وأدرتهما حولي، كانت النساء المنهمكات في التطريز منقسمات إلى فريقين، كل منهما منكب على الشكل الذي يشتغل عليه. ولكن هذا الصمت عندما يسود وسط الدار يعني بأن هناك حربا صامتة، وحين تنظر بتأن إلى الأشكال المطرزة تدرك سبب هذه الحرب: إنه التعارض الأزلي بين التقليدي والعصري. لقد كانت شامة وأمي تمثلان معسكر العصريات بتطريزهن لشكل يشبه جناح طائر في الجو، لم يكن الشكل جديدا على الساحة ولكنه يصدم دائما بجسارته، لأن المعسكر الآخر الذي تقوده لللامهاني ولللاراضية، قد ندد به في المرات السابقة بدعوى أنه غير مقبول، لقد كن يطرزن شكلا تقليديا، وكانت عمتي حبيبة في جانبهن تنهمك معهن في تطريز ما اخترنه لأنه ليس بإمكانها الجهر بأفكارها الرافضة. لقد كانت تجذب الإبرة في صمت ولا تتدخل في شؤون لا تعنيها.

على العكس من ذلك كان معسكر العصريات أبعد مايكون عن التواضع، وكانت أمي وشامة بالغتي الاستفزاز، على رأس كل منهما قبعة كتلك التي تضعها اسمهان ذات مقدمة على شكل مثلث يسقطُ على الجبين وقد طرزت عليه كلمة ڤيينا. وكانتا من حين لآخر تترنمان بأغنية اسمهان «ليالي الأنس في ڤيينا» ذات السمعة السيئة التي ألهمت صانعي القبعة. وكانت لللامهاني تكشر لدى سماعها لأن هذه الأغنية التي تتحدث عن اللذة المنحطة في عاصمة نصرانية، تشكل في رأيها سبة في وجه التقاليد والأخلاق.

ذات يوم، حاول سمير أن يكتشف ماتمتاز به مدينة ڤينا، فأجابه زين بأنها مدينة يرقص فيها الناس رقصة تسمى الڤالس، يضم الرجل المرأة إلى صدره ويرقصان خلال ساعات وهما يتمايلان حتى يفقدان الوعي من اللذة والحب كما لو كانا في رقصة گناوة ولكن النساء هناك لا يرقصن وحيدات، بل إن هذا العناق والرقص يتم في قاعات مزينة أو في الشارع خلال بعض الأعياد، حيث تلمع أضواء المدينة في الظلمة. كانت للالامهاني تعلق بحدة وهي بالغة الغضب: «حين تحلم ربات بيوت مسلمات برقصات مثيرة في مدينة أوروبية ملوّثة فَقُلْ على الدنيا السلام!» عارضت أم شامة لللاراضية وضع ابنتها لقبعة اسمهان في البداية، واتهمت أمي بتشجيعها لشامة، وقد توترت العلاقة بينهما إلى حد القطيعة. وقف أبي مشدوها حين رأى القبعة على رأس أمي أول مرة، لقد عارض منذ فترة قصيرة رغبتها في ارتياد المدرسة ولذلك لم ينبس ببنت شفة. ساءت الأمور بعد ذلك حين أصيبت شامة بنوبة عصبية مما اضطر لللاراضية إلى التراجع عن موقفها، بل إنها أعادت القبعة إلى رأس ابنتها.

في ذلك الزوال السحري كانت للالامهاني تتابع حديثها عن ضرورة احترام التقاليد. إن كل مايخالف تراث أجدادنا حسب رأيها لا يمكن أن يكون ملائما، وينطبق ذلك على تسريحات الشعر كما ينطبق على القوانين والبناء، فالتجديد ملازم للدمامة والقبح «تأكدن من أن أسلافكن قد اكتشفوا أفضل طريقة للتصرف، تقول ذلك وهي تصوب بصرها إلى أمي. كيف يمكن أن نعتقد بأننا أكثر ذكاءا من كل الأجيال التي سبقتنا؟». توقفت أمي لحظة عن التطريز لتجيب للالامهاني «إنني كل يوم أضحي بنفسي وأخضع للتقاليد حتى تستمر الحياة في هذا البيت السعيد. ولكن هناك أعمال شخصية جدا كالتطريز أو تسريحة الشعر تمكنني من التنفس ولن أتخلى عنها. لقد كرهت الطرز التقليدي دائما ولاأرى مانعا من أن يطرز الناس

مايرغبون فيه، إنني لا أسيء إلى أحد وأنا أبدع طائرا غريبا عوض الانكباب دائما على الشكل التقليدي البئيس بفاس وهي مدينة لا أطيقها لأنني أحلم بأمكنة فسيحة حتى أقفز كما يحلو لي». كانت الأجنحة التي تطرزها أمي أجنحة طاووس أزرق لتزيين قميص شامة الحريري ذي اللون الأحمر بعد الانتهاء من تطريزها، وستصنعان نفس الشكل لأمي، ذلك أن النساء اللائي يحملن نفس الأفكار كن غالبا مايلبسن زيا موحدا لإظهار تضامنهن.

كان طاووس شامة مستوحى من حكاية الطيور لشهرزاد، وكانت أمي شغوفة بهذه الحكاية لأنها تشمل موضوعيها المفضلين: الطيور والجزر الخالية. وهي تحكي قصة طيور تهرب من الأخطار المحدقة بها في جزيرة إلى جزيرة أخرى بقيادة طاووس: «قالت بلغني أيها الملك السعيد أنه كان في قديم الزمان وسالف العصور والآوان طاووس يأوي إلى جانب البحر مع أنثاه، وكان ذلك الموضع كثير السباع وفيه من سائر الوحوش غير أنه كثير الأشجار والأنهار. وذلك الطاووس هو وأنثاه يأويان إلى شجرة من تلك الأشجار ليلا من خوفهما من الوحوش ويغدوان في طلب الرزق نهارا ولم يزالا كذلك حتى كثر خوفهما فسارا يبغيان موضعا غير موضعهما يأويان إليه. فبينما هما يفتشان على موضع إذ ظهرت لهما جزيرة كثيرة الأشجار والأنهار فنزلا في تلك الجزيرة وأكلا من ثمارها وشربا من أنهارها»-1-.

كانت هذه الحكاية تنال إعجاب شامة لأن الزوجين فيها بحثا عن جزيرة تلائمهما، وفكرة التحليق هذه للبحث عن السعادة تبهر شامة فتطلب من عمتي حبيبة إعادة البداية دونما نهاية، إلى أن يتصاعد احتجاج الحاضرات: «إنك تعرفين القراءة وماعليك إلا أن تبحثي عن الكتاب وتكرري المقطع مئات المرات إذا شئت ذلك. دعي عمتي تتابع وكفي عن مقاطعتها!» كان الكل متعطشا لمعرفة

ماسيحدث للطيور لأن سحر الحكاية يفعل فعله كل مرة، وكل واحدة من الحاضرات تتماهى مع هذه المخلوقات الهشة والمغامرة التي كانت تخوض أسفارا خطيرة نحو المجهول. وموقف شامة كان يوضح بأن القراءة أقلّ متعة من سماع عمتي حبيبة وهي تنظم كلماتها العجيبة كالجواهر «أريد أن تفهمن يا سيداتي معنى هذه الحكاية، ذلك ماتقوله وهي توجه نظرات التحدي إلى لللامهاني. هذه الحكاية ليست حكاية عن الطيور، بل إنها حكايتنا نحن كذلك، إنها تتحدث عنا أنا وأنت. أن تعيش يعني أن تتحرك وتبحث عن أمكنة تلائمك، تجوب الأرض بحثا عن جزر تفتح لك ذراعيها. إنني عازمة على الزواج من رجل سأذهب معه لاكتشاف الجزر المجهولة!». كانت عمتي حبيبة تطلب منها ألا تستغل الحكاية للدعاية لأفكارها الشخصية التي تزرع الشقاق في مجموعتنا، فتقول: «أرجوكن! لنعد إلى طيورنا» ثم تتابع الحكاية، والواقع أن الانسجام لم يكن سائدا بين هؤلاء النساء اللائي تنعتهن عمتي بالمجموعة.

كانت الهوة شاسعة بين العصريات والتقليديات، وكان الخلاف بشأن الأشكال المطرزة يعكس رؤى متناقضة عن العالم. فالطرز التقليدي مهمة ثقيلة تستغرق وقتا لا ينتهي، في حين أن الأشكال العصرية باعثة على المتعة. في الطرز التقليدي تكون الغرزة صغيرة مصنوعة من خيط رقيق بحيث تنكب الصانعة على المرمة عدة ساعات ولا تتقدم خلال ذلك إلا بعض سنتمترات. حاولت لللامهاني أن تعلمني فمنحتني شرف الجلوس الى مرمتها، ولكنها حين رأت النتيجة السيئة طردتني وهي تتنبأ بأنني سأكون غير قادرة على الانضباط كأمي: «آمل أن يكون لك حظ مثل حظها في العثور على زوج يقبل هذه اللامبالاة». كان الطرز التقليدي يستعمل لتحضير جهاز العروس من مخدات وأغطية للسرير، وكان ذلك يستغرق شهورا أو سنوات

أحيانا. يجب أن تكون الغرزة هي نفسها في وجهي الثوب، والخيوط محكمة بحيث لا تبرز العقد في الطرز. وكانت لللاراضية محتاجة إلى طرز تقليدي كثير لجهاز بناتها اللواتي سيتزوجن. على العكس من ذلك لم يكن تطريز الطيور التي تصنعها أمي وشامة يستغرق وقتا طويلا، وكانت الغرزات أهون والخيوط مزدوجة، ولم يكن من النادر وجود عقد كبيرة على المساحات المطرزة، ولكن النتيجة كانت تماثل في جمالها الطرز التقليدي وأكثر، نظرا لجدة الأشكال والمزج المدهش بين الألوان. وعلى عكس الطرز التقليدي لم يكن الهدف من الأشكال العصرية هو عرضها، بل كانت تقتصر على الثياب الشخصية كالقمصان والسراويل والمناديل.

كان هذا الطرز العصري في النهاية وسيلة مرضية إلى حد ما للتعبير عن الثورة، لأنه بالإمكان تزيين عدة أمتار من الثوب خلال يومين أو ثلاثة. وكان بمقدور اللائي يشتغلن الإسراع أكثر لو استعملن خيطا أمتن وغرزا أكبر: «وكيف تنوين تعلّم الانضباط إذا صنعت غرزا غير متقنة كهذه كيفما اتفق؟» كان ذلك رد لللامهاني عندما سألتها. وجدت سؤالها محرجا، فالجميع يقول بأن الإنسان لايمكنه أن يحقق شيئا إذا لم يتعلم الإنضباط، وكنت أود أن أحقق شيئا. من يومها غدوت أتنقل من منوال إلى آخر، أتذوق قليلا من الحرية وأستمتع بقدر من الراحة في معسكر العصريات، لأعود إلى قدر من الضبط والصرامة في المعسكر الآخر. لم تكن عمتي حبيبة تحب أشغال الإبرة المكرورة والمعقدة في الطرز التقليدي، وكانت أمي وشامة على علم بذلك، إلا أنها لم تكن قادرة على التعبير عن آرائها بحرية نظرا لوضعها الذي لا يخولها امتيازا في البيت، ثم لأنها لاتود زعرعة التوازن بين المعسكرين، لأن ذلك التوازن كان أساسيا في الحريم. من حين لآخر كانت أمي وشامة تتبادلان معها النظرات لتشجعيها والتعبير عن مؤازرتهما لها.

«أرجوك ياعمتي حبيبة، لنعد إلى حكاية الطيور» حين كانت المستمعات تطالبن بحكاية كانت عمتي حبيبة تتخلص في الحين من عبء الإبرة، وكنت ألاحظ بأنها دائما تحدق في مربع السماء الصغير فوق رؤوسنا قبل أن تستأنف الحكاية، وكأنها تشكر الله الذي أنعم عليها بهذه الموهبة، أو أنها كانت بحاجة إلى تلك الصلة الخاطفة بالسماء لاستعادة الحياة وتجديد قوتها على الاستمرار. كانت الجزيرة التي عثر عليها الطواويس جنة غزيرة العشب وفيرة المياه ثم إنها كانت بعيدة عن الناس أي عن تلك المخلوقات الخطيرة التي تدمر الطبيعة: «إن ابن آدم يحتال على الحيتان فيخرجها من البحر ويرمي الطير ببند من طين ويوقع الفيل بمكره. وابن آدم لا يسلم أحد من شره ولا ينجو منه طير ولا وحش»[-2-].

وكانت الجزيرة مكانا آمنا وسط البحر لاتصله السفن لأنه بعيد عن طرقها التجارية، تتالت الأيام على الطاووسين هنيئة وهادئة حتى اليوم الذي صادفا فيه بطة تعاني من مشاكل وتعيش كوابيس غريبة، قصدتهما البطة مرعوبة وجد مضطربة، وما أن وصلت الشجرة التي كانا يستقران عليها حتى نزلت عليها السكينة. خمّن الطاووسان بأن وراءها قصة فاستفسراها عن سر همومها فأجابتهما: «إني في هذه الجزيرة طول عمري آمنة لاأرى مكروها، فنمت ليلة من الليالي فرأيت في منامي صورة ابن آدم وهو يخاطبني وأخاطبه وسمعت قائلا يقول أيتها البطة: احذري من ابن آدم ولا تغتري بكلامه ولابما يدخلها عليك فإنه كثير الحيل والخداع. فالحذر كل الحذر من مكروه إنه مخادع، ماكر فاستيقظت من منامي خائفة مرعوبة وأنا إلى الآن ما انشرح صدري خوفا على نفسي من ابن آدم»[-3-].

كانت شامة تصاب بالقلق دائما عندما تصل عمتي حبيبة إلى هذا الجزء من الحكاية لأنها كانت بالغة الحساسية تجاه الطريقة التي تعامل بها الطيور على السطح حيث تطارد العصافير بواسطة الحجر المنبعث

من سهام تنطلق من «جبادة» صنعت للمناسبة، إنها رياضة جدّ اعتيادية لدى الشباب، والذي كان يقتل أكبر عدد من العصافير ينال الإعجاب والتصفيق. وغالبا ماكانت شامة تصرخ وتبكي حين يلهو أخواها زين وجواد بقنص الطيور التي كانت تزقزق منتشرة بالمئات في السماء لدى كل غروب شمس وكأنها تخاف الظلام القادم. وكان القناصون يجذبونها برمي حبات الزيتون على الأرض، ثم يصوبون نحوها آلاتهم ويقتلونها. كانت شامة تقف مسمرة ترقب إخوتها وتسألهم أي متعة يستشعرونها وهم يقنصون تلك المخلوقات الصغيرة: «حتى العصافير في هذه المدينة لا تعرف الأمن» ذلك ماكانت تقوله قبل أن تهمهم بأن الأمور ليست على مايرام في مكان تعامل فيه العصافير المسالمة والنساء كمجرمين خطيرين.

شاءت شامة أن تطرز حكاية الحيوان، وأرادت أن تستعمل لذلك خيطا أزرق قاتما لكي تطرز به ثوبا حريريا أحمر فاقعا. ولكن النساء المقيمات في حريم لا يتسوقن، ولم يسمح لهن بالخروج إلى القيسارية التي تعج حوانيتها الصغيرة بالأثواب الحريرية والمخملية من كل صنف ولون. كن مجبرات على أن يشرحن لسيدي علال مايرغبن فيه. وقد انتظرت شامة شهورا لكي تحصل على الحرير الأحمر وأسابيع إضافية قبل أن تتوفر على الخيط الأزرق، ورغم ذلك لم تكن الألوان ملائمة لذوقها، لأن سيدي علال لايملك نفس تصورها للّونين الأزرق والأحمر. جعلني ذلك أدرك بأن الكبار لا يفهمون الكلمات بنفس الطريقة حتى ولو تحدثوا عن تفاصيل بسيطة كالألوان. ومن ثُمّ لم يكن من المدهش أن يتنازعوا ويختلفوا كلما تلفّظ أحد بكلمة «حريم». وماكان يعزيني هو أن أفكارهم ليست بأوضح من أفكاري في الأشياء الهامة.

كان سيدي علال أحد أبناء أعمام للالامهاني، الشيء الذي كان يخوله قدرا من السلطة، كان رجلا جميلا ذا قامة طويلة وشارب

صغير، يملك موهبة الاستماع التي كانت تدفع بالنساء إلى الغيرة من زوجته لللازهرة. كان أيضا ذا ذوق رفيع يرتدي صدريات تركية مطرزة جد أنيقة، مصنوعة من ثوب صوفي بني فاتح، وسروال شبيه بسروال الفرسان، وخفين جميلين من الجلد الرمادي اللون، وبما أن جل تجار القيسارية من أصدقائه، فقد كانوا يخصونه بأغلى الأثواب التي يحملها الحجاج من مكة ليصنع منها عمامامته. لم يكن سيدي علال يتكلف بمهمته دون أن يهدي زبونته قطرة عطر، وكانت عملية شرح النساء لما ترغبن فيه باعثة على المتعة، إذ أن كلا منهن تتوقف بعد كل جملة لكي تجد الكلمة الدقيقة لوصف ملمس نسيج الثوب أودرجة اللون أو المزيج الصعب بين الإثنين. لم يكن من السهل أن يتصور سيدي علال الحرير والخيوط اللازمة للتطريز بالضبط، وبالتالي فإن اللائي لايتقن الوصف كن يطلبن من النساء البليغات أن يصفن مايرغبن فيه لسيدي علال، الذي لم تكن أحلامهن لتتحقق بدونه. كانت كلا منهن تصف نوع الورود التي تود تطريزها، ألوانها، وكذا ألوان براعمها أو أحيانا ألوان الأشجار ذات الأغصان المتشابكة. أما الأخريات فيصفن جزرا محاطة بالسفن. لقد كانت هؤلاء النساء المحاصرات بحدود مفروضة عليهن يبد عن مناظر وعوالم كاملة. كان انتباه سيدي علال لما تقوله المتحدثة يختلف تبعا لوضعها الاجتماعي، كما كان ينحاز إلى صف لللامهاني حين يتم الحديث عن الأشكال العصرية والتقليدية. وكان هذا الانحياز يجعل النساء اللائي توفي عنهن الزوج أو اللائي طلقن كعمتي حبيبة في وضعية صعبة، لم يكن بإمكانهن التعبير عن رغبتهن في أشكال الطرز العصرية، وكن مجبرات على أن يعتمدن على نساء يمارسن تأثيرا كأمي وشامة لوصف الحرير الذي يحتجنه في تطريز نماذجهن الجديدة.

كانت عمتي حبيبة مجبرة على الاحتفاظ بالطيور التي تحلم بها في أعماقها «إن الحلم أساسي بالنسبة للذين لايتوفرون على السلطة» ذلك

ماكانت تقوله لي أحيانا كثيرة وأنا أراقب الدرج حتى تتمكن من تطريز طائر أخضر على المرمة السرية التي كانت تخفيها في الزاوية المظلمة من غرفتها، الواقع أن الحلم وحده مجرد من قدرة التحقق لا يغير العالم ولايخترق الأسوار، ولكنه يساعد الإنسان على الاحتفاظ بكرامته. الكرامة هي أن تحلم حلما قويا يمنحك رؤية وعالما يكون لك فيه مكان، وحيث تغير مشاركتك مهما كانت محدوديتها شيئا ما.

تكونين في حريم حين لا يحتاج العالم إليك.

تكونين في حريم حين تهمل مساهمتك ولاأحد يطلب منك شيئا.

تكونين في حريم حين يغدو كل ماتقومين به غير ذي فائدة.

تكونين في حريم حين تدور الأرض وأنت غارقة في الاحتقار واللامبالاة.

شخص واحد يملك سلطة تغيير هذا الوضع وجعل الأرض تدور في النهر المعاكس، وهذا الشخص هو أنت.

إذا قاومت الاحتقار وحلمت بعالم مخالف تتغير وجهة الأرض.

ولكن ماعليك تجنبه بأي ثمن، هو أن يمتد هذا الاحتقار الذي يحيط بك إلى داخلك. لم يكن الشك يرواد عمتي حبيبة بهذا الشأن: «حين تعتقد المرأة بأنها لاشيء تبكي الطيور الصغيرة، إذ من سيدافع عنها في السطح إذا لم يكن أحد يتصور عالما بدون مقالع لاقتناصها؟». كانت عمتي حبيبة تقول بأن على الأمهات أن يحدثن أطفالهن عن أهمية الأحلام «لا يكفي أن ترفضي ساحة هذا الحريم، بل من اللازم أن تتصوري المروج التي ستضعينها مكانها» سألت عمتي حبيبة، ماذا نفعل لكي نميز من بين كل ا لأحلام التي تراودنا الحلم الذي يجب أن نركز عليه، والذي يمكننا من التوفر على هذه الرؤية؟

أجابتني بغموض بأن على الأطفال أن يتحلّوا بالصبر، وأن الحلم ينبعث ويكبر داخلنا، وأننا سنستشعر بهجة تجعلنا ندرك بأنه الكنز الحقيقي الذي سينبثق منه الضوء. نصحتني بألا أقلق لأنني أنتسب إلى سلالة من النساء معروفة بأحلامها القوية: «حلم جدتك الياسمين هو اعتقادها بأنها مخلوقة استثنائية. إنها وهي القادمة من البادية لم تقبل قط بتفوق أصحاب مدينة فاس، ولا أحد استطاع أن يغير رأيها، لقد حولت جدك بفضل قوة الحلم الذي قاسمها إياه. أمك هي الأخرى ذات أجنحة داخلية، ووالدك يطير معها كلما سنحت له الفرصة. ستكونين أنت الأخري قادرة على تغيير العالم، أنا متأكدة من ذلك، ولو كنت مكانك ما قلقت».

انتهت تلك الظهيرة التي ابتدأت بشعور غريب هو مزيج من السحر والأحلام المجنحة، بإحساس أكثر متعة وغرابة. أحسست نفسي فجأة راضية مطمئنة كما لو أنني اخترقت عالما مجهولا ولكنه آمن. لم أكتشف شيئا غير عادي، ولكنني أحسست بأنني عثرت على شيء ما ذي أهمية، وعليَّ أن أكتشف اسمه. كنت أعرف بأنه يتعلق بالحلم والواقع في نفس الآن، ولكنني لم أكن قادرة على تعريف ماهيته. سألت نفسي ما إذا كان هذا الإحساس بالإطمئنان نابعا من غروب الشمس، ذلك أن الأصائل في فاس سريعة إلى حد كنت معه أشك في أنني أحلم عندما يسود الظلام. كانت السحب الوردية التي تجتاز مربعنا السماوي البعيد تلك الأمسية بطيئة إلى حد أن النجوم بدأت تظهر قبل أن يسود الظلام، اقتربت من شامة ووصفت لها إحساسي، واستمعت إليَّ بتأن وقالت بأنني بدأت أنضج. أحسست برغبة عارمة في أن أسألها عما تعنيه بذلك، ولكنني خفت أن تنسى ماكانت بصدد قوله، وتتهمني بمقاطعة الكبار بأسئلتي الملحة. استأنفت حديثها وكأن ماتقوله لايعني سواها: «إننا ننضج حين نشرع في الإحساس بحركة الزمن كما لو أنه يداعبنا» أبهجتني هذه الجملة

لأنها شملت ثلاث كلمات تتردد في كتب السحر: الحركة والزمن والمداعبة. تابعت الاستماع إليها، أبعدت مرمة الطرز ورمت بكتفيها إلى الوراء وداعبت قبعتها، وبعد أن وضعت وسادة كبيرة وراء ظهرها، انطلقت في مونولوج على طريقة اسمهان. صوبت بصرها نحو أفق لامرئي وذقنها مسنود على يدها اليسرى:

«الزمان هو جرح العرب، إنهم يرتاحون إلى الماضي.

الماضي هو العودة إلى خيام أسلافنا.

التقليد هو مكان الأموات.

والمستقبل رعب وذنوب.

والتجديد بدعة وإجرام.

اهتزت شامة للكلمات وقامت قائلة بأنها ستدلي بإعلان هام. رفعت قميصها المطرز الأبيض بيد واستدارت عدة مرات وانحنت أمام أمي ونزعت قبعتها، ورفعتها أمامها كراية مجهولة، ثم شرعت في إلقاء قصيدة تحتذي فيها طريقة الشعر التقليدي:

«ماهي المراهقة لدى العرب، هل بينكم من يخبرني رأفة بي؟

هل المراهقة جرم؟

هل يعرف أحد الجواب؟

أود أن أعيش في الحاضر، فهل أقترف إثما؟

أود أن أشعر بمداعبة كل ثانية تمر على جسدي؟ أفي ذلك جرم؟

هل بإمكانكم أن تشرحوا لي لم لا توجد ليالي الأنس إلا في فيينا؟

ولم لا تكون ليالي أنس في مدينة فاس؟

تحول صوت شامة في تلك اللحظة إلى همهمة يعلوها النحيب. وثبت أمي التي تعرف مدى قابلية شامة للانتقال من الضحك إلى

الدموع وانحنت عليها وساعدتها على الجلوس فوق المضربة. ثم نزعت قبعتها بدورها بحركات ملكة مبالغ فيها، وحيت الجمهور المنتبه والمشدود إلى مايجري، كما لو أن كل شيء كان معدا مسبقا:

«أيتها السيدات، أيها السادة الغائبون،

إن ليالي الأنس في ڤيينا، وماعلينا إلا أن نكتري حميرا لنهاجر إلى الشمال.

والسؤال الرئيسي الذي سيطرح حينها هو:

ماذا نفعل لكي نحصل على جواز سفر لحمار صغير من فاس؟

ماذا نلبس دابتنا الدبلوماسية؟
الزي المحلي أم الأجنبي؟
التقليدي أو العصري؟
فكروا جيدا!
سواء أجبتم أم لا
لن نأبه لرأيكم».

- 21 -

البشرة الناعمة



حدثتْ القطيعة بيني وبين سمير حين كنت في سن التاسعة، وأعلنت شامة بأنني غدوت ناضجة. لقد فهمت آنذاك بأن سمير لا يولي اهتماما للجمال، حاول أن يقنعني بلاجدوي وصفات الجمال، ومن جهتي حاولت إقناعه بأنه لا فائدة ترجى من إنسان يهمل بشرته، لأنها الغلاف الذي نحسّ من خلاله العالم الخارجي، وطبعا كنت أعرض نظرية عمّتي حبيبة التي غدوت من أنصارها المتحمّسين. والواقع أن علاقتي بسمير بدأت تسوء منذ مدّة، لقد أصبح يناديني بعسيلة (تصغير عسل) حين كان يفاجئني وأنا أترنم بصوت يصطنع الارتعاش بأوبريت اسمهان «انتصار الشباب». كان وصف عسيلة سبّة تطلق على الإنسان الثقيل الظل إلى جانب كونه رخوا ومغفلا، وبما أن سهوي وبطئي كانا مثار انتقادات في البيت، فقد رجوته أن لا يناديني بهذا اللقب الفظيع. إلا أن علاقتنا ازدادت سوءا، كان يسخر من اهتمامي بكتب السحر والتعاويذ والتنبؤات، ويتركني وحيدة أواجه أخطار الجن التي تهدّدني في زاوية كل صفحة من كتب شامة. وذات يوم احتدّ خلافنا فاستدعاني بسرعة إلى السطح، وأخبرني بأنه سيبحث لنفسه عمّن يلعب معه إذا اختفيت مرّة أخرى للمشاركة في إعداد وصفات الجمال النسائية، لكي ألحق به بعدها ووجهي وشعري مطليين بقناع دسم ذي رائحة كريهة. لا يمكن

للأشياء أن تستمرّ هكذا حسب قوله.

كان عليّ أن أختار بين اللعب والجمال، حاولت إقناعه بترديد أفكار عمّتي حبيبة التي يحفظها عن ظهر قلب، كانت هذه الأخيرة مقتنعة بأن العالم سيكون أفضل لو وضع الرجال أقنعة الجمال بدل أقنعة الحروب، ولكن سمير رفض الفكرة واعتبرها سخيفة وكرّر إنذاره: «عليك أن تختاري الآن، لا أريد أن أجد نفسي وحيدا خلال يومين متتابعين»، حين رأى اضطرابي رق قليلا وأضاف بأنه بإمكاني التفكير في الأمر، أجبته بأن الأمر لا يتطلب ذلك لأنّني اتخذت قراري: «إن قدر المرأة في جمالها وقد قررت أن ألمع كالقمر». غمرني بعدها إحساس غامض بالندم والخوف، ورجوت الله في سرّي أن يطلب منّي سمير التراجع عن قراري لكي لا أفقد ماء الوجه، ويا للروعة! ذلك ما حصل فعلا إذ ما لبث أن قال: «يا فاطمة، إن الله هو وحده المسؤول عن الجمال، لن تتحوّلي إلى قمر بمجرّد وضعك الحناء والغسول أو أي خليط آخر رديء. إن الله منع علينا تغيير مظهرنا الخارجي، وقد تذهبين إلى النار». ثم كرّر بأن اختياري للجمال سيدفع به للبحث عن رفيق آخر للعب. كان الاختيار مؤلما ولكنّني أعترف بأنني كنت أحسّ في داخلي إحساسا غريبا هو مزيج من الانتصار والفخر، لم أستشعره من قبل ولم أدرك كنهه إلا فيما بعد.

كان ذلك الإحساس نابعا من إدراكي لأهميتي لدى سمير، لم يكن بإمكانه العيش على السطح بدوني، إنه إحساس رائع إلى حدّ أني لم أقاوم رغبتي في الاستفادة أكثر من هذا الامتياز، ولذلك ركزت بصري على نقطة في الأفق وهمست بصوت لا يكاد يسمع، كنت آمل أن يشبه نبرات اسمهان: «يا سمير، إنّي أعرف بأنك لاتستطيع العيش بدوني، ولكني أعتقد بأنه آن الأوان لكي تدرك بأنّني غدوت امرأة»، ثمّ أردفت بعد وقفة قصيرة: «يجب أن نفترق!». لتقليد اسمهان،

كان عليّ أن لا أنظر إلى سمير، رغم رغبتي في سبر أثر كلماتي عليه، قاومت الرغبة وصوّبت بصري إلى الأفق ولكن سمير فاجأني: «لا أظن بأنك أصبحت امرأة، فأنت لم تتجاوزي التاسعة بعد، ثم إنه ليس لك نهود في حين أن كلّ النساء يملكنها». كانت هذه السبة غير متوقعة فقررت أن أردّ بالمثل: «سأتصرف منذ اليوم كامرأة سواء كان لي نهدان أم لا، وسأقضي الوقت اللازم للعناية بجمالي، فلبشرتي وشعري الأسبقية على اللعب، وداعا يا سمير، بإمكانك أن تبحث عن رفيقة أخرى تلاعبك». بعد هذه الكلمات التي تؤشر على تغيّر كبير في حياتي، شرعت في النزول من السطح وأنا أنزلق على العمود المهزوز الذي يشدّ حبال نشر الغسيل، قبض عليه سمير حتى لا يتحرك فأفقد توازني، وحين وصلت الأرض شددته بدوري لكي ينزلق هو الآخر نحو الأسفل، لم ينبس ببنت شفة، تواجهنا للحظات ثم سلمنا على بعضنا بوقار كبير، كما يفعل والدي وأبي عقب كل صلاة جماعة في المسجد، وافترقنا في صمت مؤثر.

نزلت إلى الساحة التي تشهد إعداد وصفات الجمال، وظل سمير غاضبا في السطح السفلي. كانت الساحة تعرف نشاطا يدور أغلبه حول النافورة حتى يسهل غسل الأيدي والأواني. الموادّ الأساسية كالحناء والبيض والعسل والحليب والطين وكل أنواع الزيوت موضوعة في قوارير كبيرة من الزجاج حول النافورة. طبعا كان زيت الزيتون وافرا على عكس الزيوت النادرة كزيت اللوز أو الأركان. منظر أغلب النساء فظيع إذ أن وجوههن مدهونة وكذا شعرهن بطبقة لاصقة. قائدات المجموعة يجلسن في أمكنة الشرف على مقاعد قصيرة مريحة، وهن يعملن في هدوء يبعث على الوقار، لأن أبسط خطإ في إعداد الوصفات قد يؤدي إلى مترتبات خطيرة، فكل خطإ في الوزن أو الخلط أو المقادير قد يتسبب في الحساسية أو الحكة، أو الأطرف من ذلك قد يحوّل لون الشعر الكستنائي إلى أسود فاحم، أو البني

الفاتح إلى أحمر فاقع جدير بمصاصي الدماء (دراكولا)، الذين ينبثقون من جزر الواق الواق حين ترسو بنا فيها عمّتي حبيبة. كانت هناك ثلاث فرق: أولاهما مختصة في وصفات الشعر وثانيتهما في خلط الحناء والثالثة في أقنعة البشرة والعطور. وكان لكلّ فريق مجمره ومائدته القصيرة التي تضمّ ترسانة من المواد المدقوقة والألوان الطبيعية، كقشرة الرمان المجفف وقشرة الجوز، والزعفران، وكل أنواع الأعشاب والورود العطرة، بما في ذلك البابونج والورود المجففة والزهر. أغلب الموادّ ملفوفة في ورق أزرق يستعمل في الأصل لتلفيف السكر بحيث يعيد التجار استعماله في تلفيف المواد الغالية الثمن. كانت هناك عطور محبوبة كالمسك والعنبر يحتفظ بها في محارات جميلة توضع في قوارير من البلور لصيانتها، إضافة إلى عشرات الأواني الطينية المليئة بخليط غريب سيتمّ غليه ليتحوّل إلى سائل سحري. وأكثر أشكال الخليط سحرا هي تلك التي تعتمد على الحناء، إذ كان على المختصّات فيها أن يقدّ من على الأقلّ أربعة أنواع لإرضاء جميع الموجودات في ساحة الدار. كانت الحناء تخلط بعصير قشرة الرمان الساخن وقليل من صباغة اللون القرمزي لمن يشأن إضفاء انعكاسات حمراء على لون شعرهنّ، أمّا اللائي يرغبن في لون أغمق فيستعملن الحناء مخلوطة بعصير قشرة الجوز، وتضاف الأخيرة إلى التبغ لتعطي مفعولا عجيبا في تقوية الشعر، أمّا ذوات الشعر الجاف فيستعملن الحناء سائلا خفيفا ممزوجا بزيت الزيتون والأركان أو اللوز، قبل أن تدلك به جلدة الرأس. كانت وصفات الجمال هذه هي الشيء الوحيد الذي تتفق بشأنه كل النساء، والجميع بما في ذلك شامة وأمّي كان يخضع للتقاليد في هذا المجال ولا يقوم بأية خطوة دون استشارة لللامهاني وللالاراضية.

تبعث النساء على التقزز حقا وهن يضعن أقنعة من الفواكه والخضر والبيض ويرتدين أردأ قمصانهن، عيونهن تبدو غائرة،

ورؤوسهن صغيرة بشكل لافت للإنتباه وهي حاسرة من المناديل والوشاحات المعتادة، في حين تنساب خيوط السوائل البنية على الذقون والخدُود. ويظهر أن الدمامة كانت شيئا أساسيا حين يتمّ التحضير للحمّام، بدعوى أن المرأة كلّما كانت دميمة قبله، كلّما اكتسبت حظوظا أكبر في الجمال بعده. واللواتي كن ينجحن في تحقيق مظهر يبعث على التقزز، كن فعلا ينلن التصفيق ويتسلمن «مرآة الدمامة» في الحمّام، مرآة غريبة ذات لون متآكل يمتلك سلطة مخيفة في تغيير الملامح، حيث يحيل العيون إلى نقط شيطانية صغيرة، لم أكن ألعب بهذه المرآة التي كانت ترعبني.

زيارتنا للحمّام تستغرق ثلاث مراحل، تمرّ الأولى منها في ساحة الدار حيث يتمّ التفنن في أشكال الدمامة بطلي الشعر والبشرة. أما المرحلة الثانية فتكون في الحمّام القريب من بيتنا، هناك ننزع عنا الثياب لندخل في مجموعة متتابعة من الحجرات التي يغمرها بخار ساخن.

تتجرّد بعض النساء من كل ملابسهن ويدخلن إلى الحمّام عرايا، أما البعض الآخر منهن فيضعن إزارا يحزمنه حول الخصر، في حين تحتفظ المتطرّفات بسراويلهن فتبدين كالكائنات الفضائية بعد ابتلال الثوب، الشيء الذي يستثير المزاح والتعليقات الساخرة من نوع: «لم لا تضعين الحجاب؟». عندما نخرج من ضباب الحمّام في المرحلة الأخيرة ندخل ساحة نستسلم فيها للراحة خلال لحظات، ملفوفات في منشفة قبل أن نرتدي ثيابنا النظيفة. كانت المضرّبات الموضوعة على أرائك عالية من الخشب، حتى نتفادى الأرض المبتلة، تحيط بساحة الحمّام، وكان من المفروض شغل أصغر مكان ممكن فيها وعدم المكوث طويلا.

كنت سعيدة بوجود هذه الأفرشة لأنني أشعر برغبة كبيرة في النوم بعد الحمّام، والواقع أن هذه المرحلة الثالثة منه هي الفترة التي

أفضلها، لا لأن الإحساس باللذّة يغمرني فحسب، ولكن لأن العاملات بالحمّام كن يقدّمن لنا بإيعاز من عمّتي حبيبة (المكلفة بالتموين)، عصير البرتقال واللوز، وأحيانا يأتيننا بالثمار والجوز لكي نستعيد طاقتنا. كانت تلك الآونة من اللحظات النادرة التي لا يحتاج فيها الكبار إلى ردع الأطفال لكي يلتزموا الهدوء، لأننا كنا نغفو متعبين على مناشف الحمّام وثياب أمّهاتنا، تدفعنا أياد غريبة من حين لآخر وهي ترفع أقدامنا أو رؤوسنا أو الأذرع. كنا نسمع أزيز الأصوات دون قدرة على التحرّك، وكان النوم لذيذا.

كانوا يقدّمون لنا أحيانا شرابا رائعا يدعى الزريعة وهو مصنوع من حبوب البطيخ التي تغسل وتجفف وتحفظ في قوارير زجاجية خاصة بمشروبات الحمّام (لم يكن هذا الشراب الرائع يقدّم خارج الحمّام لسبب لا أدريه). لم تكن هذه الحبوب قابلة للتصبير لذلك لم نكن نتمتع بشرابها إلا خلال موسم البطيخ في الصيف. كانت الحبوب تهرش وتخلط بالحليب وقدر من ماء الزهر وقليل من القرفة، يترك هذا الخليط مع لباب البطيخ لمدّة، وعند تقديمه يجب الحرص على عدم تحريكه حتّى يظل اللباب في أسفل القارورة. إذا غمرك النوم بعد الحمّام وكانت لك أمّ حنون فإنها تحاول دائما أن تصبّ في فمك بعض القطرات حتى لا تضيع فرصة هذه المتعة النادرة، أما الأطفال الذين تغفل أمهاتهم عن ذلك، فيطلقون صراخهم بمجرّد رؤية القناني فارغة عقب الاستيقاظ.

بعد مغادرة النساء الحمّام، كانت هناك آخر مرحلة في طقوس الجمال وهي التعطّر. في ذلك المساء واليوم اللاحق، ترتدي النساء أجمل قفاطينهن، وتجلسن في زاوية هادئة من الحجرة، وتضعن المسك والعنبر أو بعض العطور التي يتصاعد بخورها من مجمر صغير به فحم خشبي مشتعل، فيبخّرن ثيابهن وشعورهن المنسدلة قبل أن يظفرنها، ويضعن الكحل وأحمر الشفاه. كان الأطفال يحبون هذه

الأيام لأن النساء كن مشغولات بجمالهن إلى حدّ ينسيهن إصدار الأوامر. لم يكن سحر الحمّام منبعثا من الإحساس الذي يخلقه بالتجدّد فحسب، ولكن باستشعار الدور الذي لعبته المرأة في هذا الانبعاث. لقد كانت عمّتي حبيبة تقول بتعال صباح اليوم التالي وهي في حجرتها: «الجمال داخلي ويكفي إظهاره». كانت تتزين لنفسها بمنديلها الحريري الملفوف حول رأسها كوشاح، وبعض الحلي التي نجحت في إنقاذها بعد الطلاق تلمع في يديها وحول جيدها «ولكن في الداخل أين؟ في القلب أم الرأس؟ أين يوجد الجمال بالضبط؟» وتضحك عمّتي حبيبة من بحثي المهووس عن التفاصيل: «ولكنك لست في حاجة إلى أن تعقدي حياتك يا طفلتي المسكينة! إن الجمال في الجلد، اعتني به واسقه ونظفيه وافركيه وعطّريه. ارتدي أجمل ثيابك حتى وإن لم تكن هناك مناسبة خاصة، وسيغمرك الإحساس بأنك ملكة. وإذا كان المجتمع قاسيا، ردّي على ذلك بإيلاء جلدك كل العناية، إن الجلد مسألة سياسية، وإلاّ ما كان الأئمة ليأمروننا بإخفائه !».

تحرير المرأة يبدأ حسب عمّتي حبيبة بالتدليك والعناية بالجلد: «إذا أهملت المرأة جلدها، فتحت الباب لتلقي كل الإهانات» حسب قولها. لم أكن متأكدة من فهم ما تعنيه، ولكن كلماتهاحفزتني على تعلّم الكثير عن أقنعة الشعر والبشرة. وقد غدوت خبيرة في الأمر إلى حدّ أن أمّي بعثت بي كي أتجسّس على للالامهاني أو للالاراضية، حتى أكتشف المواد التي تضعانها في وصفاتهما، إذ كن كالكثيرات من النساء يعتقدن بأن مفعولها سيتبدّد لو ذاع سرّها. وقد أسعفني ذلك في اكتساب معرفة واسعة إلى حدّ أنني فكرت في اتخاذ مهنة لي في مجال الجمال والسحر وبعث الأمل، إذا أنا لم أنجح في ممارسة مهنة الحكي كعمّتي حبيبة. أحد الأقنعة المفضلة لديّ كان هو ذلك الذي تستعمله بنت عمّي شامة لإخفاء النمش من بشرتها وكذا القروح

والأوساخ العالقة بها، كانت التركيبة التي تستعملها صالحة للبشرة الدهنية وهي: بيضة طرية تكسر ويرمى بأصفرها في حين يتمّ الاحتفاظ بالأبيض الذي يوضع في إناء منبسط من الطين (ليس من المعدن)، يضاف إليه قدر من الشبّة ويخلط حتى يتخثر، بعد ذلك توضع طبقة سميكة من المستحضر على الوجه، بعد جفاف القناع خلال دقيقتين ينظف الوجه برقة بواسطة ثوب من قطن أو صوف. بعدها تغدو البشرة رقيقة وناعمة. أمّا عمّتي حبيبة فقد كانت محتاجة إلى وصفة مخالفة نظرا لجفاف جلدها، وإذا كانت هذه الوصفة رخيصة التكاليف، فإنها تتطلب تحضيرا والتزاما بالمواسم، إذ أنها كانت تختار بطيخة كبيرة في الموسم الذي تظهر فيه هذه الفاكهة، وتضع فيها ثقبا وتملأها بثلاث حفنات من الحمّص الطري المغسول، تترك البطيخة المحشوّة في السطح قرابة أسبوعين، إلى أن تجف ويتقلص حجمها وتنكمش قشرتها، تضعها بعد ذلك في المهراس وتدقها حتى تغدو دقيقا تحتفظ به، ملفوفا في ورق تدعه في صندوق حديدي صغير بمكان تصل إليه الشمس ولا تنال الرطوبة منه. وكل أسبوع كانت تأخذ قليلا من الدقيق وتخلطه بماء العين وتطلي به وجهها خلال ساعة. بعد إزالة القناع بثوب مبتل، كانت تصدر آهة ابتهاج وتقول «جلدي يحبّني». ولكن أقنعة شامة وعمتي كانت تصلح لغسل الجلد فحسب، ولا أحد منها كان يغذيه فعلا، ومن ثمّ كانت كل منهما تستبدله أسبوعا بعد آخر بقناع آخر يغذي البشرة. كانت أفضل الأقنعة هي تلك التي تستعمل فيها الياسمين وورود بلّغمان أو للّلامهاني التي تستعمل الثمر. والمشكل الوحيد يكمن في أنهما غير صالحين للبقاء، ويجب استعمالهما في الحين، ثمّ ان استعمال وصفة بلعمان على الأخصّ كان يخضع للموسم الذي تكون فيه هذه الورود.

تنتظر الياسمين موسم الربيع كل سنة بفارغ الصبر، وما أن ينمو القمح حتى تركب فرسها هي وطامو وتنطلقان للبحث عن أولى ورود

بلعمان في الحقول المحيطة بالضيعة، وغالبا ما كانتا تضطران إلى الذهاب أبعد من ذلك، فتقطعان السكة الحديدية للحصول على أولى الورود في الجانب الآخر منها، التي تستفيد قبل غيرها من أشعة الشمس، إذ أن ورود بلعمان لم تكن تزهر في حقول الضيعة إلا بعد أسبوعين من ذلك. كانتا تعودان إلى الضيعة محملتين بباقات كبيرة حمراء، وبمعونة الزوجات الأخريات تبسطان إزارا كبيرا أبيض على مائدة، وتعزلان الورود بدقة حيث يتمّ الاحتفاظ بالأوراق والفرع. توضع الأوراق بعدها في جرّة كبيرة من الفخار وتبعث طامو من يقطف الحامض من أعلى أشجاره إذ يكون حينها طازجا بفعل الشمس، ثم تعصره على الورود وتدعه عدّة أيّام حتى يغدو عجينا رخوا. وحين تحضر الوصفة تستدعي كل النساء لاستعمالها، كن يتسارعن منتظرات دورهن وكانت الضيعة خلال أيّام تعج بكائنات ذات وجه أحمر فاقع باستثناء العينين «حين تنظفين وجهك سيغدو لبشرتك لمعان بلعمان» تقول الياسمين، وهي تبدي ثقة بالنفس كشأن السحرة.

تحلم أمّي ببلعمان في مدينة فاس، ولكنها تقنع غالب الأحيان بوصفات الجمال التي كانت في متناول يدها. ورغم أن نوعية الثّمار التي تستعملها للالامهاني نادرة لأنها ترد من الجزائر، فقد كان الحصول عليها أسهل من ورود بلعمان. والفضل يرجع إليّ في اكتشاف القناع المصنوع من الثمر، إذ لو لم أتجسّس عليها لما استطاعت أمّي الاطلاع على السرّ. كان جلد للالامهاني يتوفر على لمعان عجيب لم ينل منه السن شيئا، وكانت تضع هذا القناع وتحتفظ به زوال يوم بكامله مرّة في الأسبوع. لا أحد كان يدرك تركيبته إلى أن اكتشفت بأنه مصنوع من الثمار والحليب. اضطربت للالامهاني حين ذاع سرّها وصارت تطرد الأطفال من حجرتها كلما شاءت تحضير وصفاتها التجميلية. كانت تضع ثلاث ثمرات في كأس من اللبن الكامل وتغطيه، وتدعه أياماً

عدّة بالقرب من نافذة تتسّرب عبرها خيوط الشمس، ثم تعرك الخليط بملعقة خشبية، وتطلي به وجهها وتتحاشى التعرّض للشمس. كان عليها أن تدع القناع يجف ببطء، وهو من التفاصيل التي لم أنتبه إليها لولا تبصر أمّي وصبرها الذي مكنها من إدراكه، ولذلك قالت لي: «يجب أن تبقي بالقرب من نافذة مفتوحة، أو من الأفضل أن تجلسي تحت شماسية على السطح وأنت ترقبين منظرا جميلا».

- 22 -

رجل في الحمّام!



يكره والدي رائحة الحناء والروائح النتنة المنبعثة من زيت الزيتون والأركان اللذين كانت أمي تستعملهما كعلاج لتقوية شعرها. ومن ثُمّ يبدو دائما متضايقا صباح يوم الخميس حين ترتدي أمي قميصها البني الرديء الذي كان أخضر. في الأصل (حملته إليها جدتي لللامهاني من مكة قبل ميلادي)، وهي تغدو وتروح وشعرها مطلي بالحناء، وقناع من الحمص والبطيخ يغلف وجهها. كان شعرها الذي ينساب عادة حتى رد فيها مطلي بالحناء، وقد ظفرته وجمعته في قمة رأسها، فغدت تبدو وكأنها مسلحة بخودة.

كانت أمي من النساء المقتنعات جدا بأنهن كلما كن دميمات قبل الحمام سيصبحن أجمل بعدا لخروج منه، ولذا كانت تبدي طاقة خارقة في التحول الى الدمامة إلى حد أن أختي الصغيرة لا تتعرف عليها أحيانا، وتصرخ إذا ما اقتربت منها. ما أن يحل زوال الأربعاء حتى تبدو ملامح الضيق على والدي فيخاطب أمي قائلا: «يا دوجة (تصغير خدوج)، لست بحاجة إلى كل هذا العناء لنيل إعجابي. إنني سعيد معك كما أنت رغم طبعك السيء. الله يشهد بأنني إنسان سعيد فعلا، ولذلك أرجوك،لم لا تتخلين عن الحناء غدا!». ولكن إجابة أمي كانت دائما هي: «إن المرأة التي تحبها ياسيدي ليست طبيعية على الإطلاق! إنني أستعمل الحناء منذ سن الثالثة، وهذه

العملية ضرورية بالنسبة لي لأسباب نفسية، إنها توحي إلى بأنني أولد من جديد ، شعري وبشرتي يغدوان أجمل ولايمكنك أن تدعي العكس!».

كان أبي في اليوم التالي يغادر البيت في وقت مبكر، وإذا ماكان مجبرا على العودة إليه يتحاشى أمي. إنها لعبة تنال إعجاب من في الساحة، إذ أن أمي تسرع في ملاحقة أبي بين الساريات والكل يضج بالضحك، حتى تقف لللامهاني على باب شقتنا فينتهي كل شيء، وتصرخ هي في وجه أمي: «ليكن في علمك يابنت التازي ملحة على اسم جدي حتى تذكرها بأنها غريبة عن العائلة[-1-]، بأننا لا نخيف الأزواج في هذه الدار المحترمة، قد يحدث ذلك في ضيعة والدك، أما هنا في هذه المدينة العريضة، وعلى بعد أمتار من جامع القرويين، فإن النساء يحترمن الشريعة ويلتزمن بتعاليم القرآن، وهن مطيعات ومحترمات. والمواقف الفاضحة كتلك التي رأيتها لدى أمك الياسمين لا تضحك إلا الرعاع». بعدها توجه أمي نظرة حانقة إلى لللامهاني وتختفي في الطابق الأول. كانت تكره الحياة المشتركة في الحريم، وتدخّل حماتها الذي لا ينتهي: «موقفها غير مقبول وفج! وخاصة إذا صدر عن أحد يقضي وقته في وعظك بقواعد السلوك والاحترام المتبادل».

حاول أبي في بداية الزواج أن يقنع أمي بالتخلي عن مستحضرات التجميل التقليدية، وتعويضها بأخرى فرنسية كانت تستغرق وقتا أقل وتعطي نتائج مباشرة، وكانت مواد التجميل هي المجال الوحيد الذي يفضل فيه والدي التخلي عن التقليدي! بعد استشارات مطولة مع ابن عمّي زين الذي كان يترجم له الإعلانات الإشهارية في المجلات والصحف الفرنسية، وضعا لائحة طويلة وذهبا معا لشراء المواد في المدينة الجديدة، ليعودا بعدها محملين بكيس مملوء بلفائف مغلفة بورق شفاف، ومربوطة بأشرطة ملونة. طلب أبي

من زين البقاء معنا حين تفتح أمي اللفائف حتى يشرح لها أساليب الاستعمال إذا ما احتاجت إلى ذلك، ونظر إليها باهتمام وهي تفتح كلا منها بعناية. كان واضحا أنه صرف مالا كثيرا، إذ كانت هناك صباغات الشعر وأنواع من الشامبو ودهون البشرة والشعر، إضافة إلى قوارير العطور، ولذلك ساعدها بحماس على فتح قارورة أحد العطور الفرنسية الغالية، وهو يقسم بأنها خلاصة «كل الورود التي تحبنيها». فحصت أمي كل الأشياء بفضول، وطرحت عدة أسئلة بشأن تركيبها، وطلبت من زين أن يترجم لها طرق الاستعمال، وأخيرا استدارت نحو أبي وطرحت عليه سؤالا فأجاه: «من الذي حضر كل هذه المواد؟»، فاقترف الخطأ القاتل وهو يخبرها بأنها صنعت في مختبر من طرف العلماء، حين سمعت ذلك أخذت العطر ووضعت الكل جانبا وقالت: «إذا كان الرجال سيحرمونني من المجال الوحيد الذي أمارس عليه سلطة، أي موادي التجميلية، ستكون لهم بعدها سلطة مراقبة مظهري الخارجي. لن أسمح بذلك قط، إنني أخلق سحري الخاص، ولن أتخلى أبدا عن الحناء»، حسم الأمر نهائيا وكان على أبي أن يقبل هو ورجال الدار الآخرين بسلبيات مواد التجميل التقليذية.

كان أبي يغادر حجرتنا ويلجأ إلى أمّه عشية الذهاب الى الحمام، ولكنه يعود حال عودة أمي ورائحة العطر الفرنسي تفوح منها. كانت تمر على لللامهاني في البداية لتقبل يدها حسب العادة المعمول بها، فزوجة الابن مجبرة على تقبيل يد حماتها بعد الحمام، إلا أن الثورة الوطنية والخطاب الداعي إلى تحرير المرأة جعل الجميع تقريبا يتخلى عن هذه العادة، باستثناء الأعياد الدينية الكبرى. وبما أن لللاراضية زوجة عمي ظلت تحترمها، فإن أمي كانت مجبرة على احتذائها. ولكنها كانت تستغل تقبيل اليد لتسخر قليلا: «هل تعتقدين ياحماتي العزيزة بأن ابنك مستعد الآن لمواجهة زوجته أم أنه يفضل البقاء عند

أمه؟». كانت أمي تبتسم وهي تقول ذلك، أما جدتي فتعلو ملامحها التكشيرة وترفع ذقنها وترد بحدة: «لا تنسي يا عزيزتي بأنك محظوظة لكونك تزوجت رجلا صبورا كابني، إذ أن آخر غيره كان سيطلق امرأة غير مطيعة لازالت تستعمل الحناء رغم أنه طلب منها التخلي عن ذلك. لا تنسي بأن الله منح الرجال الحق في التعدد، وإذا ما استعمل ابني ذات يوم هذا الحق المقدس، بإمكانه أن يذهب إلى فراش زوجة أخرى بما أنك تطردينه بحنائك النتنة». كانت أمي تستمع إلى جدتي بهدوء وسكينة حتى النهاية، ثم تقبل يدها دون أن تنبس ببنت شفة، وتقصد حجرتها مخلفة وراءها عطرها الفواح.

الحمام من الرخام الأبيض، به مرايا عديدة وسقف من الزجاج الملون للأبقاء على الضوء. البخار والضوء العادي والنساء والأطفال العرايا الذين يجرون في كل اتجاه، كل ذلك يجعل منه جزيرة غرائبية وبخارية حطت بطريقة لا يعلمها أحد في قلب مدينة فاس المنضبطة، ولو لم تكن هناك القاعة الثالثة لكان الحمام جنة حقا.

كان البخار يتصاعد في القاعة الأولى دون مبالغة، وكنا نمر عليها بسرعة لنتعود على الحرارة الرطبة، أما القاعة الثانية فكانت مدعاة للمتعة بقدر قليل من البخار يغلف العالم الخارجي بقناع سحري دون أن تشعر بضيق في التنفس. كانت النساء تنصرفن في هذه القاعة إلى حك بشرتهن وجسدهن لتخلصيهما من الجلد الميت، بمحكة مصنوعة من الفلين ومغلفة بالصوف المنسوج. أما التخلص من الحناء والزيوت فكان يتم بواسطة الغسول، وهو شامبو من الطين يضفي رقة عجيبة على الشعر والبشرة «إن الغسول تقول عمتي حبيبة يضفي لمسة الحرير على جلدك، إنه يجعلك تشعرين بنفسك كآلهة قديمة حين تخرجين من الحمام». وصنع الغسول كان يتطلب عدة

فصول، ويستلزم يومين أو ثلاثة من العمل، إذ أنه مكون من قطع طين بنية جافة، وحين يتم تحضيره كان يكفي وضع حفنة صغيرة منه في ماء الورد للحصول على مادة سحرية. كان تحضير الغسول يبدأ في فصل الربيع ويشترك فيه كل من في الدار. في الأول يأتي السي علال بباقات الورد والبابونج وورود عطرة أخرى من القرية، فتسرع النساء إلى حملها نحو الطابق الأول ونشرها في الظل على ثوب نظيف. وبعد أن تجف يحتفظ بها حتى اليوم المشهود وهو يوم صنع الغسول في عز الصيف، حينها تخلط الورود بالطين وتجفف على شكل قشرة رقيقة. لم يكن الأطفال ليضيعوا ذلك اليوم، ليس لأن الكبار كانوا في حاجة إلي مساعدتهم فحسب، ولكن لأنهم كانوا يحصلون على إذن عجن الطين دون مبالاة بنظافة ثيابهم، فلا أحد يعنفهم ذلك اليوم. كانت رائحة الطين المعطر جميلة إلى حد أنها أغرتنا ذات يوم أنا وسمير بالأكل، وكانت النتيجة آلّما في المعدة حرصنا على كتمان أمره.

كما هو الشأن بالنسبة لتحضير باقي مواد التجميل، كان صنع الغسول يتم حول النافورة. تأتي النساء بمجامير الفحم الخشبي وبكراسيهن، وتجلسن بالقرب من الماء حتى تتمكنّ من غسل أيديهن وكذا الطناجر والأطباق. في البداية كن يضعن قدرا كبيرا من الورود والبابونج المجففين في طناجر واسعة لتُغلى على نار هادئة، ثم يدعنها تبرد. كانت النساء تتخيلن بأن مفعول الغسول السحري سيتبدد لو كشفت تركيبته، ولذلك كن يتوارين في الجوانب المظلمة من الطابق الأخير أو وراء الأبواب، لخلط الورود والأعشاب العجيبة. وكانت بعض النساء كعمتي حبيبة يجففن ورودهن على ضوء القمر، وبعضهن كن مختصات في بعض أنواع الورود ذات الألوان الخاصة، وأخريات كن يتلين الدعوات وهن يمزجن خليطهن لتقوية مفعوله، ثم تلي ذلك عملية العجن. كانت عمتي حبيبة تؤذن بالبدء حين تضع حفنات

الغسول في طابق كبير من الطين كذلك الذي يستعمل في عجن الخبز، وبعدها تصب عليه كأسا من ماء الورد والبابونج، وتدعه يتسرب إلى الطين لتعجنه حتى يغدو رطبا، ثم تنشر العجين على لوحة من الخشب، وتطلب منا حمله الى السطح حتى يجف. كان الأطفال يحبون هذه المرحلة. وكان أحدنا أحيانا ينسى في غمرة الحماس بأن الطين لازال عجينا، فيجري لتندلق المادة على رأسه وتعمي عينيه، فيتلمس طريقه نحو السطح بصعوبة. لم يحصل لي ذلك قط نظرا لبطئي المعهود، وكان يوم تحضير الغسول من الأيام النادرة التي تنال فيها خصلتي هذه الإعجاب. حين كان الأطفال يصلون السطح واللوحة على رأسهم وهم يتصببون عرقا ويلهثون، كانت مينة تتلقاها عنهم، إذ أن مهمتها هي حراسة الألواح ومراقبة عملية التجفيف، ولذلك كانت تأمرنا في المساء بإدخالها تفاديا للرطوبة، وفي اليوم التالي تطلب منا إخراجها حين تشتد حرارة الشمس وسط النهار. بعد خمسة أيام من ذلك، كان الطين يجف ويغدو قشره رقيقة مشققة، فتجمعه مينة في ثوب أبيض نظيف لكي تقسّمه بين جميع النساء، على أن تعطي حصة أكبر لللواتي يتوفرن على أطفال. يستعمل الغسول بمثابة شامبو في القاعة الثانية من الحمام لغسل الشعر، أما في القاعة الثالثة فنستعلمه مرة أخرى عوض الصابون في تنظيف الجلد.

كنت أنا وسمير نكره هذه القاعة التي كنا نسميها بغرفة التعذيب لأن الكبار كانوا يصرون فيها على العناية المفرطة بنا، ذلك أن الأمهات كن ينسين أطفالهن في القاعتين الأوليتين لأنهن ينهمكن في مستحضراتهن، ولكنهن ما إن ينتهين من ذلك حتى يشعرن بالذنب لإهمالنا ويجعلن من اللحظات الأخيرة في الحمام جحيما بالنسبة لنا. كن يملأن سطول الماء من أنابيب المياه الساخنة أو الباردة، ويفرغنها على رؤوسنا دون اهتمام بدرجة حرارتها ساخنة كانت أو مثلجة، لم يكن من حقنا الصراخ لأن النساء كن يتوضأن بالقرب منا قصد أداء

الصلاة بعد العودة من الحمام، وكان عليهن استعمال الماء المطهر، وأفضل طريقة للحصول عليه هي من النبع مباشرة، الشيء الذي يعني بأن القاعة الثالثة كانت دائما غاصة بالنساء، وأن عليك أن تنتظري دورك في الصف لملء سطلك وكانت لحظات الانتظار قلقة وشاقة نظرا لارتفاع درجة الحرارة.

لم يكن مسموحا لنا بالجري أمام امرأة تتوضأ خوفا من أن ننقض لها وضوءها فتكون مجبرة على إعادته. إلا أن البعض منا كان ينجح في التخلص من قبضة أمه ولكنه لا يبتعد كثيرا نظرا لخطر الانزلاق على الرخام وكثرة البشر في القاعة. أما البعض الآخر من الأطفال كشأني فقد كان يرفض الدخول إلى هذه القاعة، وفي هذه الحالة - وذلك ماكان يحصل لي غالبا- كانت الأمهات تحملنهم رغم صرخاتهم الحادة.

كانت هذه اللحظات الصعبة تكاد تمحو المفعول اللذيذ للساعات العجيبة التي كنت أخفي فيها عن عمتي حبيبة مشطها العاجي القادم من السينغال لكي أعيده إليها بعد أن تكون قد بحثت عنه في كل مكان وهي بالغة القلق، أو أسرق إحدى برتقالات شامة القليلة التي تحتفظ بها في سطل من الماء البارد، أو أتأمل النساء ذوات النهود الضخمة، والنحيفات ذوات العجيزة المنتفخة والأمهات القصيرات القامة المصحوبات ببناتهن الفارعات الطول، أو أقدم المساعدة لللائي انزلقن على الأرض المغطاة بالحناء والغسول.

وجدت وسيلة للاسراع بالفترة التي أقضيها بغرفة التعذيب، وإجبار أمي على أن تخرجني منها بأسرع مايمكن، كنت أتصنع الإغماء وهي موهبة استعملتها لمنع الآخرين من مضايقتي. إذا أغمي علي عندما يحاول الأطفال إرعابي في الدرج ليلا بتقليد الجن، فإن الذي اقترف الذنب يجد نفسه غالب الأحيان مجبرا على حملي إلى ساحة الدار أو إخبار أمي، الشيء الذي كان يستثير غضبها فتشكوه إلى أمه،

ولكن مردودية تصنع الإغماء وهم يجذبونني بالقوة نحو القاعة الثالثة كانت أكبر، بما أن هناك مشاهدين. كنت أقبض على يد أمي لأتأكد من اهتمامها بي، ثم أغلق عيني وأحبس أنفاسي وأتهاوى على الرخام المبتل، تصرخ أمي طالبة النجدة: «يا إلاهي! ساعدوني لكي أخرجها من هنا، هذه الطفلة مصابة بضعف القلب!» حدثت سمير عن الخدعة فحاول ممارستها بدوره، ولكنه لم يتمالك نفسه فابتسم وهو يسمع أمه تصرخ مرعوبة،وحين انحنت عليه في غمرة قلقها رمقت ابتسامته. حكت الأمر لعمي علي الذي نهر سمير أمام الجميع يوم الجمعة التالي بعد صلاة الظهر لأنه حاول خداع أمه. اضطر سمير إلى الاعتذار وقبل يد لللامهاني وهو يطلب دعواتها له، حتى يدخل الجنة وهي تذكره بأنها توجد تحت أقدام الأمهات.

جاء اليوم الذي طرد فيه سمير من الحمام لأن نظراته غدت «نظرات رجل». أفهمني هذا الحادث بأننا معا ندخل عالما آخر هو عالم الكبار، رغم أننا نبدو صغارا وبالغي الهشاشة. صرخت امرأة فجأة وهي تشير بأصبعها نحو سمير: «من هو هذا الشخص؟ إنه لم يعد طفلا، صدقوني!» أسرعت شامة وأخبرتها بأن سمير لم يتجاوز بعد التاسعة، ولكنها كانت مصممة على رأيها: «قد يكون سنه أربع سنوات ولكنني أقول لكم بأنه نظر إلى نهدي كما ينظر إليهما زوجي»، توقفت كل النساء الجالسات حوالينا عن غسل حنائهن وتابعن الحديث، ثم انفجرن ضاحكات حين أضافت المرأة بأن نظرات سمير «جد إيروسية»، فقدت شامة صبرها: «قد يكون سبب نظراته إليك هو غرابة نهديك أو أن نظرات طفل تثيرك، وفي هذه الحالة فرزقك على الله». انفجر الجميع ضاحكين بصخب وأدرك سميرالذي كان واقفا وهو عار وسط هؤلاء النساء بأنه يتوفر بدون شك على سلطة غير اعتيادية. ضرب على صدره وأطلق ملاحظة تاريخية غدت مثلاسائرا في عائلة المرنيسي: «لست نمط المرأة التي أحب، إنني

أفضل النساء ذوات القامة الطويلة». لم تعد شامة قادرة على الدفاع عن هذا الأخ الأكبر من سنه، خاصة وأنها لم تتمالك نفسها من مشاطرة الأخريات ضحكاتهن التي رددتها أصداء القاعة. إلا أن هذا الحادث كان يعني دون أن ندرك ذلك أنا وسمير نهاية طفولتنا. بعدها لم يعد سمير يقبل غالب الأحيان في الحمام لأن «نظراته الإيروسية» تزعج أكثر من واحدة، وكل مرة كان يعاد إلى البيت كذكر منتصر وتدور التعاليق حول رجولته التي تغدو مثارا للفكاهة خلال أيام في ساحة الدار. وأخيرا وصل الحادث إلى مسمع عمي علي الذي قرر بأن على ابنه أن لايصاحب النساء إلى الحمام ويذهب إلى حمام الرجال.

كنت حزينة للذهاب إلى الحمام بدون سمير لأنه لم يعد بمقدورنا اللعب خلال الثلاث ساعات المعتادة التي نقضيها هناك. وكان سمير يحدثني بحزن عن تجاربه في حمام الرجال: «الرجال لا يأكلون شيئا، ليس هناك لوز أو مشروبات أو حديث أو نكت، إنهم يغسلون، هذا كل ما في الأمر». قلت له لو كان في إمكانه على الأقل تجنب النظر إلى النساء لاستطاع إقناع أمه بأن تدعه يعود معنا إلى الحمام، ويالشدة مفاجأتي حين أجابني بأن ذلك لم يعد ممكنا، وبأن علينا أن نفكر في مستقبلنا. «أتفهمين! إنني رجل رغم أنني لم أكبر بعد، ولايجوز أن ينظر الرجال والنساء الى أجساد بعضهم البعض، يجب أن يكون هناك فصل بينهم». كنت متأثرة ولكنني غير مقتنعة. ثم لحظ سمير بأن الرجال لا يستعملون الحناء أو أقنعة البشرة في حمامهم «لأنهم ليسوا في حاجة إلى العناية بجمالهم». ذكرتني هذه الملاحظة بالنقاش القديم الذي دار بيننا ذات يوم على السطح واستشعرته كتهجم على شخصي. لقد عرضت صداقتنا للخطر حين أصررت حينها على ضرورة انصرافي إلى تحضير مواد التجميل، كنت سأحاول الدفاع عن موقفي من جديد وإذا به يقاطعني: «أعتقد بأن للرجال بشرة مخالفة» فاكتفيت بالنظر إليه.

لم يعد لدي ما أقوله لأنني أدركت لأول مرة خلال لعبنا الطفولي بأن ماقاله سمير هو الحقيقة بعينها، وأن ماسأقوله أنا لن يغير من الأمر شيئا. وفجأة بدا لي كل شيء غريبا ومعقدا ومتجاوزا لحدود إدراكي. أحسست كأني أجتاز حدودا وعتبة ولكنني لم أكن قادرة على تصور العالم الجديد الذي ستطأه قدمي. كنت أشعر بالحزن دونما سبب فصعدت إلى السطح لرؤية مينة وجلست إلى جانبها. داعبت شعري قائلة «إننا صامتات اليوم؟» رويت لها حديثي مع سمير وما جرى في الحمام، استمعت إلي وهي تسند ظهرها إلى الحائط الغربي وكان وشاحها الأصفر يلمع كالعادة، وحين أنهيت كلامي أخبرتني بأن الحياة ستغدو أصعب بالنسبة لنا أنا وسمير.

«إن الطفولة لا تأبه بالفوارق، ومن الآن فصاعدا لن يعود في مقدوركما الإفلات من هذه الفوارق، بل ستخضعون لها وسيغدو العالم قاسيا».

سألتها: ولكن لماذا؟ لَم لا نستطيع الإفلات من قانون الاختلاف! لِمَ لا يتابع النساء والرجال لعبهم بعد أن يصبحوا كبارا؟ لم هذا الفصل؟

أجابتني مينة بأنه محكوم على النساء والرجال أن يعيشوا أشقياء بفعل هذا الفصل، إذ أنه يحفر بينهم هوة سحيقة «لا يفهم الرجال النساء ولا النساء الرجال. ويبدأ كل شيء حين يفصل بين الطفلات الصغيرات والأطفال الصغار في الحمام. هناك حدود حقيقية تقسم العالم إلى قسمين، وهي ترسم خطوط السلطة، لأن وجود الحدود أينما كانت يعني بأن هناك نمطين من البشر على هذه الأرض التي خلقها الله: هناك الأقوياء في جانب والضعفاء في الجانب الآخر» سألت مينة كيف لي أن أعرف الجانب الذي أنتمي إليه؟ كان جوابها سريعا وموجزا وجد واضح: «إذ لم تتمكني من مغادرة المكان الذي توجدين فيه، ستظلين في جانب الضعفاء».

هوامش

الفصل 2 :

(1) كتاب ألف ليلة وليلة. من أصوله العربية الأولى. حققه وقدم له محسن مهدي. شركة أي. بريل للنشر. ليدن 1984. ص. 66.

(2) نفسه.

الفصل 3 :

(1) الرواية التي أقدمها عن الاستقلال والعلاقات بين الوطنيين والملك والحماية غير تاريخية طبعا، إنها رواية والدتي، وهي شخصية خيالية مثل الطفلة التي تتحدّث ويفترض أن تكون أنا. لو حاولت أن أحكي لكم طفولتي لما استطعتم إتمام الفقرتين الأوليين لأن طفولتي كانت مملّة إلى حد كبير. وبما أن هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية، وإنما أحداث متخيلة على شكل حكايات ترويها طفلة في السابعة، فإن ماورد هنا بشأن أحداث يناير 1944 نابع من ذكرياتي التي احتفظت بها عمّا كانت تحكيه نساء لا يعرفن الكتابة والقراءة في وسط الدار أو على السطوح. لمن أراد التاريخ فليرجع مثلا إلى كتاب الأستاذ عبد الكريم غلاب تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب. مطبعة الرسالة. الرباط. 1987.

الفصل 4 :

(1) كان الرجال والنساء يرتدون نفس الزي في المدن الكبرى خلال الأربعينيات، فالرجال أيا كان اعتدادهم برجولتهم يرتدون كالنساء ثلاثة

ألبسة أحدها فوق الآخر، وهي القميص والقفطان والفرجية. ولم يكن التمايز بين الجنسين يفرض نفسه إلا في الألوان إذ يكتفي الرجال بالألوان الصارمة كالأبيض والرمادي والبني الفاتح، في حين بإمكان النساء ارتداء كل الألوان.

إلا أن نمط الزي المغربي عرف ثورة تعكس التحوّلات العميقة التي هزت العقليات، ذلك أن الرجال والنساء بدأوا يرتدون أحيانا الزي الأوربي وخاصة في أمكنة العمل، كما لو أن التغريب - occidentalisation - يوازي تشييء الكائن الإنساني وتحويله إلى حيوان يشتغل. وقد ظل الزي التقليدي منحصرا في الأعياد والحفلات كما لو أنه يشهد على فترة يعرّف فيها الرجال والنساء «ككائنات منصرفة إلى الاستمتاع». بعدها تلاءم الزي التقليدي مع الفترة الحديثة، وبدأ عصر اللباس الشخصي والجديد. وإذا ما راقبتم الشارع المغربي ستلاحظون بأن لا أحد يرتدي زيا مثل زي الآخر، إن مغرب التعدّدية يفرض نفسه والتنوع في الشارع على مستوى الزي شاهد على ذلك.

تبادل الرجال والنساء بعض الألبسة، ومنحوا أنفسهم الحق في اختيار الأنواع والعناصر من باقي بلاد افريقيا والبلاد الغربية، وكمثل على ذلك غدا الرجال يرتدون الألوان الفاقعة التي كانت مقصورة على النساء ، واستعملت النساء جلابيب الرجال، وارتدى هؤلاء «الگندورة» المطرّزة القادمة من السينغال أو من البلاد الأخرى في إفريقيا السوداء. ولكن الرائع في ذلك هو الجلباب النسوي القصير الأنيق والمريح الذي لم يعرف من قبل، وهو مزيج من الثياب الإيطالية التي تطبعها أناقة القفطان التقليدي. وترتدي هذا الجلباب القصير نساء نشيطات يشتغلن دون أن يفقدهن هذا الزي أنوثتهن، أو يجبرهن على حشرأجسامهن في كسوات غربية غير مريحة.

(2) تسلّمت شجرة الدر مقاليد الحكم سنة 548هـ.

(3) يبدو الرأي القائل بأن فكرة تحرير المرأة ليست فكرة مستوردة من باريز أو نيويورك، ولكنها انبثقت من الدينامية العربية الإسلامية، يبدو هذا الرأي اليوم غير معقول، والواقع أن فكرة تحرير المرأة نضجت في رحاب المراكز الكبرى للفكر الإسلامي كجامعات الأزهر (مصر)

والزيتونة (تونس) والقرويين (المغرب)، وكان الدعم الذي لقيته من طرف السلطات الدينية النشيطة في صفوف الحركة الوطنية العربية بين 1880 و1940 من مظاهر الثورة الثقافية التي حولت مجتماعتنا بشكل جذري. وما كان بإمكان امرأة مثلي أن تصل إلى الجامعة لو لم ينشئ قادة الحركة الوطنية وعلى رأسهم علماء القرويين في سنة 1948 شعبة لتدريس البنات بهذه الجامعة. لقد كان الفرنسيون الذين يستعمروننا يحبذون التقاليد وخاصة حين يتعلق الأمر بتعليم البنات، وكانت الإدارة الفرنسية تودّ حصر هذا التعليم في المرحلة الابتدائية كما تؤكّد ذلك شهادة لللامليكة الفاسي، إحدى رائدات الحركة النسائية المغربية، والتي ندين لها بالجميل نحن النساء اللائي دخلن الجامعة.

من المفروغ منه أن السلطات الدينية لم تكن كلّها تناصر تحرير المرأة، بل إن البعض كان يعتبرها كفرا كالشيخ الذي خاطب الملك محمّد الخامس قائلا بشأن تعليم البنات: «أفعى وتسقي سمّا»، فردّ عليه الملك في الحين: «إن البنت ليست أفعى، ومن غير المعقول أن نكون أنا وأنت أبناء أفاع» (عبد الهادي التازي. جامع القرويين. دار الكتاب اللبناني. 1972. ص. 784). لفهم مناصرة الوطنيين لتحرير المرأة، يجب أن نتذكر بأن إشكاليتهم في مواجهة الغرب خلال بداية القرن تتلخص في: «كيف نبني مجتمعنا عربيا قويا»، وهي فكرة أساسية في اعترافات مولاي ابراهيم الكتاني الأستاذ الذي أنشأ المدرسة الحرّة التي تلقيت فيها جزءا من تعليمي الابتدائي (ذكريات سجين مكافح. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة. الرباط. 1977).

وتبرز شهادة لللامليكة الفاسي التي سأقدّمها بأن سلطات الحماية كانت ترفض فكرة تدريس البنات بالثانوي: «وجد الملك محمّد الخامس صعوبات في إقناع السلطات الاستعمارية، وقد قال لي، إذ أنّني كنت دائمة الاتصال به، إذا كنتن مستعدّات لتمويل هذا التعليم عليكن أن تسرعن بإنشائه، وهكذا ستضطر السلطات الاستعمارية إلى القبول بالأمر الواقع. لكنكن إذا طالبتن بالمال سيقولون بأن الأحباس لا تتوفر على مداخيل كافية. وقد ساعدنا آباء الطفلات على تمويل المشروع

الأوّل. . . شرعنا نحن النساء في جمع الأموال، طلبت من زوجي السّي محمّد الفاسي الذي كان يومها مديرا للقرويين أن يتصل بأساتذة هذه الجامعة ليطلب منهم إعطاء دروس للفتيات تماثل تلك التي تعطى للأولاد. طبعا كانوا يتلقون أجرا ولكنه محدود. تخرج الفوج الأوّل من النساء من جامعة القرويين سنة 1955 ومن ضمنهن: فاطمة القباج، والدكتورة زهور الزرقاء وحبيبة البورقادي وعائشة السقاط والسعدية حمياني. . .» (استجواب نشر بجريدة 8 مارس، وأجري من طرف لطيفة جبابدي. فبراير 1987).

انظر:

Hamiani, "Chronologie de l'enseignement" in "Question de l'enseignement au Maroc" de Md Sonali et Mekki Merrouni. Bulletin conomique et social au Maroc, numro cadruple 143 à 146. Rabat. 1981.

أنظر أيضا: «محمّد الخامس في القمر» في كتابي «شهرزاد ليست مغربية» (بالفرنسية). نشر الفنك. الدار البيضاء 1987. ص. 66 وما بعدها.

(4) قد يكون من المفيد على هذا المستوى وضع تمييز بين نوعين من الحريم وهما الحريم الإمبراطوري والحريم المنزلي. وللتبسيط سنصف الحريم الأوّل كما هو الشأن بالنسبة لحريم هارون الرشيد بجواريه اللواتي يفوق عددهن المئات بالحريم الإمبراطوري، في حين نصف الثاني كما هو الشأن بالنسبة لحريم الياسمين بالحريم المنزلي.

في الحريم الإمبراطوري كان الأقوياء من رجال الحاشية (أباطرة. وزراء. قواد. . .) يتوفرون على المكانة والمال اللازمين لفتح البلاد الأجنبية واستعباد سكانها والمتاجرة بهم في أسواق النخاسة. وكان شراء مئات بل آلاف من النساء ومحاصرتهن في القصور دليلا قاطعا على السلطة والقدرة على الغزو. ويبدو الحريم المنزلي كشأن حريم الياسمين وحريمنا بفاس اللذين وصفتهما اعتياديين ومألوفين بل مملين إلى حدّ كير، لأنهما مجرّدان من البعد الإيروسي الذي يشحذ خيالات الأوروبيين المجبرين على الزواج الأوحد من طرف الكنيسة ثمّ من طرف «قانون المواطن». بإمكاننا أن نعرف الحريم المنزلي بكونه عائلة

ممتدّة، حيث يعيش رجل وأبناؤه وزوجاتهم تحت سقف واحد، إذ يشتركون في مداخيلهم ويفرضون على النساء ملازمة البيت، ويقللون من فرص اتصالهم بالعالم الخارجي إلى حدّ كبير. في مثل هذا الحريم لا تكون للرجل عدّة زوجات بالضرورة، وما يحدّد الحريم في هذه الحالة ليس تعدّد الزوجات بل التمييز الحاصل في المكان بين «الداخل» «والخارج» ومحاصرة النساء في الأوّل منهما.

مفهوم الحريم مكاني بالأساس، إنه هندسة حيث المكان العامّ بالمفهوم الغربي للفظة غير مقبول، لأنه لا يوجد هناك إلا مكان «داخلي» للنساء الحق في الوجود به، ومكان ذكوري خارجي تبعد عنه النساء. ولذلك نجد المعركة الراهنة لدمقرطة العالم الإسلامي تتمحور حول الحجاب و«المحاصرة» الرمزية للنساء إلى حدّ الهوس (اليد النسوية العاملة في العالم العربي من أفقر الأيادي العاملة في العالم)، كما نجد أن النساء السافرات قد يرمين بالرصاص في المجتمعات التي تعرف أزمة حادّة في الدولة وإعادة النظر بشأنها، ذلك أن ارتياد النساء السافرات للشارع والمدرسة والمكتب والبرلمان فعل سياسي وثوري بامتياز، يشكل مطالبة مباشرة وعلنية بمكان عام. إن المرأة المحتجبة تقبل القاعدة، والحجاب يعني: «إنّني أجتاز بسرعة ودون لفت انتباه هذا المكان الذي أعترف بأنه ذكوري»، أمّا التي تخرج سافرة فإنهاتفرض نفسها كمواطنة تزعزع بذلك لا الهندسة الجنسية فحسب، ولكن السياسية أيضا، وبالتالي فإنها بهذه الحركة الرمزية تعيد خلق دولة إسلامية تعترف بوجود مكان عامّ.

(5) الواقع أن القانون لم يتغير، وحتى اليوم، أي بعد حوالي نصف قرن، فإن النساء المسلمات لازلن يناضلن من أجل القضاء على تعدّد الزوجات، ولكن رجال السياسة يتعللون، بالشريعة التي لا تخضع للإرادة الإنسانية. والحقيقة أن المعركة بشأن التعدّد ليست معركة لتحديد عدد الشريكات في المجال الجنسي، بل هي معركة تعيد طرح مفهوم «القانون» لأن النساء يردن المشاركة في وضع القوانين كما تدل على ذلك المبادرة الأخيرة لمجموعة مغاربة المساواة التي تشرف عليها ربيعة الناصري، المغربية التي تدرّس بجامعة محمّد الخامس بالرباط،

حيث حرّرت نساء المغرب العربي وثيقة لقانون الأسرة كما تتمناه النساء، وقدمنها لمؤتمر بكين (شتنبر 95)، أي قانون تحترم فيه المساواة بين الجنسين.

الفصل 8:

(1) ستكون الياسمين سعيدة لو رأت مغرب اليوم حيث النساء المتعلّمات يبعن البسطيلة بأثمان مرتفعة جدّا لدى «منظمي الحفلات». يتمثل أحد المظاهر الجديدة في مغرب التسعينيات في اكتساح النساء للأماكن التجارية، وهن بطبيعة الحال يمكن بلادهن من مواجهة المنافسة الدولية، بفضل مساهمتهن في قطاعي المنتوجات الغذائية والنسيج. تشكل النساء حوالي 60٪ من اليد العاملة في قطاع صناعة التغذية و50٪ تقريبا في النسيج، وهما القطاعان اللذان «يهدد» فيهما المغرب أوروبا. وفي الاتفاقيات الأخيرة بين السوق الأوروبية المشتركة والمغرب ضاعفت دول الشمال القوية من الكوطات لمنع الطماطم المغربية والبرتقال والسردين الصغير الذي تصبره هؤلاء النساء المغربيات من «مضايقة» المنتجين الإسبان والبرتغاليين. آه يا الياسمين! لو أمكنك إلقاء نظرة على حفيداتك، إنهن يقمن بانتفاضتهن الصغيرة في هدوء، دون حجارة، متسلحات بالصبر والشجاعة والعمل المتقن.

الفصل 10:

(1) سنن النسائي. شرح الحافظ الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. المطبعة المصرية بالأزهر. الطبعة الأولى. 1930. الجزء الثاني. ص. 46. باب إدخال الصبيان إلى المساجد. بداية الحديث التي تذكر سنده هي: «أخبرنا قتيبة قال حدّثنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن عمرو بن سليم الزّرقي أنه سمع أبا قتادة يقول... بقية الحديث واردة في النص».

الفصل 11:

(1) تدور أحداث هذا الكتاب قبل إنشاء دولة إسرائيل في ماي 1948. في

تلك الفترة كان الاعتقاد سائدا بوجود ارتباط ثقافي وتاريخي وثيق بين اليهود والمسلمين وخاصة في المغرب. كانت للطائفتين ذكريات مشتركة عن نكبة الأندلس التي أدّت إلى طردهما من إسبانيا سنة 1492م. كتب برنار لويس فصلا هاما عن هذا الاعتقاد السائد قبل 1948، يشرح فيه بأن العديد من الأوروبيين كانوا يرون وقتها بأن اليهود والمسلمين قد تآمروا ضدّ مصالح المسيحيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن 20. انظر:
Bernard lewis. Les juifs proislamiques : Le retour de l'Islam. Ed. Gallimard. 1985. p. 315.

في نهاية الأربعينيات كانت الطائفة اليهودية المغربية تلفت الانتباه بكثرة عددها، وكانت تشكل أحد دعائم التقليد التعدّدي في شمال افريقيا، ذي الجذور الضاربة في عمق الثقافة البربرية ما قبل الإسلام. وفي مدينة كفاس كان الارتباط بين الطائفتين وثيقا إلى حدّ أن أحدا لم يكن يستغرب حين يصادف أسماء يهودية صرفة كالكوهن ويعقوب وسوسان في الملاح، ولدى بيوتات الأرستقراطية الكبرى في المدينة القديمة على السواء. وطبعا كانت الأرستقراطية تستمدّ مكانتها من مقدار تجذرها في الثقافة الأندلسية.

الفصل 13:

(1) أنظر: قيان بغداد في العصر العباسي لعبد الكريم العلاف. نشر دار التمدن. بغداد. 1969. وبه ترجمات لمغنيات كن معاصرات لاسمهان خلال العشرينيات والثلاثينيات.

(2) في الوقت الذي كانت فيه نساء البورجوازية الكبرى المتوسطة يتخلّين عن الحجاب، كانت القرويات القادمات إلى فاس يضعن الحجاب لإبراز وضعهن كساكنات بالمدينة وانتمائهن إليها، بعد أن غادرن البادية التي لا تخرج فيها النساء محتجبات في أي بلد من بلدان شمال إفريقيا.

الفصل 14:

(1) رائدات الحركة النسائية العربية مشهورات في العالم العربي، حيث

كتبت تراجم كثيرة للشهيرات تعرف بحياتهن ومواهبهن ومساهماتهن، وقد أدّى انبهار المؤرّخين العرب بالنساء المتميّزات إلى خلق نوع أدبي هو «النسائيات». ذكر صلاح الدين المناجد حوالي مئة مؤلف عن النساء في: مؤلفات عن النساء بمجلة مجمع اللغة العربية. 1941. المجلد 16. ص. 216. وبالإمكان العثور على تعريف جيد بأبرز الرائدات النسائيات المسلمات في نهاية القرن 19 وبداية 20، في الجزء الأوّل من كتاب «الرائدات» لمؤلفه اللبناني إميلي نصر الله.

(2) زينب فوّاز العاملي. الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور. وهي تفسّر في مقدّمة كتابها بأنها تهديه إلى بنات جنسها المدافعات عن حقوقهن.

(3) اشتهرت هدى شعراوي في العالم العربي، وبالإمكان العثور على ترجمة لحياتها العجيبة في الترجمة التي وضعتها ماركو بدران لفصول من مذكراتها بعنوان:

Harem years. The memories of an Egyptian feminist. Londres. Virago Press. 1986.

للحصول على وصف مصوّر لحملات هدى شعراوي لصالح النساء يجب الرجوع إلى:

The portrayal of women in photography in the Middle East. 1860. 1950. New York. Columbia University Press. 1988.

ويضمّ الفصل الأوّل "Comapaining women" صورا عن مظاهرة النساء المصريات سنة 1919.

الفصل 15:

(1) كتاب ألف ليلة وليلة، من أصوله العربية الأولى. حققه وقدم له محسن مهدي. شركة أي بريل للنشر. قصة الملك قمر الزمان وولديه الأمجد والأسعد. ص. 584.

(2) نفسه، ص. 589.

(3) نفسه، ص. 590.

(4) نفسه، ص. 594.

(5) نفسه. ص. 595 و596.

الفصل 16 :

(1) غالبا ما توجد في الأضرحة القريبة من شاطئ البحر حفرات تقصدها النساء للقيام بطقوس قصد الإخصاب،ويطلق عليها اسم لللا عائشة البحرية، كتلك التي توجد بالقرب من ضريح مولاي بوسلهام على بعد كلمترات من القنيطرة.

الفصل 17 :

(1) من المحتمل أن مينة تقصد قرار الإدارة الفرنسية الصادر سنة 1922، الذي لم يكتف بإعلان تجارة العبيد تجارة غير شرعية (كان الأمر كذلك في المغرب منذ عدّة عقود)، بل إنه أعطى الضحايا. أي العبيد ذاتهم. إمكانية التحرّر ومتابعة مختطفيهم قضائيا والذين تاجروا بهم. وبعد تطبيق القرار بوقت وجيز، اختفت العبودية من المغرب. وكان هذا التحوّل ملحوظا خاصة وأنه بعد القضاء على العبودية على المستوى الدولي، ظل عدّة رؤساء دول وموظفين عرب كبار يصرّحون بأن «القضاء على الرق يتناقض تناقضا مطلقا مع الديانة الإسلامية ولذلك فإنه غير شرعي»، كما يفسّر ذلك الأستاذان محد الناجي وخالد بن الصغير في عملهما الهامّ «بريطانيا العظمى والعبودية في المغرب».

(Hespéris tamuda. Vol. XXIX fax 2. 1191. p.p. 249-281).

إن العبودية «جزء من تقاليدنا» كما كانت تقول بعض الطبقات الحاكمة العربية في مواجهة رأي عام دولي يفرض القضاء عليها، وهي نفس الطبقات التي تزعم اليوم بأن «حقوق الإنسان والديمقراطية» يتناقضان مع قيمنا المقدّسة. وإذا كان الرجال والنساء قد عانوا من وباء العبودية، فإن النساء كن ضحايا يتمّ النيل منهن إلى حدّ لا يحتمل، كما يصوّر ذلك بشكل جيد الكتاب الأخير لمحمد الناجي:

Soldats, domestiques et concubines : l'exclavage au Maroc au XiXe siècle (Editions Eddif, Casablanca, 1994).

إن عبودية النساء تدلّ على أن المجتمعات التي يشكل فيها العنف جزءا من المحيط التقليدي لا يمكن أن تتحوّل إلا إذا كان القانون إلى جانب النساء، وكن قادرات على مواجهة المعتدين عليهم.

والواقع أن كبار الموظفين المسلمين الذين كانوا يقتنون أو يبيعون العبيد هم الذين عارضوا القضاء على العبودية، ووصفو بالتدخل «المهين» من طرف القوات الاستعمارية المتعنتة، وبالخرق للتقاليد الإسلامية. ذلك أن موقف الإسلام من العبودية كان واضحا جدّا منذ البداية: إنها ممارسة جاهلية صادرة عن أناس يسمهم الجهل والعنف، ومن تمّ يجب القضاء عليها بأي ثمن. ومن المظاهر التي تبعث على الدهشة في الإسلام هو أنه اعتمد سياسة جسورة في مناهضتها للعبودية منذ القرن السابع الميلادي، الشيء كان بإمكانه أن يجعل من الحكام المسلمين روادا لمناهضة العبودية في العالم. لقد شجع الرسول صلعم بالقول والفعل المسلمين على تحرير عبيدهم، وأعطى مثلا بنفسه حيث أنه جسّد قطيعة الإسلام مع عرب الجاهلية الأرستقراطيين القساة، حين منح عبده بلالا وكذلك ابنه بالتبني أسامة مناصب هامة في تسيير شؤون الأمة والحرب.

ولكن إذا كان الإسلام قد عارض العبودية بشكل عام، فإن موقفه كان جذريا فيما يتعلّق بعبودية النساء، لأن تعرّضهن للاستغلال الجنسي يعدّ إهانة غير مقبولة في ديانة تجعل من الكرامة والمساواة رسالتها الأساسية كما تدل على ذلك الآيات المتعلقة بمسيكة ومليكة، اللتين كانتا جاريتين لعبد الله بن أبي زعيم المنافقين، الذي كان يجبرهما على البغاء، وهذه الايات المذكورة في سورة النور لا تثبت وجود بغاء منظم في المدينة فحسب، ولكنها تبرز ارتباط هذا البغاء بالعبودية: «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّنا لتبتغوا عرض الحيواة الدنّيا» (النور. آية 33). ويقدّم لنا ابن حجر في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» تفاصيل عن حياة مسيكة ومليكة اللتين أتيتا إلى الرّسول صلعم شاكيتين، فاستجاب الله لشكواهما بتلك الآية (المجلد 7. ص. 517 بالنسبة لترجمة أميمة ورقمها 10869. أما بالنسبة لترجمة مسيكة التي صنفت تبعا لاسمها الحقيقي فانظر: المجلد 8. ص. 119. رقم 11756). إن المسألة التي يجب توضيحها من طرف باحثينا ومؤرّخينا هي السبب الذي جعل الحكام المسلمين يتخلفون في مجال الصراع من أجل حقوق الإنسان في القرن 19 والقرن 20، وهم

يحملون إرثا تاريخيا دعا إلى المساواة منذ القرن السابع. والعديد من المسؤولين يقفون نفس الموقف اليوم بشأن حقوق النساء. والواقع أن مقاومتهم تشكل رفضا لإحدى أجمل قيم التقليد النبوي، الذي لم يكن متناقضا مع مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان.

(2) كان تجار العبيد المحليين يسلمون ضحاياهم إلى النخاسين العرب، الذين كانوا يتابعون سفرهم عبر طرق معروفة نحو الشمال. أنظر خرائط: E.W. Bovill. The garden Trade of the Moors (Oxford University Press. 1970).

وخاصة الفصل الأخير:
"La dernière caravane". pp. 236 et 239.

(3) من أشهرها قصة اختطاف الأميرة نزهة الزمان في حكاية «الملك عمر بن النعمان» في ألف ليلة وليلة. بيروت. المكتبة الشعبية. (د.ت.). المجلد 1. ص. 203.

الفصل 18:

(1) كتب الحكمة المذكورة هي أبحاث في السحر كشأن كتاب «الرحمة في الطب والحكمة» المنسوب إلى الإمام جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ كما يشير إلى ذلك الناشر (بيروت. المكتبة الثقافية) بعد المواضيع الجادّة «كوجع الرأس» و«وجع الأسنان» نجد «في العشق والمحبة»، وفصلا خاصا «بتقوية الجماع»، ثمّ نصل بالضرورة إلى فصل «في ردّ الثيب بكرا». كذلك الشأن في كتاب «تسهيل المنافع في الطب والحكمة» للإمام أبي بكر الأزرق (المكتبة الشعبية ببيروت)، حيث نقرأ في ص. 177 فصلا عن «العشق».. الخ. وسنرى فيما بعد خلال الفصل اللاحق كتابي المفضل في الوصفات السحرية، وهو كتاب الأوفاق المنسوب إلى الإمام الغزالي (بيروت. المكتبة الشعبية). ازدهر هذا النوع من الأدب منذ القرون الوسطى حتى القرن 19. وتقترب مؤلفاته من الطب العربي، ونجد فيها فصولا في علم الطب (غالبا ما تكون في بداية الكتاب)، وبعدها وصفات سحرية مضحكة، ثمّ تركيبات لأقنعة الجمال، وعلاجات لجمال البشرة والشعر، وأساليب منع الحمل، وبشكل خاص العديد من المنشطات وأشكال

العلاج ضدّ العجز الجنسي، بحيث يكون من المفيد تجريبها في المختبرات الحديثة. لازالت هذه الكتب واسعة الانتشار حتى اليوم، إذا قسنا ذلك بثمنها المتواضع وتوفرها الدائم في الشوارع وأبواب المساجد. ومن المحتمل أن تكون هذه الكتب المحتقرة من طرف رجال السياسة والباحثين أساس التربية الجنسية لدى الشباب في الفئات المحرومة، حتى مجيء التلفزيون والهوائيات.

(2) من المفيد ملاحظة أن أفضل شيء لقنه الأتراك الذين حكموا الإمبراطورية العثمانية التي أخضعت القارات الثلاث للعرب، لا يتمثل في طريقة تعزيز سلطة القائد بل في طريقة إضعافها، من خلال الأفكار العلمانية التي نادت بها الثورة الديمقراطية. لقد بهر كمال أتاتورك ناس مدينة فاس وخاصة النساء برؤيته الحديثة لعالم إسلامي لا يتماهى مع ماض يكاد يكون أسطوريا، بل مع مستقبل يختاره ويبنيه بحرية. لقد أدرك أتاتورك رغم كونه عسكريا العلاقة العضوية بين الحريم والاستبداد، وكره الأوّل كما كره الثاني، ونادى بأن قوّة البلاد الإسلامية تكمن في القضاء على الإثنين. وقد تمثلت التحوّلات السياسية والثقافية التي عاشتها تركيا بعد إقامة الجمهورية سنة 1923 التي رأس كمال أتاتورك أوّل حكومة فيها، تمثلت في القضاء على عدّة موسسات تقليدية كالحريم وتعدّد الزوجات، وارتداء الطربوش بالنسبة للرجال، والحجاب بالنسبة للنساء وإن بدرجة أقلّ (غدا اختياريا). تلت ذلك إصلاحات اقتصادية واجتماعية هامّة، فحصلت النساء على حق التصويت في 1934. توفي كمال أتاتورك في 1938، وظلت شخصيته وقراراته الثورية مثار التعليق والنقاش في البيوتات العربية، وخاصة بمصر وتونس. وقد اطلع عليها المغرب بفضل الراديو والحركات الوطنية، وكانت النساء لا تسعهن الفرحة وهنّ يلتقطن أخبارها.

الفصل 19:

(1) رغم أن كتاب الأوفاق منسوب إلى الإمام الغزالي، (مرجع سابق) من غير المعقول أن يكون الغزالي الذي يمثل أحد كبار العلماء المسلمين

في القرون الوسطى قد كتب مثل هذا الكتاب. إنه مجموعة، كما سبق لي أن أشرت إلى ذلك في الفصل السابق، من وصفات سحرية ساخرة إلى حد ما، تجمع بين السحر البدائي وبين أفكار تبسيطية عن التنجيم. وإن كان هذا الكتاب قادرا على التأثير في الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثامنة، فالعارف لا يمكن أن يغتر به. والواقع أن نسبة أبحاث مشكوك في قيمتها العلمية إلى فلاسفة مشهورين أو علماء رياضيات أو قضاة أو أئمة آخرين، تعدّ ممارسة غريبة ولكنها اعتيادية نسبيا في الأدب العربي. عبد الفتاح كيليطو في كتابه:
L'Auteur et ses doubles, essai sur la culture classique (Ed. du Seuil. 1985).
يقدم تفسيرين لهذه الممارسة الباعثة على الاستغراب، هناك أوّلا المؤلفون الحقيقيون الذين كانوا يتخلصون بذلك من النقد والرقابة وغضب الخليفة، ثمّ هناك التفسير الثاني إذ أن نسبة كتاب إلى أحد المشاهير تضاعف من مبيعاته وتوزيعه بأبواب المساجد خلال قرون.

(2) المسعودي. مروج الذهب. دار المعرفة. 1982. المجلّد 2. ص. 212.

(3) نفسه.

(4) كتاب الأوفاق. ص. 18.

الفصل 20:

(1) ألف ليلة وليلة. المكتبة الشعبية. بيروت. لبنان. (د ، ت). الجزء الثاني. ص. 33.

(3) نفسه. ص. 34.

محتويات الكتاب